قيام دولة المماليك الثانية

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

التأليف

قيام دولة المماليك الثانية

تأليف
الدكتور حكيم أمين عبد السيد

تقديم : الدكتور محمد مصطفى زيادة

الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

١٩٦٦

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

تقسيم التاريخ المصرى القومى إلى عصور متولدة بعضها من بعض ، ثم إلى دول منسلخة بعضها من بعض ضرورة عملية عامة لفهم التاريخ كله .

وموضوع هذا الكتاب دراسة جديدة فى أصول دولة من هذه الدول فى مصر ، وهى دولة سلاطين المماليك الثانية أو دولة المماليك الجراكسة على قول المؤرخين السالفين مع بحث جديد كذلك فى قيام هذه الدولة فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، حين كان خطر تيمورلنك وجنوده منذراً بالهجوم على الشرق الأوسط كله .

وهذا الكتاب الجديد محدود بعنوانه ، ولذا تركزت فصوله فى بحث جذور هذه الدولة وحوادث نموها وقيامها فحسب ، فاشتمل الفصل الأول منها على وصف هذه الجذور التى ترجع إلى تكوين فرقة المماليك البرجية أيام السلطان قلاون ، زمن الدولة المملوكية الأولى ، وهى المعروفة كذلك باسم دولة المماليك الأتراك . والمعروف أن هذا السلطان قلاون حرص على أن تكون هذه الفرقة المملوكية الجديدة من الجراكسة لا من الأتراك أو غيرهم من الأجناس المملوكية الأخرى . واستطاع المؤلف أن يبرهن على ذلك كله بدراسة دقيقة لتراجم الشخصيات المملوكية الجركسية فى أثناء الدولة المملوكية الأولى وأن يستخرج منها بعض عناصر النمو التى أدت إلى قيام هذه الدولة المملوكية الثانية .

وفى الفصل الثانى من هذا البحث تتبع المؤلف محاولات الأمير الجركسى برقوق فى سبيل إزالة سلطان المماليك الأتراك وذراريهم وإقامة المماليك الجراكسة أخيراً مكانهم فى الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وذلك بإعلان نفسه سلطاناً بالقاهرة ودمشق سنة ١٣٨٢ م .

ثم اشتمل الفصل الثالث على بداية حكم هذا السلطان الجركسى الجديد ، ومحاولة خلعه ، وإحلال الخليفة العباسى المقيم بالقاهرة محله ، وهو ما أدى إلى كثير من القلق الداخلى .

وشغل هذا القلق الداخلى صفحات الفصل الرابع ، حيث أوضح المؤلف مدى إمعان السلطان برقوق فى سياسته العنصرية الجركسية ، ونجاحه فيها ضد بقايا المماليك الأتراك .

وانتقل المؤلف من هذه المرحلة التكوينية الناجحة إلى موضوع المشكلات الخارجية

التى واجهت الدولة الجديدة ، وأولها ظهور تيمورلنك ، وتهديد ذلك العملاق للسلطان برقوق ولكيان دولة المماليك الثانية ، وزحفه نحو الشام المملوكية ، واستيلائه المشهور على دمشق . ثم جعل المؤلف حوادث الاحتلال التيمورى لدمشق بداية موضوع الفصل الخامس ، الذى اشتمل كذلك على مراحل العلاقات الأخرى بين الدولة المملوكية الثانية وجيرانها من العثمانيين وغيرهم فى الشرق الأوسط ، زمن السلطان برقوق وابنه السلطان فرج حتى سنة ١٤١٢ م ، وهى السنة التى توفى فيها هذا السلطان الثانى والتى يختتم بها هذا البحث .

وسوف يلمس القارئ مدى جهود المؤلف فى تنسيق هذا البحث ، ولاسيما حين يصل إلى مجموعة الوثائق العربية والفارسية المخطوطة والمطبوعة الخاصة بعلاقات تيمورلنك بالسلطان برقوق وابنه فرج ، إذ تدل هذه الوثائق على أن هذه الدولة المملوكية الثانية أدت خدمة جليلة فى التاريخ المصرى القومى بإيقاف الخطر التيمورى عند حد معلوم .

محمد مصطفى زيادة

مقدمة المؤلف

موضوع «قيام دولة المماليك الثانية» يمثل جانباً هاماً فى تاريخ المماليك فى مصر وسورية ، وموضوع الأهمية يتضح فى نواح ثلاث :

الأولى ، أن دولة المماليك الثانية قامت على أسس تخالف الأسس التى قامت عليها دولة المماليك الأولى — وإن اشتركت معها فى بعض اتجاهاتها — إذ اتخذ أصحاب هذه الدولة العصبية العنصرية سلاحاً لإزالة دولة المماليك الأولى ثم استمرت العنصرية إطاراً عاماً لسياستهم الداخلية وميزة واضحة لدولتهم ، بل امتزجت هذه النعرة بدمائهم حتى بعد سقوط دولتهم فى أيدى العثمانيين . وبلغ من شدتها أنه لم يكن فى وسع العثمانيين العمل دونهم فأشركوهم معهم فى الحكم .

أما الناحية الثانية لأهمية دراسة الموضوع فتظهر فى مدى ما أحدثته هذه العصبية العنصرية الوافدة من آثار فى نفوس المماليك الترك ، وفى مدى إظهارها للمحاولات العربية المختلفة للوصول إلى الحكم بعد أن نجح برقوق فى نقل السلطنة إليه .

والناحية الثالثة تكمن فى السياسة الخارجية لمؤسس هذه الدولة ، هذه السياسة التى نتج عنها احتلال دولة المماليك الثانية لمركز الصدارة فى الشرق الأوسط ، فضلاً عن تبوئها زعامة العالم الإسلامى سياسياً وثقافياً برغم ما طفحت به من مؤامرات وفتن .

وهكذا نلحظ أن وضع المماليك الذين حكموا القاهرة فى قائمة دولة واحدة أمر أصبح فى حاجة إلى إعادة نظر ، بسبب ما بين الدولتين من اختلاف فى الاتجاه العنصرى وفى طريقة قيام كل منها ، وفى نظم الحكم والإدارة كذلك .

ولا شك أن الاختلاف العنصرى صفة هامة ، لاسيما أن تيار الاتجاه العنصرى أخذ فى الظهور منذ عهد دولة المماليك الأولى ، حين تكتل الجراكسة فى فرقة المماليك البرجية ، وحاولوا طوال القرن الرابع عشر الميلادى الوصول إلى الحكم . حتى إذا نجحوا فى هذا الأمر فى عهد الناصر محمد ، كان لهذا النجاح نتائجه الوخيمة عليهم ، إذ حلت النكبات بفرقة البرجية ، وصار مرجع هذا كله ما اتجه إليه الجراكسة من التعصب لعنصرهم .

على أن سوء الأحوال الاقتصادية فى البلاد فى أواخر دولة المماليك الأولى ، وما صحبه من ضعف سلاطين هذه الفترة ، وسيطرة كبار الأمراء على الحكم حتى تشبهوا بسلاطينهم ، فجلبوا أعداداً كبيرة من المماليك وفتحوا الباب أمام الوافدية من الجراكسة وغيرهم للقدوم إلى مصر فى وقت قل فيه جلب المماليك الترك بسبب الإغارات المغولية على أواسط آسيا ، مهد هذا كله للجراكسة لمحاولات جديدة للاستفادة من ضعف الدولة المملوكية الأولى فى تأييد مركزهم .

ومع أن المملوك برقوق الجركسى لم تكن تجرى فى عروقه دماء سلطانية ، فإنه استطاع أن يضع خطة للقضاء على دولة بنى قلاون ، وقضى بذلك على فكرة الوراثة فى هذا البيت ، ونقل السلطنة إلى الجراكسة بطريقة وضحت فيها الاتجاهات العصبية العنصرية التى لم تفارق طبيعة الجراكسة أبداً .

ولنجاح فكرة الجراكسة فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى نتائج بعيدة المدى إذ أدى إلى تيار من الهجرات الجركسية إلى مصر طوال دولة المماليك الثانية ، وصار لهؤلاء الجراكسة أثر كبير فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وألهب تعصبهم الثورات العربية فى هذا العصر للمطالبة بالحكم . ولم يقف نفوذ الجراكسة فى مصر حتى بعد الفتح العثمانى لها ، بل صاحبتهم نعرتهم العصبية فى تاريخ مصر الحديث .

وضع برقوق لدولة المماليك الثانية اتجاهات واضحة ، فوقف فى وجه المغول والصليبيين ، واحتفظ بزعامة دولته للعالم الإسلامى ، وأكد صداقتها مع الدول التى لها معها مصالح أدبية أومادية .

غير أن تتبع الناحية العنصرية لم يكن أمراً سهلاً لكثرة الشخصيات التى ظهرت على مسرح السياسة فى دولة المماليك الأولى . وأعاننى على تتبع أصول هذه الشخصيات المصادر التى ترجمت لأعيان هذا العصر مثل « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » لابن تغرى بردى ، « أعيان العصر وأعوان النصر » ، « الوافى بالوفيات » لصلاح الدين بن خليل الصفدى ، « عيون التواريخ » للكتبى وغيرها مما ورد فى حواشى البحث .

على أن متابعة الاتجاهات العنصرية وقت قيام دولة المماليك الثانية لم تكن واضحة فى كل المصادر ، ولكننى تمكنت من الوقوف عليها وعلى دوافعها ونتائجها من بعض المؤرخين الذين امتازوا بالدقة فى كتاباتهم وفى مقدمة هؤلاء المقريزى فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » ، « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » وابن الفرات فى « تاريخ الدول والملوك » كما وجدت بعض النصوص فى « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلانى ، وقد أوضحت هذه

النصوص إحساسات الترك فى دولة المماليك الأولى ومدى خوفهم من سيطرة العنصر الجركسى .

على أننى لم أستطع العثور على ترجمة قائمة بذاتها للسلطان برقوق برغم أن ابن دقماق كتب عنه « عقد الجواهر فى تاريخ الملك الظاهر » إذ يبدو أن هذه السيرة فقدت كما أن بروكلمان لم يذكر عنها شيئاً . وبرغم أن ابن دقماق ذكر فى الجزء الثانى من مخطوطه « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » أنه كتب تاريخاً مفصلا للحوادث التى دارت وقت قيام دولة المماليك الثانية فى الجزء الثانى من كتابه ، « نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام » فإن هذا الجزء لا أثر له بين مخطوطات دار الكتب بالقاهرة أو غيرها ، واتضح أن النسخة المعنونة بالجزء الثانى من نزهة الأنام برقم ١٧٤٠ تاريخ بدار الكتب بالقاهرة ليست سوى قطعة من « الجوهر الثمين » للمؤلف نفسه ، ولم يكن ثمة بد من الاعتماد على كتابات ابن حجر العسقلانى ، وابن تغرى بردى ، وابن الفرات ، وابن الخطيب . فيما ذكروه مفصلاً عن قيام دولة المماليك الثانية وحكم السلطان برقوق . وتعتبر مخطوطة ابن الخطيب « نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان » وثيقة مهمة لقيام دولة المماليك الثانية وتاريخها حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

على أن المراجع الغربية المعاصرة التى كتبت عن حياة برقوق أضافت بعض المعلومات التى أهملها كتابنا . ومن مؤلفى هذه المراجع الغربية Bertrand Mignanelli الذى عاش فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر وتنقل فى الشرق وكتب عن حياة السلطان برقوق بعنوان l'Ascencus Barcoch ومن هذا الكتاب توجد نسخة بمكتبة جامعة فينا ونقل عنها Iorga فى كتابه Notes Et Extraits Pour Servir A l'Histoire Des Croisades T. II.

أما عن حكم السلطان برقوق وابنه فرج وما حدث فيه من تطور شمل نظمه فقد احتوت موسوعة العينى « عقد الجمان فى تاريخ ملوك الزمان » كما احتوى « ذيل تاريخ الإسلام أو الإعلام بتاريخ الإسلام » لابن قاضى شهبة معلومات طيبة عن حكم السلطان برقوق . أما ما أحدثه فى نظم الحكم والإدارة فيأتى فى مقدمة المصادر التى استعنت بها « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » للقلقشندى وكذلك « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » للمقريزى .

واستكملت دراسة الموضوع ببحث موقف جيران دولة المماليك الثانية حين عرضت له مع المقارنة بين وجهتى نظر كتاب دولة المماليك الثانية وكتاب الدول المجاورة . فمن ناحية موقف المغول استعنت بكتابات الفرس مثل « ظفر نامه » لعلى شرف الدين على يزدى والذى نقله إلى الإنجليزية Darly ، وما كتبه خوانداميز « كتاب حبيب السير » وميرخواند « كتاب روضة الصفا » وهو مخطوط بجامعة القاهرة .

ومع أن هؤلاء الكتاب مالوا إلى تعظيم تيمورلنك إلا أن كتاباتهم لم تتصف بالمغالاة .
ومع هذا قابلتها بكتابات ابن تغرى بردى والبسطامى والسلامى الواردة بالحواشى .
ولكتاب ابن خلدون « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » قيمة طيبة فى شرح أحد مواقف تيمورلنك . وقد نشره محمد بن تاويت الطنجى كما نشر Fischel فى كتابه Ibn Khaldoun And Tamerlane جزءاً من التعريف وهو الجزء الخاص بمقابلة تيمورلنك مع جيش السلطان فرج والبعثة المملوكية التى بعث بها الأمراء للصلح مع تيمورلنك . ومع هذا فإن ابن خلدون لم يتناول تفصيلات كالتى أوردها المقريزى أو ابن تغرى بردى أو العينى ..

ثم عرضت للعلاقات الخارجية مع العثمانيين مستعيناً بما ورد فى متون المصادر السابقة مع مقابلتها بآراء كتاب الغرب أمثال Oman فى كتابه The Byzantine Empire ‘ Gibbons فى كتابه Foundation Of The Ottoman Empire ‘

أما موقف الفرنج من دولة المماليك الثانية فلعل أهم مصدر معاصر هو كتاب
l'Egypte Au Commencement Du Quinzieme Siêcle
الذى كتبه Piloti ونشره Dopp ، وبيلوتى هذا تاجر كريتى عاش فى مصر أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر . ومع أن كتاباته خلت من ذكر شىء عن برقوق فإنه فصل الحديث عن علاقة الفرنج بالسلطان فرج .

وفى علاقة دولة المماليك الثانية بالمغرب عثرت فى كتاب « التعريف بابن خلدون » على خطاب ودى من السلطان برقوق إلى سلطان تونس لإرسال أولاد ابن خلدون الذى عزم على الإقامة فى مصر . وأضفت عن السلاوى فى كتابه « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » . معلومات عن أحوال بلاد المغرب وقتذاك .

وتضاف إلى قائمة المصادر الأساسية كتاب « العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » للفاسى و « درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » للخزرجى — (عبد القادر بن محمد) ، « العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية » للخزرجى (أبو الحسن على) ، وهذه فصلت الحديث عن علاقة دولة المماليك الثانية بمكة واليمن .

وأحب أن أسدى شكرى العظيم إلى أستاذى الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى أشرف على هذا البحث إشرافاً علمياً دقيقاً ، فى روح أبوية مملوءة بالعطف الصادق الذى أحس به كل من تتلمذ على يديه .

والله الموفق

حكيم أمين عبد السيد

الفصل الأول

أصول دولة المماليك الثانية

بداية تكوين فرقة المماليك البرجية زمن قلاون ـ الجنسية الجركسية الغالبة بينهم ـ العناية الخاصة بهم ـ اقامتهم فى أبراج القلعة وطباقها ـ عدد هذه الفرقة ـ ازدياد عددهم زمن السلطان خليل بن قلاون ـ التغيرات الجديدة فى تربيتهم ـ موقفهم من مقتل خليل سنة ١٢٩٣ م ـ علاقتهم بسلطنة الناصر محمد فى تلك السنة ـ انضمام البرجية الى الوزير الشجاعى ضد نائب السلطنة كتبغا والمماليك الترك ـ خلع الناصر محمد وسلطنة كتبغا المغولى سنة ١٢٩٤ م . ـ معارضة البرجية للسلطان كتبغا ـ سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦ م ـ معارضة البرجية للسلطان لاجين وقتله على أيديهم ـ اعادة الناصر محمد الى السلطنة سنة ٦٩٨ هـ (سنة ١٢٩٨ م) . ازدياد نفوذ البرجية فى الجيش المملوكى ـ أثرهم فى سلطنة بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ . سنة ١٣٠٧ م ـ ازدياد المماليك الجراكسة فى صفوف البرجية ـ المنافسة بين المماليك الجراكسة والمماليك الترك واعادة الناصر محمد على أيدى المماليك الترك ـ اضطهاد الناصر محمد للجراكسة فى سلطنته الثالثة ـ ثورات الجراكسة زمن السلطان شعبان بن الناصر محمد سنة ١٣٤٥ م ـ حركاتهم ضد الترك زمن السلطان حاجى بن الناصر محمد سنة ١٣٤٦ م ـ ازدياد نفوذ الجراكسة زمن السلطان حسن سنة ١٣٤٧ م ـ انضمامهم الى جانب أخيه أمير حسين ـ ظهور الأمير يلبغا التركى العمرى واقتناؤه المماليك الجراكسة ـ انقسام اليلبغاوية ومقتل يلبغا سنة ١٣٦٧ م ـ النزاع بين اليلبغاوية وبين السلطان شعبان بن حسن وطرد اليلبغاوية من مصر سنة ١٣٦٨ م ـ ظهور برقوق الجركسى ـ انضمام بقايا اليلبغاوية بالقاهرة الى جانب السلطان شعبان ـ نجاحهم فى اعادة اليلبغاوية المطرودين ـ سيطرة اليلبغاوية على الجيش .

ترجع أصول تكوين دولة المماليك الثانية إلى أوائل أيام السلطان قلاون حين عزم حوالى سنة ٦٨١ هـ سنة ١٢٨١ م على تكوين فرقة جديدة من المماليك (١) ، ليكون

---

(١) حدد ابن إياس سنة ٦٨١ هـ تاريخاً ترك فيه قلاون ركوبه بسبب ثورات الترك وبداية لتكوين مماليك جدد : انظر بدائع الزهور جـ ١ ص ١١٥ ، راجع كذلك ابن دقماق « الجوهر الثمين » جـ ٢ ورقة ١١٧ .

خلاصها له ويكون اعتماده عليها من دون الفرق المملوكية السابقة (١) ، وأطلق قلاون على أفراد هذه الفرقة اسم «البرجية» نسبة إلى أبراج القلعة التى أنزلهم بها (٢) ، وحرص السلطان على أن يكون أفراد هذه الفرقة من عناصر جديدة ، فتجنب جميع العناصر السابقة فى الدولة المملوكية الأولى وهم الخوارزمية والتركمان والتتار والأتراك . ولذا غلب على الأجلاب الجديدة عنصر الجركس ، الذين جيء بهم من بلاد القسم الشمالى الغربى من القوقاز ، أى حوض نهر قوبان وقسما من الشاطىء الشرقى للبحر الأسود إلى أطراف بلاد الابخاز جنوباً ، ومن فروعهم السركس ، والأركس ، والكسا ، والآص (٣) .

وعلى الرغم مما اشتهرت به هذه القبائل من الشجاعة والفروسية ، فإن بعثرتها بين مناطقها الجبلية ووديانها سهل خضوعها للمغول الذين اشتدت غاراتهم على هذه البلاد منذ أواخر القرن الثالث عشر (٤) . ولذا امتلأت معظم أسواق المماليك بالعنصر الجركسى . ويبدو أن اختيار السلطان قلاون لهذا العنصر ليكون نواة لفرقته الجديدة كان من أسبابه وفرتهم فى الأسواق ، فضلاً عن رخص ثمنهم آنئذ بالنسبة للعناصر التركية (٥) .

وظل السلطان قلاون يعمل على الإكثار من هذه الفرقة حتى بلغت عدتها فى أواخر حكمه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك ، (٦) ، غير أن لفظ الجركس لم يطلق على فرقة المماليك البرجية إلا بعد سنوات عديدة .

---

(١) من هذه الفرق المملوكية السابقة فرقة « الظاهرية » مماليك الظاهر بيبرس التى أيدت المسعود الخضر بن الظاهر بيبرس ضد السلطان قلاون ، وعاونته فى استمرار بقائه بالكرك — راجع العينى عقد الجمان جـ ٢ ورقة ٦٦٦

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٤ ، ٢٤١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٥٦ . ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٤٧ ، جـ ١٤ ص ٣٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة الجركس .

(٤) راجع Morgan : Etudes Arch. & Hist · au Caucase T. II P.P. 250-277.

(٥) تراوح ثمن الواحد من الجراكسة بين ١١٠ ، ١٢٠ ديناراً على حين كان ثمن التركى بين ١٣٠ ، ١٤٠ دينارا — راجع Heyd : Hist. Du Commerce Du levant T. II. p. 559.

(٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٤ : فى حديث المقريزى فى هذا الشأن وقوله (وجعلهم طوائف) لا يعود الضمير على السلطان خليل بل على السلطان قلاون بدليل أنه أكد هذا فى ص ٢٤١ فى نفس المرجع .

وجعل قلاون إقامة مماليكه الجدد فى أبراج القلعة أى فى مركز إقامة السلطان ودار الحكومة ليكونوا على قوله « كالأسوار والحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين » (١)

ولم تكن أبراج القلعة صغيرة ، بل اتسعت بحيث سمحت لسكنى جميع الفرق المملوكية الجديدة ولا سيما بعد أن أضاف إليها السلطان قلاون سنة ٦٨٣ هـ (سنة ١٢٨٣م) برجا عظيماً بجانب باب السر الكبير ، وبنى فى مستواه عدة طباق ، وألحق بها عدة قاعات مرخمة (٢) . وأطلق قلاون على هذا البرج اسم البرج الكبير ، مضافا إلى الأبراج الأخرى وهى البرج الأحمر ، وبرج الزاوية ، وبرج الحداد ، وبرج الرملة ، وبرج الإمام وغيرها (٣) ، على أنه جعل البرج الكبير لمماليكه الجدد ، وفصلهم بذلك عن الفرق المملوكية القديمة التى عرفت فى مجموعها باسم الترك (٤) .

وعنى قلاون عناية شخصية بمماليكه الجدد ، ودأب على الجلوس بالرحبة بالقلعة ليشهد تمرين كل طبقة بين يديه بالرماح أو رمى النشاب (٥) ، وهذا فضلاً عن أنواع التربية الدينية المعروفة فى الأوساط المملوكية فى ذلك الوقت . ووضحت ميول قلاون نحو مماليكه الجدد (٦) مما جعل هناك مجالاً لنوع من الطائفية ، وبداية للتنافس العنصرى والحزبى بين المماليك .

وسار السلطان خليل بن قلاون على سنة أبيه فى الإكثار من المماليك الجركس حتى إنه رغب فى زيادة عددهم إلى عشرة آلاف مملوك ، فاشترى فى حكمه القصير (سنة ١٢٨٩ – سنة ١٢٩٣ م) حوالى ألفى مملوك من أسواق ثغر كفا بالقرم ، وأصبح ذلك الثغر مورداً هاماً للجراكسة (٧) .

غير أنه على حين حتمت النظم المعروفة آلايبارح المماليك القلعة ، سمح لهم

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٠٤ نقلا عن ابن عبد الظاهر .

(٣) راجع القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٣٣ – ٢٣٤ .

(٤) راجع العرينى : الفارس المملوكى ص ٤٨ .

(٥) ذكرت المصادر المعاصرة أن السلطان قلاون غير ملابس مماليكه الجدد بزى أحسن منه تسهل معه حركتهم – راجع ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ .

(٦) غالى المقريزى حين ذكر أن السلطان قلاون خص البرجيه بالترقية إلى وظائف السلاحدارية والجمقدارية والجاشنكيريه والأوشاقية ، وذلك لقصر المدة التى يمكنهم أن يصلوا فيها إلى هذه الوظائف . راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٧) المقدسى . نزهة الناظرين ص ٢٥٧ .

السلطان خليل أن ينزلوا منها فى النهار بشرط ألا يبيتوا خارجها (١) . وأدى هذا إلى وقوفهم على الأحوال العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس ، كما أدى إلى ازدياد تعلقهم بالسلطان خليل ، حتى صارت فرقتهم تعرف أحيانا بالأشرفية ، وبدأت بذلك المنافسة بين الترك والجراكسة .

ومن هذه البداية يتضح أن الأمير بيدرا نائب السلطنة — وهو من الترك — استغل فساد سمعة السلطان خليل بين الناس ، وتمكن بالاتفاق مع الأمير لاجين السلاحدار (٢) وغيره من كبار الأمراء الترك على قتل السلطان وهو فى إحدى سرحات الصيد(٣) ، أملاً فى إعلان نفسه للسلطنة ، وثارت المماليك البرجية بالقلعة لقتل خليل . ولم تهدأ ثائرتهم حتى استطاع الأمير طقجى البرجى قتل بيدرا وغيره من الأمراء الترك الذين ظهر أنهم اشتركوا فى هذه الفتنة (٤) . ولذا كان من الطبيعى أن يجمع البرجية على اختيار أخى خليل وهو الناصر محمد بن قلاون للسلطنة فى المحرم سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣ م) ، وسنه وقتذاك نحو تسع سنوات ، على أن يكون كتبغا المغولى نائب السلطنة وسنجر الشجاعى التركى فى منصب الوزارة(٥) .

ثم لم يلبث كتبغا أن استغل صغر سن الناصر محمد بن قلاون وأخذ يستأثر بالسلطة دون سائر الأمراء . وغضب البرجية الذين كانوا السبب فى إقامة السلطان الجديد ، وأخذوا فى التدبير لملافاة هذا الأمر ونسبوا إلى كتبغا تهمة التستر على اشتراك لاجين فى قتل السلطان خليل (٦) . وانتهز الوزير سنجر الشجاعى فرصة كراهية البرجية لكتبغا ليغتصب السلطنة لنفسه ، فلجأ إلى بث الفتن بين الأمراء ، واتهم كتبغا بإهمال شأن الناصر محمد واستطاع فى النهاية أن يحدث انقساماً فى صفوف المماليك ، وصار العسكر فريقين ؛ فريق مع كتبغا ومعظمهم من الأمراء والمقدمين الترك ، والفريق الآخر مع الوزير الشجاعى وهم فرقة المماليك البرجية (٧) . غير أن ثمة ملاحظة هامة فى هذا الصراع الوشيك الوقوع وهى : أن الانقسام لم يحدث على هذا النحو مصادفة ، بل كان

---

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢١٣ .

(٢) المقريزى: السلوك ج٢ص ٨٢١؛ Wiet:Biographies Du Manhl Safi p. 288.

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ج ١ ورقة ١٢٠ .

(٤) Zettersteen . تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٦ — ٢٧ .

(٥) ابن تغرى بردى . المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٧٨ أ .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٨ — ٣٣٩.

(٧) الكتبى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ١٠٠ .

نتيجة استغلال كتبغا النزعة العنصرية ، إذ أخذ منذ ولايته لنيابة السلطنة يعمل على استمالة العناصر التركية من بنى جنسه إلى جانبه بإسناد الوظائف إليهم (١) . أما الشجاعى فبرغم أنه تركى فإنه لم يكن فى وسعه سوى ضم البرجية إلى جانبه بإنفاق الأموال الطائلة عليهم ، حتى قيل إنه أنفق فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، كما زاد من حماستهم أنه أعلن فيهم أن كل من قتل أميراً من الترك من فريق كتبغا وجاء برأسه إليه « يأخذ بيته وبركه وإقطاعاته » (٢) . على أننا نلاحظ ناحية هامة أخرى وهى أن انضمام البرجية إلى جانب الشجاعى لم يكن رغبة فى معاونته على تحقيق أهدافه فى الوصول إلى السلطنة ، بل إنهم فهموا أنهم اشتركوا فى نزاع شخصى بين الشجاعى وكتبغا من أجل تأييد مركز السلطان الجديد ، فضلاً عن رغبتهم من وراء هذا فى الانتقام من كتبغا أخذاً بثأر خليل أستاذهم المقتول .

وتوضح المقارنة بين الفريقين المتنازعين أن عدد البرجية بلغ آنئذ نحو خمسة آلاف وسبعمائة فى الوقت الذى ذكرت فيه المصادر المعاصرة أن عدد الترك نقص عن هذا العدد كثيراً (٣) ؛ ولذا شعر كتبغا بضعف جانبه فلجأ إلى إغراء الأمراء وأجناد الحلقة من الأتراك بالمال (٤) ، كما لجأ إلى الاستعانة بالسلطان الناصر محمد ليطلب الشجاعى للحضور إلى القصر السلطانى بالقلعة والاجتماع لتصفية الخلاف ، ولكن الشجاعى رفض أن يذعن للسلطان ، فخلق بذلك مجالاً للكشف عن نواياه فى السلطنة ، كما أنه جعل أتباعه من البرجية يظهرون كأنهم عصاة على السلطان ، ولهذا اجتمع الأمير كتبغا فى العاشر من صفر سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣م) ، بأعيان الترك وألبسهم آلات الحرب وأوقفهم فى سوق الخيل تحت القلعة ، على حين تحصن الشجاعى بالقلعة نفسها وأغلق بابها ودق الكئوسات داعياً أتباعه من البرجية لحرب المماليك الترك .

وبدأ كتبغا حصار القلعة بقطع الماء عنها . (٥) وإزاء هذا نزل المماليك البرجية يوم الجمعة ١٣ من صفر ٦٩٣هـ (سنة ١٢٩٣م) من القلعة على حين غفلة وفاجأوا الأمير كتبغا وأتباعه من المماليك الترك وهزموهم ثم طاردوهم إلى خانقاه سرياقوس ومنها إلى بئر البيضاء — بين الخانكة وبلبيس — فاضطر كتبغا إلى الفرار إلى بلبيس (٦) .

---

(١) راجع الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٣٨ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٣ .
(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٨ ص ١٨٠ .
(٤) بيبرس الدوادار : التحفة الملوكية ورقة ٦٣.
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٣.
(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٨ ص ١٨٠ — ١٨١ .

وكاد انتصار البرجية على الترك يحول مجرى الحوادث ويعجل بالقضاء على سلطنة بيت قلاون لولا أن نهضت العناصر التركية بزعامة بكتاش أمير سلاح ، وبيسرى أمير مائة ، وبكتوت العلائى أمير مائة ، وأيبك الموصلى أمير أربعين واستعانت بالعامة لمواجهة البرجية وتمكن الترك ن هزيمة البرجية فى واقعة حاسمة عند البئر البيضاء فى نفس الشهر واضطر البرجية بعدها إلى الهروب للاحتماء بالقلعة (١) .

ثم أدرك الترك أن الوزير الشجاعى خدع البرجية حين أخبرهم أنه أراد بحركته الدفاع عن بيت قلاون من سطوة كتبغا ، وأن البرجية لو عرفوا الحقيقة لأظهروا إخلاصهم وولاءهم للسلطان الذى لم يمض على اختيارهم له أكثر من شهر . ولذا عمدوا إلى حيلة يستجلبون بها خواطر البرجية وذلك بكشف نوايا الشجاعى لفرقة البرجية فجعلوا السلطان الناصر محمد يصعد على البرج الأحمر ويدعو البرجية إلى طاعته . ونجحت حيلتهم إذ ما كاد نظر البرجية يقع على السلطان الناصر محمد حتى فهموا موقف الوزير الشجاعى على حقيقته ، وما لبثوا أن استجابوا لنداء السلطان وأسرع البرجية وجاءوا إلى الناصر محمد وقبلوا الأرض بين يديه واعتذروا عما قاموا به نحوه بقولهم «نحن مماليك السلطان ولم نخلع يدا عن الطاعة و ليس قصدنا إلا حفظ نظام الدولة واتفاق الكلمة وإزالة أسباب الفساد عن المملكة» . (٢) .

وهكذا فشل الشجاعى بعد أن بدأ أصحابه من البرجية يتسللون للانضمام إلى كتبغا مما قوى جانبه وأعانه على إحكام الحصار على القلعة حتى آثر الشجاعى طلب الأمان الذى لم يقبله الأمراء . ولم يلبث الشجاعى أن شعر بضعف مركزه فسلم نفسه لكتبغا ، الذى قطع رأسه ، وطاف المشاعلية بها فى الشوارع والبيوت ، ودقت البشائر معلنة انتهاء الفتنة (٣) .

والواقع أن هذه الحادثة دلت على بداية تحول فى سياسة فرقة البرجية حتى أصبحت فرقة تعمل مع الأمير الذى يغدق عليها مالاً أكثر من غيره . ووضحت هذه البداية فى اندفاع البرجية وراء الوزير الشجاعى وخروجهم على نائب السلطنة على هذه الصورة الخاطفة الجريئة ؛ ومنذئذ بدأ الأمراء الترك يعملون ألف حساب لهذه الفرقة الجديدة التى وقفت عقبة أمام أطماعهم فى السلطنة .

ولما كان كتبغا يرغب فى أن يكون له كامل النفوذ فى الدولة بعد أن تخلص من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠.

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر قسم ٢ ورقة ١٨٠.

(٣) الصفدى : أعيان العصر ج ٦ قسم ٢ ورقة ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

الشجاعى ، فإنه وجد أن بقاء البرجية سوف لا يحقق له هذه الرغبة ، ولذا تظاهر بأنه يخشى نشاط البرجية السياسى ضد سلطنة بيت قلاون ، وعمد إلى إخراج طوائفهم المتهمة بالثورة من الأبراج السلطانية بالقلعة لتقيم فى مناظر الميدان الصالحى بأرض اللوق؛ وطائفة ثانية فى مناظر الكبش بجوار الجامع الطولونى (١) ، وأخرى فى دار الوزارة برحبة باب العيد ، كما سجن عدداً كبيراً من البرجية الذين خشى خطرهم . غير أنه أبقى على طائفة منهم تبلغ نحو أربعة آلاف وسبعمائة بالقلعة، وضيق عليهم الخناق وأمر بعدم مغادرتهم الأبراج خشية انضمامهم إلى إخوانهم الذين طردوا من القلعة (٢) .

وأصبح من الواضح إذن أن الترك لم يعمدوا إلى تشريد البرجية رغبة فى حماية عرش الناصر محمد ، ولكن رغبة فى القضاء على معارض خطير بدأ فى الظهور على مسرح السياسة . ومن هنا بدأ اهتمام البرجية يتحول من الدفاع عن السلطان إلى الانتقام من المماليك الترك .

ثم إن هذا الإجراء من جانب كتبغا لم يكن له أثر كبير فى إضعاف نفوذ البرجية بل على العكس أدى إلى تكرار ثوراتهم ، ذلك أن المماليك البرجية الذين طردوا من القلعة لم يرضوا بهذا التشريد ، وخاصة بعد أن أعلنوا للناصر محمد أنهم لم ينضموا إلى جانب الشجاعى ضده بل رغبة فى الانتقام من كتبغا . ووجد هؤلاء البرجية أن إخلاصهم للناصر محمد لم يجدهم شيئاً بعد أن استحوذ الترك عليه وجعلوه ألعوبة فى أيديهم، وهو لم يجاوز وقتذاك العاشرة من عمره . ولما لم تعد هناك قيمة لتأييدهم للسلطان الناصر محمد أصبحت سياستهم تنحصر أولا وقبل كل شىء فى المحافظة على كيانهم إزاء الاضطهاد التركى .

وفى ١١ من المحرم سنة ٦٩٤هـ (سنة ١٢٩٤م) سنحت الفرصة للبرجية المطرودين لمحاولة العودة إلى مكانهم القديم حين خرجت فرقتهم المقيمة بالكبش واتجه أفرادها إلى الاصطبلات التى تحت القلعة ، واستولوا على ما بها من الخيول ثم دارت الفرقة على خشداشيتها بمناظر الميدان الصالحى ودار الوزارة ، وبعدها اتجهوا جميعاً إلى باب سعادة فأحرقوه . ثم قصدوا إلى سوق السلاح بالقاهرة؛ ومضوا بما أخذوه من السلاح إلى خزانة البنود

---

(١) هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى ، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو سنة ٦٤٠ هـ ثم جددها الناصر محمد سنة ٧٢٣ هـ وسكنها فيما بعد الأمير صرغتمش والأمير يلبغا العمرى الخاصكى من بعده زمن السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون. وأصبح هؤلاء الأمراء يناوئون سلاطين دولة المماليك الأولى منها — راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٣٤.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٢ .

وأخرجوا من فيها من المماليك ثم توجهوا إلى القلعة لحصارها . ولكن محاولتهم لم تفلح إذ تمكنت حامية القلعة من القبض عليهم ، حيث ضربت رقاب بعضهم ، وقطعت أيدى جماعة أخرى وأرجلهم وصلبت جماعة أخرى منهم على باب زويلة (١) ، واستصدر كتبغا أمراً من السلطان الناصر محمد بتوزيع باقى الثائرين وعددهم نحو ثلثمائة مملوك على الأمراء إمعاناً فى الحط من شأنهم ، إذ كانوا مماليك سلطانية ثم صاروا مماليك أمراء (٢) .

على أن هذه الثورة التى قام بها المماليك البرجية أخافت كتبغا نائب السلطنة من انتقام البرجية الموجودين بالقلعة ، فسارع بخلع السلطان الناصر محمد ونفاه إلى الكرك وأقام نفسه سلطاناً فى ٢١ من المحرم من السنة نفسها (٣) ، واتبع هذا ببذل جهوده لكسر شوكة البرجية الذين ما زالوا يشكلون بأعدادهم الكبيرة خطراً داهماً على الدولة ، كما عمل على تقوية جانب المماليك الترك . وتحقيقاً لهذه السياسة شتت كتبغا عدداً كبيراً من البرجية المقيمين بالقلعة ، وأحل مكانهم طائفة من بنى جنسه وهى طائفة المغول الأويراتية الذين فروا من بلادهم سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) بعد ولاية غازان محمود الحكم فيها واستدعى السلطان كتبغا أكابرهم ليقيموا بقلعة الجبل وأنعم على مقدمهم طرغاى بإمرة طبلخاناه وأنزل الباقين بالحسينية . وحرم كتبغا بهذا الإجراء عدداً كبيراً من البرجية من إقطاعاتهم وتأثر عدد آخر منهم حين قلل من رواتبهم التى أعطاها لهؤلاء الأويراتية (٤) .

غير أن كل هذه الجهود من جانب السلطان لم تؤد كذلك إلى ضعف شأن البرجية سواء الذين فى داخل القلعة أو خارجها . بل أدت فعلا إلى خلق العنصرية الواضحة فى صفوف المماليك. وبدأ المماليك البرجية ينتهزون الفرص للانتقام من الترك فى شخص السلطان كتبغا . ولكن الحوادث لم تمكنهم من تحقيق ذلك إذ استطاع الأمير لاجين (٥) إثارة عدد كبير من الأمراء الترك على كتبغا بسبب عزله عز الدين أيبك الحموى نائب الشام ، وعمد لاجين بذلك إلى التمهيد لنفسه للوصول إلى السلطنة . ثم

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠٥ – ٨٠٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٨ .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ١٨٧ أ ، ١٨٨ أ.
، ابن أبى الفضائل : النهج السديد جـ ٢ ص ٤١٨ – ٤٢١ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٣ ص ٢٢ – ٢٣.

(٥) كان لاجين روميا ومع ذلك كان أبرز شخصية من باقى الأمراء الترك راجع ابن بهادر : فتوح النصر قسم ٢٠ ورقة ١٩١.

حاول لاجين أواخر سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) قتل كتبغا وهو عائد من الشام فلم يستطع، ولكنه استطاع الوصول إلى منصب السلطنة فى المحرم سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وانضم إليه جميع المماليك الترك وذلك بعد أن فر كتبغا إلى صرخد(١).

وباعتلاء لاجين عرش السلطنة سنة ٦٩٦ هـ لم يتغير موقف البرجيه من الترك بل تركز انتقامهم منهم فى شخص السلطان لاجين بعد أن اختفت شخصية كتبغا وعادوا ينتظرون الفرصة لتحقيق هدفهم. وبدت الفرصة سانحة فى صفر سنة ٦٩٨ هـ حين انقسم المماليك الترك على السلطان لاجين بسبب مخالفته لرأيهم فى تعيين الأمير منكوتمر أحد مماليكه المكروهين فى نيابة السلطنة (٢). وأصبح جانب السلطان لاجين ضعيفاً حين أخذ الأمراء الترك يدبرون المؤامرات ضده وضد الأمير منكوتمر. وخشى الأمير منكوتمر أن ينتهز البرجية الفرصة ويقتلون السلطان لاجين. ولذا أخذ يعمل على إبعاد الأمير سيف الدين كرجى مقدم المماليك البرجية، فأوعز إلى السلطان لاجين أن يوليه نيابة بعض القلاع التى فتحها عسكر السلطان ببلاد الأرمن (٣). غير أن الأمير كرجى تنبه إلى المؤامرة وطلب من السلطان لاجين أن يعفيه فأعفاه. وأسرع كرجى يعد عدته؛ واستطاع البرجية تنفيذ خطتهم حين جلس السلطان فى القصر إلى وقت المغرب من ليلة ١٠ من ربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ فاتفق كرجى مع صاحب نوبة تلك الليلة وهو نوغاى الكرمانى على أن يدخل المماليك البرجية وأن يمكنهم من الهجوم على السلطان وقتله. والخلاصة أن كرجى بمعاونة نوغاى الكرمانى تمكن من قتل السلطان لاجين حين قام لصلاة العشاء. وتظهر أهمية هذه الحادثة فيما ذكرته المصادر عن نفوذ البرجية وقتذاك إذ أن كرجى جلس فى القلعة لحفظها ومعه نحو ألف فارس من المماليك البرجية (٤).

وربما يتساءل المرء: لماذا لم يقم المماليك البرجية كرجى سلطاناً وقتذاك؟ والإجابة تأتى من سياق الحوادث التى تلت مقتل السلطان لاجين، وذلك أن المماليك البرجية لم تكن صفوفهم رتبت بعد ليكون فى استطاعتهم إجماع الآراء على واحد منهم. وينهض دليلاً على هذا أنه كان بين صفوف البرجية أمير أقوى من كرجى؛ وهو بيبرس الجاشنكير بن عبد الله المنصورى الجركسى الجنس، وله أنصار كثيرون، لا من البرجية فحسب، بل من الترك كذلك؛ فضلاً عن أنه تأمّر قبل كرجى وذلك منذ أيام أستاذه

---

(١) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٤.

(٢) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٨٢٢.

(٣) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ ٣ ورقة ٥١ ب.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٧ — ١٣٨.

المنصور قلاون . وزاد نفوذه حين أصبح من كبار الأمراء فى عهد السلطان خليل . ولم يقلل من شأن بيبرس الجاشنكير سوى السلطان كتبغا الذى عزله عن الأستادارية جريا على سياسته فى تشتيت البرجية . ووقف بيبرس الجاشنكير فى جانب الأمراء وأجناد الحلقة والمقدمين وأجمعوا على قتل كرجى لأنه عارضهم فى إعادة الناصر محمد وطالب بسلطنة واحد من البرجية وهو طقجى وأن تكون النيابة له (١) . ثم تمكن الأمراء من قتل طقجى كذلك (٢) ، وتخلصوا من صراع طائفى وشيك الوقوع بأن اتفقوا على الاحتفاظ بالسلطنة فى بيت قلاون ، فأرسلوا إلى الكرك فى جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨م) لإحضار الناصر محمد الذى اعتبره الناس السلطان الشرعى للبلاد ، ثم سلطنوه وأصبح الأمير سلار التركى نائب السلطنة(٣) .

ويبدو واضحاً من كل هذه الحوادث أن البرجية أصبحت منذ سنة ٦٩٨ هـ — (١٢٩٨ م) فرقة لايستهان بها . وفضلا عن كثرتهم العددية صار أغلبهم فى سلطنة الناصر محمد الثانية من كبار الأمراء (٤) بل أصبح منهم أمراء ألوف وعين البعض الآخر نوابا فى سورية ومصر . ومن هؤلاء قراسنقر الجركسى المنصورى الذى عاد إلى نيابة الصبيبة ثم ناب فى حلب بعد كتبغا(٥) .

غير أن ازدياد نفوذ البرجية فى هذه السنة كان من عوامل ثورة العناصر المملوكية الطامعة فى الحكم ، ومن هذه العناصر بقايا فرقة المغول الأويراتية ، إذ نصب هؤلاء المغول كميناً لمباغتة البرجية قبيل لقاء الجيش المملوكى لجيش غازان سنة ٧٠٢ هـ ، ولكن البرجية تنبهوا لهذه المؤامرة وحاولوا الانتقام من الأويراتية ، ولما أوشك الانقسام أن يدب فى جيش المماليك أسرع سلار نائب السلطنة وقبض على الأويراتية وشتتهم(٦) .

ثم أصبح البرجية عنصراً هاما فى الجيش المملوكى بعد أن أسهموا بسهم وافر فى صد جيوش غازان التى هاجمت سوريا بين سنتى ٦٩٨ هـ ،٧٠٢ هـ . وأوضح ابن تغرى بردى صورة من هذه الجهود فى وصفه لواقعة شقحب (إحدى قرى دمشق) . سنة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٦٦ .
(٢) Zettersteen تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٢ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٤ .
(٤) عيون التواريخ جـ ٥ قسم ١ ورقة ١٣٢ .
(٥) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢٤٦ .
(٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٨٤ — ذكر المقريزى فى المقفى كذلك جـ ٣ ورقة ٨٦ أن الأويراتيه أرادوا بهذه الفتنة قتل بيبرس وسلار لإمكان إعادة كتبغا إلى السلطنة وهنا تظهر ناحية طائفية لعلها كانت أهم أسباب ضعف العنصر التركى أمام العنصر الجركسى .

٧٠٢ هـ وهي الواقعة التي قادهم فيها بيبرس الجاشنكير وذلك في قوله : « وسلموا نفوسهم إلى الموت ، فلما رأى باقي الأمراء منهم ذلك ألقوا بأنفسهم إلى الموت واقتحموا القتال »(١)

على أن هذه الانتصارات التي أحرزها البرجية في ميادين القتال غيرت من سياستهم إزاء بيت قلاون إذ انقلبوا من متعصبين له إلى طامعين في السلطنة كلها . وتفصيل هذا أن الأمير بيبرس الجاشنكير متولى أمور المماليك البرجية بعد كرجي تولى منصب استادارية الناصر محمد ، فعمد إلى رفع شأن المماليك البرجية بعد واقعة شقحب . وبلغ نفوذ البرجية درجة جعلت الناس يترددون إليهم في قضاء حاجاتهم حتى إن المقريزي أوضح لنا مدى نفوذ البرجية في سلطنة الناصر محمد الثانية في قوله : « وقويت شوكة البرجية بديار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة (٢) وترددت الناس إليهم في الأشغال وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير ، وأمّر منهم عدداً وصار في قبالته الأمير سلار ومعه الصالحية والمنصورية (الترك) إلا أن البرجية أكثر وأقوى وشرهوا جميعا إلى أخذ الإقطاعات » (٣) .

وهكذا اشتدت المنافسة بين البرجية وبين الترك وظهر هذا التنافس واضحاً حين عمد كل من الفريقين إلى زيادة نصيبه من الإقطاعات ومن مناصب الإمارة المملوكية رغبة في أن ترجح كفة فريقه على الفريق الآخر ، وبذا يسهل عليهم خلع السلطان . وضاق صدر الناصر محمد — الذي ناهز العشرين من عمره — من هذا الصراع بين طائفتي المماليك ، هذا الصراع الذي أوشك أن يضعه بين شقي الرحى ، فهو لم يستطع التصرف في شئون الدولة . كما أنه لم يصل إلى ما تشتهي نفسه من المأكل لقلة المرتب له في وقت بلغت إقطاعات الأمراء شيئاً كثيراً حتى يقال إن إقطاعات سلار فقط بلغت نحو أربعين طبلخانة وبلغ دخله في كل يوم مائة ألف درهم (٤) .

وفي رجب سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٧ م) حاول الناصر محمد أن يتخلص من زعيمي الطائفتين بالاتفاق سراً مع الأمير بكتمر الجوكندار على قتلهما ، غير أن بكتمر نفسه كشف المؤامرة للأميرين ؛ بل حلف لهما على أن يكون معهما . فتحالف بيبرس وسلار على العمل بدورهما ضد السلطان . ولما لم يكن مع السلطان سوى عدد قليل من المماليك

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) الحمايات جمع حماية وهي مكس يفرضه الأمير أو السلطان أحياناً على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرر — راجع ، الأسدي : التيسير والاعتبار والاختبار ورقة ٥٢ — ٥٣ ، Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٨٧٥ — ٨٧٦ .

(٤) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع جـ ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

السلطانية الترك الذين أعدهم لحمايته ، فإنه لم ينقذه من هذا الموقف سوى العامة الذين أسرعوا لتأييده ، فضلاً عن أن الناصر محمد عمد إلى الحيلة وتظاهر بجهله بكل مايدور وبعث يسأل الثائرين عن غرضهم ويعلن استعداده التام للتنازل عن السلطنة . وكأنما شعر الأميران بحرج موقفهما مع المماليك السلطانية والعامة ، فأرسلوا فرقة إلى العامة لتفريقهم ، ولكن هذه الفرقة فشلت لأن العامة ثبتوا فى أماكنهم وظلوا يصرخون مؤيدين الناصر محمد بقولهم: « يا ناصر يامنصور ! الله يخون من يخون ابن قلاون(١) ». ولما لم تفلح القوة فى قمعهم اضطر الأميران إلى التوجه إلى الناصر محمد معلنين طاعتهما سائلين أن يركب فى أمرائه إلى الجبل الأحمر حتى تطمئن قلوب العامة ، فأجابهما إلى ذلك . وهكذا أخمدت الثورة وفشلت محاولة السلطان للتخلص من الأميرين اللذين أذعنا له وقبلا يديه فأفيضت عليهما الخلع (٢) .

ولكن أطماع المماليك البرجية لم تقف عند حد ، ودفعهم تعصبهم لعنصرهم إلى العودة فى شعبان سنة ٧٠٨ هـ إلى منافسة المماليك الترك فى الوصول إلى أعلى المناصب وفى اقتناء أحسن الإقطاعات . ولم يكن فى وسع السلطان الناصر محمد أن يقاوم لصغر سنه ، فآثر السلامة على عادته ، ولكنه بدا أكثر دهاءاً من كل من زعيمى الفرقتين إذ أخبرهما بعزمه على الخروج للحج مع أولاده وبيته ، وسرعان ما وافقاه على هذا الأمر ليتمكن كل منهما من تحقيق مأربه (٣) . ورحب البرجية بهذا السفر بل شرعوا فى تجهيزه . وكتب إلى دمشق والكرك برمى الإقامات وأحضر الأمراء تقادمهم من الخيل والجمال حسب عاداتهم وسافر السلطان للحج فى العاشر من رمضان سنة ٧٠٨ هـ (سنة ١٣٠٧ م) .

وبلغ من استهتار الأميرين بيبرس وسلار بالناصر محمد أنهما حين اشتركا فى وداعه لم يترجلا له ؛ ولهذا لم يكد الناصر محمد يصل إلى الكرك حتى كشف النقاب عن موقف الأميرين فكاتبهما يدعوهما إلى طاعته ، وأدى هذا الكتاب إلى عودة اتفاق بيبرس وسلار لمواجهة الموقف ، وردا على الناصر محمد بخطاب جاء فيه « ما علمنا ماعولت عليه ، وطلوعك إلى قلعة الكرك وإخراج أهليها وتشييعك نائبها . . . فخل عنك شغل الصبى وقم واحضر إلينا وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولايصح لك وتندم ولاينفع الندم ... (٤) » .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٥ — ٣٦
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٣
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٠

غير أن الناصر محمد استغل فرصة كراهية الناس للأميرين وأظهرهما بمظهر مغتصبي العرش من سلطان زهد فى السلطنة ، فأرسل مع البريد جميع شارات السلطنة وأعلن تنازله عنها فى كتاب حمله البريد إلى القاهرة فى شوال سنة ٧٠٨ هـ .

وهكذا جعل الناصر محمد السلطنة من جديد ميداناً للتنافس بين البرجية والترك ، غير أنه لما كانت فرقة المماليك البرجية وقتذاك أقوى نفوذاً وأكثر عدداً من المماليك الترك فإن تنازل الناصر محمد حين تلى على الأمراء لم يتقدم سلار لترشيح نفسه للسلطنة ، لقلة عدد أنصاره من الترك (١) ، ولإجماع الأمراء البرجية على اختيار الأمير بيبرس الجاشنكير سلطاناً (٢) ولم يتأخر الأمراء الترك عن مبايعة بيبرس الجاشنكير لضعف نفوذهم ولأنهم خشوا استعانة أحد الأميرين المتنازعين بالعرب ، فأثبت القضاة كتاب الناصر محمد فى ١٢ من شوال سنة ٧٠٨ هـ (سنة ١٣٠٧ م) وسلطنوا بيبرس الجاشنكير (٣) .

وبرغم أن هذه هي أول مرة نجح فيها أحد الجراكسة فى اعتلاء السلطنة المملوكية ، وبرغم أنهم سيطروا على عدد كبير من الوظائف فى مصر ، فإن ناحية ضعف بدت فى جانبهم ولعلها هى التى جعلت بيبرس الجاشنكير يتردد كثيراً قبل الموافقة على قبول السلطنة . أما سبب هذا الضعف فهو أن أكثر نواب سوريا كانوا من الترك (٤) ، الذين لاشك فى إخلاصهم للناصر محمد فى مثل هذه الظروف التى يغتصب فيها العرش واحد من الجراكسة . ولم يكن هناك فى سوريا من أعلن تأييده لبيبرس الجاشنكير سوى آقوش الأفرم الجركسى ، نائب دمشق ، لما بينه وبين الجاشنكير من صلة القرابة (٥) ، فأسرع الأفرم لاستقبال حاملى أنباء مبايعة بيبرس الجاشنكير خارج المدينة بمظاهر الفرح ، وأمر فزينت دمشق زينة هائلة .

وفى القاهرة بدأ البرجية محاولتهم لتأييد سلطانهم بأن نصحوا بيبرس بالقبض على سلار خشية أن يثير الترك عليهم ، غير أن بيبرس لم يكن مستعداً للقيام بهذا العمل قبل أن يتخلص من الناصر محمد نفسه ، كما أنه خشى اضطراب الأمور إذا انصرف إلى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٧ ، ٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٧ — ذكر العسقلانى أن بيبرس الجاشنكير اشترك فى الانتقام من قتلة السلطان خليل ، ثم إنه تطلع للسلطنة منذ فتنة الشجاعى وأنه قبض عليه بسببها (راجع الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠٢ — ٥٠٣) .

(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ص ١٣٣ .

(٤) راجع العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٤٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ورقة ١٣٧ ا .

النضال مع الترك ؛ ولهذا حرص وقتذاك على إظهار مودته لسلار ، وعمد إلى مشاورته وغيره من كبار الأمراء فى أمر الناصر محمد حتى اتفق الجميع على إرسال جيش لقتاله ومن ناحية أخرى أراد بيبرس أن يكسب حكمه صفة شرعية فحصل من الخليفة أبى الربيع سليمان العباسى على عهد جديد (١) . وعلى الرغم من أن هذا العهد أعلن فى المساجد، ورغم أن بيبرس الجاشنكير حرص على كسب العامة منذ سنة ٧٠٠ هـ بإلزام النصارى بلبس العمائم الزرق ، واليهود بلبس العمائم الصفر وعدم استخدامهم فى الدواوين ، وفضلاً عن إلغاء عيد الشهيد سنة ٧٠٢ هـ ، على الرغم من هذا كله فإن بيبرس لم يكسب العامة الذين تعالت صيحاتهم مرددين « مانريد المظفر ! » بل وقعت فى القاهرة اضطرابات عنيفة ، حوكم بسببها عدد كبير من العامة (٢) .

وكأنما شعر باقى نواب سوريا وهم من الترك بالخطر يتهددهم نتيجة اعتلاء واحد من البرجية الجراكسة السلطنة المملوكية وسعيه لتعيين خشداشيته نوابا فى سوريا (٣) فرفض بعضهم أن يحلف للسلطان الجديد ، ومن هؤلاء الأمير بيبرس العلائى ، والأمير بها در الحاج الذى ينسب إليه أنه قال « إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا ، أهلكونا وراحت أرواحنا معهم فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا (٤) » .

وإذ لم يوفق الجراكسة فى سوريا بعد أن تكتل ضدهم نوابها وأمراؤها الترك ، وبعد أن فشلت دعايات أقوش الأفرم فى تثبيت السلطان بيبرس الجاشنكير ، فإنه لم يصادفهم التوفيق فى مصر كذلك نقص ماء النيل ذلك العام ، فزاد كره الناس للسلطان الجديد ، وزاد الطين بلة أن انتشر الفساد والسلب والنهب حين أمر بيبرس الجاشنكير مماليكه بمهاجمة البيوت للبحث عن الخمور وعقاب أصحابها (٥) .

وإزاء كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بهذه المحاولة لسلطنة واحد من البرجية رأى الناصر محمد الفرصة سانحة لاسترجاع ملكه ، وذلك حين أرسل بيبرس الجاشنكير إلى الناصر فى رجب سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٨ م) يطلب منه المال الذى أخذه معه إلى الكرك فى صورة تحمل التهديد ، مما حدا بالناصر محمد إلى ضرب رسول بيبرس وإعادته على أقبح وجه . ثم أخذ الناصر يعد العدة للتقدم إلى دمشق . وحوالى ذلك الوقت كاتب سلار الناصر محمد باستعداده لمؤازرته ، بل إن سلار وضع للناصر محمد الخطة بأن يتوجه إلى

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣٦٨ أ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣٥٩ أ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٣ — ٥٤ .

دمشق ليحصل على تأييد أمراء سوريا الترك حتى إذا تم له الأمر وعاد إلى مصر يحتفظ سلار له بالسلطنة فى وقت ضعف فيه مركز بيبرس(١) .

ونجحت الخطوة الأولى من خطة الترك إذ لم يكد الناصر محمد يزحف نحو دمشق حتى فرمنها الأفرم ، وهو أهم شخصية جركسية اعتمد عليها بيبرس فى سورية . وسرعان ما أعلن الناس فى سورية تمسكهم بأحقية بيت قلاون فى السلطنة ، واستقبل أهل دمشق الناصر محمد بالشموع والمباخر واللعب بالسيوف (٢) .

ثم اجتمعت عدة عوامل ساعدت على نجاح باقى الخطة لإزالة سلطنة بيبرس الجركسى . وفى مقدمة هذه العوامل أنه لم تعد هناك قيمة لكتابات بيبرس إلى نواب سورية لتأييده والوقوف مع آقوش الأفرم نائب دمشق؛ لأن آقوش لم تمكنه الحوادث من مقاومة الناصر محمد والمماليك الترك طويلاً ، وثانيها ضعف النفوذ الجركسى فى سوريا تماماً بعودة الأفرم بعد اختفائه ، وإذعانه بالطاعة للناصر محمد الذى وعده بتأمينه (٣) ، ومن هذه العوامل كذلك مكاتبة أمراء سوريا الترك إلى أصحابهم من أمراء مصر وتشجيعهم على أن يكونوا معهم لإعادة سلطنة الناصر محمد (٤) . ونتيجة هذه الكتابات تسلل المماليك الترك من مصر إلى سورية لينضموا إلى إخوانهم الترك الذين تجمعوا لمعاونة الناصر محمد . ولم يبق بالقاهرة سوى البرجية الذين اجتمعوا وقرروا أن سبب هذه النكبة هى سلار وأنه يلزم القبض عليه . وشعر بيبرس بعدم جدوى القبض على سلار بعد فرار أكثر المماليك إلى سورية . ولهذا اتفق مع البرجية على الزحف إلى سورية لقتال الناصر محمد(٥) . غير أن بيبرس حين علم بانضمام برلغى آقوش نائب الكرك إلى الناصر محمد أسقط فى يده ، وأيقن زوال ملكه ، إذ أن برلغى هذا زوج ابنة الجاشنكير وأحد أعيان دولته ، وممن أنعم عليهم بنيف وأربعين ألف دينار مصرية ، وفشلت كذلك محاولات بيبرس فى القضاء على المقاومة الشعبية لأن العامة لم يعترفوا بسلطنة الجراكسة ؛ وانتهى أمر بيبرس باغتصاب جميع أموال الخزائن السلطانية ونزوله عن السلطنة بإشارة الأمير بيبرس الدوادار المؤرخ ، والأمير بهادر آص ، فكتب بذلك إلى الناصر محمد (٦) :

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ قسم ٢ ورقة ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٢) نفس المرجع والجزء ورقة ١٣٥ .
(٣) الكتبى : عيون التواريخ جـ ٥ ورقة ٢٧٥ .
(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ قسم ٢ ورقة ١٥٤ .
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦١ .
(٦) بيبرس الداودار : التحفة الملوكية ورقة ١٠٠ .

ولم تكن حماسة الناس فى مصر لبيت قلاوون أقل من حماسة أهل سورية ؛ برغم قلة الترك آنذاك فى مصر . وسرعان ما اتجه العامة نحو باب الإسطبل من القلعة ، وحين خرج بيبرس من القلعة رماه بعضهم بالحجارة ، فحاول مماليكه وضع السيف فيهم ، ولكنه أراد اتقاء غضبتهم بأن رمى إليهم بالمال ليشغلوا بجمعه ، غير أن هذا لم يمنع العامة من العدو خلفه وسبه وهو فى طريقة إلى الهرب . وبذل البرجية جهوداً كبيرة لإنقاذه حتى شهروا سيوفهم فى وجوه العامة ، ومكنوا بيبرس من الاختفاء ، وبقى سلار بمفرده يدبر أمر الدولة حتى حضر الناصر محمد ، وخطب له على منابر القاهرة يوم الجمعة ١٩ من رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٨م) (١) .

ونتج عن هذه المحاولة من جانب الجراكسة لاغتصاب السلطنة تغير واضح فى سياسة الناصر محمد فى سلطنته الثالثة إزاء فرقة البرجية إذ زادت كراهيته للجراكسة وعمل على الانتقام منهم ، فخالف اتجاه أبيه وأخيه الأشرف خليل فى شراء المماليك الجراكسة حين أكثر من شراء المماليك الترك(٢) . وأوضح المقريزى انصراف الناصر محمد إلى شراء المماليك الترك وتشجيع التجار على جلبهم فى قوله: « وبذل الرغائب فى حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة ، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد . (٣) . وبلغ ما اشتراه الناصر محمد من المماليك الترك اثنى عشر ألف مملوك . ولم يكتشف الناصر محمد باقتناء هذا العدد الضخم من الترك ليمكنه من مواجهة أعدائه الجراكسة ، بل دفعه خوفه من البرجية إلى ترقية مماليكه الجدد من الترك بمنتهى السرعة . ولم يراع عادة أبيه وغيره من السلاطين

---

(١) ويتضح لنا كراهية العامة لحكم بيبرس الجاشنكير من الأبيات التى نظمها شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم الشار مساحى ومنها :

ولى المظفر لما فاته الظفــر ... وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا ... كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه ... أثواب عارية فى طولهــا قصر
لما تولى تولى الخير عن أمم ... لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا

راجع السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٦

(٢) راجع Poliak : Le Caractère Colonial De l'Etat Mamluk. p. 231

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٤ ذكر المقريزى أنه جلبهم من بلاد أوزبك وتوريز وبلاد الروم وبغداد وغالب مماليك هذه البلاد هم من الترك .

السابقين فى تنقل المملوك فى أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن ، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير والترقية السريعة تحقيقاً لهدفه فى أسرع وقت (١) .

وإمعانا فى إضعاف قوة الجراكسة عمد الناصر محمد إلى تعقب أنصار بيبرس الجاشنكير من الجراكسة ، فوزع عدداً كبيراً منهم على أمرائه الترك وبالغ فى قتل الكثيرين منهم حتى فر من وجهه قراسنقر وآقوش الأفرم والزردكاش ، وهم من كبار الأمراء الجراكسة . ووصل أولئك الثلاثة إلى خربندا إيلخان التتار مستجيرين ، فرحب بهم وأقطع قراسنقر مراغة ، والأفرم همذان ، والزردكاش نهاوند . ومع هذا تعقبهم الناصر محمد « بالفداوية » كما رصد لهم عيونا تطالعه بأخبارهم (٢) .

بيد أن هذه السياسة لم تؤد إلى شيء سوى دفع بعض زعماء الجراكسة إلى المؤامرة سنة ٧١٠ هـ (١٣٠٩ م) . ففى تلك السنة قام الأمير بتخاص الجركسى بتحريض مماليك بيبرس الجاشنكير على قتل أمرائهم الترك (٣) . ولم يكتف السلطان الناصر محمد بالقضاء على هذه المؤامرة بل تابع موجات اضطهاده للجراكسة ؛ فأخذ فى عرض المماليك البرجية ووفرجوامك عدداً منهم وقطع رواتبهم ، وأعطى الإقطاعات والرواتب التى توفرت نتيجة حرمان هؤلاء المماليك البرجية منها — وخاصة فى أراضى الجيزة — إلى مماليكه الترك (٤) . ثم إنه فى سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١م) أعاد الناصر محمد عرض المماليك البرجية ، وأخرج مائة وثمانين من كبارهم إلى العمل فى سورية ، أما من خشى خطرهم فإنه أصدر أمره بقتلهم غرقاً فى النيل(٥) .

ومنذ انتهاء عهد الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) تصف المصادر المعاصرة فرقه المماليك البرجية وصفاً عنصريا فتطلق عليها كلمة الجراكسة . ولعل ذلك يرجع إلى تكتل الجراكسة الذين تكونت منهم هذه الفرقة ووقوفهم ضد الترك عدة مرات وضحت فيها العنصرية والعصبية .

غير أننا لم نجد أثراً لمحاولات جركسية ضد الترك فى عهود السلاطين كجك(٧٤٢هـ) وأحمد (٧٤٢ — ٧٤٣ هـ) ، وإسماعيل (٧٤٣ — ٧٤٦) أبناء الناصر محمد ، ولعل

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة ، العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢٥٧ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٥٤ — ٥٥٦ (تقع بلدة المراغة بإقليم أذربيجان ، أما همذان فشمالى نهاوند) . انظر المقريزى جنى الأزهار من الروض المعطار ورقة ٥٣ أ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ قسم ١ ورقة ٢٤٨ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٥) المرجع السابق جـ ٢٢ ورقة ٣٤٠ .

ذلك بسبب زيادة عدد المماليك الترك فى سلطنة الناصر محمد الثالثة زيادة ملحوظة وازدياد النفوذ التركى ، وما تبع هذا من الاضطهادات المستمرة التى شنها الناصر محمد على الجراكسة . أما منذ سنة ٧٤٦ هـ حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى فإن الحوادث المختلفة أثبتت أن الجراكسة مهدوا لإعادة المحاولةبزيادة عددهم فى القلعة وخارجها؛مما كان سبباً للمخاوف التى أحس بها المماليك الترك سادة الدولة المملوكية الأولى؛ والذين أعلنوا للناس أنه عندما تنمو قوة الجراكسة فإنهم « سيهلكون العباد والبلاد »(١) .

وأولى هذه المحاولات الجركسية فى عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ) (١٣٤٥ — ١٣٤٦ م) إذ ثار الجراكسة بسبب ولع السلطان بجمع الأموال وادخارها والتضييق عليهم فى النفقات ، وحرض على هذه الثورة الأمير غرلوالجركسى شاد الدواوين (٢) . وبدأ غرلو بإغراء الترك على خلع السلطان شعبان بأن كتب إلى يلبغا اليحياوى نائب دمشق بالخروج عن طاعة السلطان حتى إذا خرج السلطان لقتاله يمكنه أن يثير عليه عسكره ويخلعه ، وتحققت المؤامرة إذ ما كاد عسكر السلطان يصل إلى منزلة السعيدية حتى أعلنوا العصيان وعادوا مطالبين السلطان بنفقاتهم ، ولم تفلح جهود السلطان شعبان فى مقاومتهم ، فقبضوا عليه ، وبعد أن خلعوه اتفقوا على تولية سلطان صغير السن هو حاجى بن الناصر محمد ، ولقبوه بالمظفر (٣) .

والنتيجة الطبيعية لهذه المحاولة هى أنها مهدت لظهور النفوذ الجركسى فى عهد السلطان حاجى بدليل أن الأمير غرلو أصبح نائب السلطنة ؛واستحوذ على السلطان الصغير؛وزاد نفوذه ، وجلب عدداً كبيراً من المماليك الجركسية؛ورفع شأنهم على المماليك الترك .وذكر المقريزى أن الأمير غرلو « أظهرهم فى الدولة حتى كبرت عمائمهم وكلوتاتهم » (٤) . ثم أراد غرلو أن يقوم بنفس الدور الذى قام به بيبرس الجاشنكير . وأثارت أعماله حنق المماليك الترك ، وولدت فى نفوسهم الغيرة من الجركس . ومن ثم ظهر رد الفعل فى ازدياد كراهية الترك للأمير غرلو. وحين حرض الأمير غرلو السلطان حاجى على قتل عدد كبير من المماليك الترك اتخذوا هذه الحادثة ذريعة ليرموه عند السلطان حاجى بأنه يعمل على هدم سلطنة بيت قلاون ، فأخذه السلطان على غرة بأن

---

(١) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠٠ .

Ayalon : The Circassians In The Mam. Kingdom p. 137.

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ٥ أ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

قدم له ولاية غزة ، ثم ذبحه غيلة ، وقبل تعيين الأمير ارقطاى التركى فى منصب نيابة السلطنة (١) .

وبعد أن تخلص الترك من أخلص مستشارى السلطان من الجراكسة ، انقلبوا عليه رغبة فى التخلص منه لاستمرار تأثره بالجراكسة ، وميله إليهم . فحاولوا التضييق عليه ، وعابوا عليه انصرافه عن أمور الدولة ، وإقباله على اللهو بالحمام ، والشغف بالنساء ، وإحضار الأوباش للعب المصارعة بين يديه (٢) ، مما جعله يخشى على نفسه من المماليك الترك كذلك ، ولما عزم على كبح جماحهم واسترجاع حقوقه قبض على عدد كبير منهم ، ثم نفى عدداً آخر إلى سورية والوجه البحرى والصعيد ولهذا انبرى نائب السلطنة الأمير ارقطاى التركى للدفاع عن إخوانه الترك ، فاتجه ومعه أكثر الأمراء الخاصكية إلى قبة النصر معلناً الثورة على السلطان . ولم يكن فى وسع السلطان حاجى سوى أن يرتمى فى أحضان الجراكسة فركب فى أربعمائة فارس منهم لمحاربة المماليك الترك وسار بهم إلى قبة النصر (٣).

غير أنه لم يكن بين هؤلاء الجراكسة من يخلص له بعد أن قتل كبيرهم الأمير غرلو ، ولذلك تخاذلوا عنه وسهلوا للترك القبض عليه وقتله قبل الدخول فى المعركة وذلك فى رمضان سنة ٧٤٨ هـ — سنة ١٣٤٧ م (٤) .

والظاهر أن مقتل السلطان حاجى على يد المماليك الترك على هذا النحو السهل شجع الجراكسة على القيام بمحاولتهم الجديدة فى الميدان السياسى فى نفس السنة ، وذلك حين ناصروا أمير حسين بن الناصر محمد وأرادوه سلطاناً على البلاد بعد أخيه حاجى ، غير أن الأمراء الكبار من الترك عارضوهم مفضلين عليه أخاه أمير حسن الذى بلغ الثانية عشرة من عمره وقتذاك ، ليكون آلة سهلة فى أيديهم . وبعد أن تم لهم ماأرادوا وسلطنوا حسناً ولقبوه بالناصر بدأوا ينتقمون من أتباع أمير حسين من المماليك الجراكسة ؛ فابتزوا من سماره وبطانته وجواريه كل ما لديهم من المال ليودعوه خزانة سلطانهم الخاوية ، كما قبض السلطان على ستة منهم وأمر بهم فضربوا تجاه الإيوان ضرباً مبرحاً ، ثم حبسوا بخزانة شمائل . وعاد السلطان حسن يخشى انتقام المماليك الجراكسة

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ١٥ ب .
Muir: The Mamluk Dynasty, p. 92.
(٢) الشوكانى : البدر الطالع جـ ١ ص ١٨٧ .
(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ١ ورقة ٨٢ .
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ١٦ ب .

فنكل بعدد كبير منهم ، اشتركوا فى مؤامرة لخلعه فى نفس السنة ، ووزع عدداً على الأمراء ، ونفى الباقين (١) .

ومع أن الناصر حسن عمل تحت ضغط الأمراء الترك على إضعاف شأن الجراكسة فإن سوء الأحوال الاقتصادية فى الدولة منذ سنة ٧٤٨ ﻫ والإسراف فى القصر؛ وما نتج عن ذلك من الارتباك المالى دفعت الناصر حسن وكبار أمرائه من الترك إلى محاولة علاجها بخفض مصاريف القصر والمماليك وبيع المماليك الجراكسة أوطردهم(٢) . ولاشك أن الكوارث التى لحقت الجراكسة نتيجة هذه الأمور أدت إلى ضعف شأنهم ، وبالتالى إلى استمرار سيطرة العنصر التركى على الوظائف الرئيسية فى الدولة . غير أن ثمة ملاحظة توجب الالتفات وهى أنه رغم ازدياد نفوذ المماليك الترك فى عصر الناصر حسن ، فإنهم لم يحاولوا الاستفادة من هذا النفوذ فى تدعيم فرقتهم أوفيما يعود عليها من نفع ، بل انقسم الأمراء الترك على أنفسهم بسبب تنافسهم على الاستئثار بالسلطة حتى صار الواحد منهم يعقب الآخر فى السيطرة على البلاد ، وجعل السلاطين ألعوبة فى أيديهم يولونهم ويعزلونهم متى شاءوا . ولعل أبرز مثل على هذا ماقام به الأمراء من خلع السلطان الناصر حسن فى جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ ﻫ (١٣٥١ م) وسلطنة أخيه صالح ، الذى لم يستطع التصرف فى الأمور رغم أنه جاوز الرابعة والعشرين .ثم إنه حين شعر الأمراء بميل السلطان صالح للأمير طاز ، خلعوا السلطان صالح وأعادوا السلطان الناصر حسن إلى السلطنة فى شوال سنة ٧٥٥ ﻫ(١٣٥٤ م)(٣) .

ولاشك أن هذا الانقسام بين الأمراء الترك وما تبعه من ازدياد التنافس بينهم صار عاملاً من عوامل ضعف الدولة المملوكية الأولى وسقوطها بالتالى ؛ إذ فضلاً عن إضعاف شخصيات السلاطين أوتولية صغارهم ممن لايحسنون التصرف ، فإن مقاليد الأمور — حين أصبحت بيد الأمراء الترك نتيجة هذه الأمور — عاونت على ازدياد ثرائهم لدرجة مكنتهم من شراء أعداد كبيرة من المماليك أملاً فى زيادة نفوذهم وإمكان اغتصاب السلطنة ؛ وأبرز دليل على هذا ماحدث حين ترك الناصر حسن مقاليد السلطنة إلى الأمير شيخون، فاشترى عدداً كبيراً من المماليك ، وبعد أن قتل انفرد الأمير

---

(١) المقريزى : السلوك ﺟ ٢ ص ٧٤٧ ، ٧٥١ .

(٢) نفس المرجع الجزء ص ٦٦٥ — ٦٦٨ــ ٦٦٩ J. A. O. S.P.P. 13?. f.f.
بين العسقلانى الطريقة التى سعى بها غرلو إلى الإثراء سريعا ، وذلك باستحداث ديوان البذل فى سلطنة شعبان بن الناصر محمد وهو ديوان تولى تحصيل ما يفرض على من يأخذون اقطاعات أو وظائف راجع الدرر الكامنة ﺟ ١ ص ٣٩٠

(٣) راجع سرور : دولة بنى قلاون ص ٥٩ — ٦٠ .

صرغتمش الناصرى بتصريف شئون الدولة ، وضم إليه مماليك شيخون ، وأسكنهم مع مماليكه فى مناظر الكبش . وما لبث هو الآخر أن استبد بالسلطة بعد أن أصبح نائب السلطنة وطمع فى الاستقلال بالسلطنة . وحين أدرك السلطان حسن هذا الأمر اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، وقبضوا عليه فى رمضان سنة ٧٥٩ هـ . وأثار هذا العمل غضب مماليكه ، فاشتبكوا مع المماليك السلطانية فى معركة دارت فيها الدائرة على أتباع صرغتمش ، وخلا الجو مؤقتاً للناصرحسن .

والواقع أن اتجاه كبار الأمراء الترك إلى التسابق فى اقتناء المماليك فتح الباب أمام تدفق العناصر المملوكية المختلفة بما فيهم الجراكسة ، ومعنى هذا أن اقتناء كبار الأمراء الترك للمماليك وقتذاك لم يصبح على أساس عنصرى ، بل إنهم فتحوا أبوابهم لتجار المماليك كما فتحوها لمختلف العناصر من الوافدية الذين وجدوا فى القاهرة الأمل المنشود . ثم إن نائب السلطنة فى القاهرة صار له نصيب الأسد من أعداد المماليك وذلك بسبب كثرة أمواله ، وتمكنه من شراء أعداد كثيرة ، فضلاً عما يؤول إليه من مماليك النائب السابق . ومن الأمراء الترك الذين صار لهم النفوذ بعد صرغتمش وورث مماليكه ، الأمير يلبغا الخاصكى العمرى الناصرى (١) ؛ أقره السلطان حسن أمير مجلس فى شوال سنة ٧٥٩ هـ عقب القبض على صرغتمش ، فورث أمواله ومماليكه ، ثم اشترى عدداً كبيراً من المماليك من ماله الخاص ، بلغ عددهم نحو أربعة آلاف مملوك وتابع يلبغا العمرى تعليمهم العلوم الدينية والحربية فى مناظر الكبش التى أقام بها (٢) . كما أخذ فى ترقيتهم والإنعام عليهم (٣) ، حتى أضحت مناظر الكبش تنافس القلعة فى السيادة . وعاد السلطان حسن يخشى على نفسه من هذا العدد الكبير من مماليك يلبغا العمرى فضلاً عن فقدانه الثقة فى المماليك السلطانية . ولذلك اتجه إلى سياسة جديدة أساسها الاعتماد على أولاد الناس ، فأمّر عدداً كبيراً منهم وقدمهم على المماليك لا رغبة فيهم ولكن على قوله «مصلحة لى ، وللرعية ، وللبلاد ، فأما مصلحتى فإنهم لا يخرجون عن طاعتى ، ومتى أرادوا ذلك نهاهم أقاربهم وحواشيهم عن ذلك خوفاً على أملاكهم وأرزاقهم بخلاف المماليك فإنهم لا رأسمال لهم فى مملكة من الممالك ، وأما للرعية فإن عندهم شبع نفس وعدم طمع ، وأيضا خوفاً منى لا يظلمون أحداً ، وللبلاد فلا شك فإنهم أعرف بالأحكام والسياسة والأخذ بخواطر الرعية من المماليك . » (٤) .

---

(١) عن جنس يلبغا العمرى راجع البغدادى : عيون أخبار الأعيان (شمسية) ورقة ٤٨٠ .

(٢) Iorga : Notes & Extraits TII P 532;

(٣) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٣٨ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ٣٥ أ ، ب — أولاد الناس هم أبناء الأمراء الذين ولدوا فى مصر أى لم يشتروا رقيقاً .

ووجدت طوائف المماليك فى هذا التصريح خطراً داهماً على مركزهم ، وتزعم يلبغا العمرى الثورة على هذه السياسة التى اتجهت إلى الاستغناء عن جميع المماليك . وبدأ يلبغا ثورته بالاعتراض على أعمال السلطان حسن فأنكر عليه منحه الإقطاعات الكبيرة للنساء وسماحه للطواشية بالتدخل فى أمور الدولة . وعظم ذلك على السلطان الذى أخذ يتحين الفرص للتخلص منه . غير أن يلبغا علم بنوايا السلطان نحوه فتصدى له فى سرحة الصيد ، واشتبك معه فى معركة صغيرة ، هزم فيها السلطان ، وهرب إلى القلعة ، ثم خرج المماليك السلطانية لقتل يلبغا ، فانهزموا على يديه ، وتقدم يلبغا إلى القلعة وقتل السلطان حسن فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) وأقام ابن أخيه محمد بن حاجى سلطاناً وهو فى الرابعة عشرة من عمره (١) ، غير أنه لم يكن من المنتظر أن يستمر السلطان الجديد طويلاً فى السلطنة ، ولم يلبث أن ادعى عليه يلبغا أنه يدخل بين نساء الأمراء ، وأنه باع فى زنبيل كعكاً وأخذ ثمنه على سبيل المداعبة ، وأنه يعمل مكارى للجوارى ، ويفسق بالحرم ويترك الصلاة ويجلس على كرسى الملك جنباً (٢) . وبهذا تمكن الأمير يلبغا العمرى من خلع السلطان محمد بن حاجى فى ١٥ من شعبان سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) وسلطن شعبان بن الناصر حسن وعمره آنئذ نحو العشر سنوات . وصار يلبغا أتابكه وأصبح صاحب الأمر والنهى داخل القلعة وخارجها ، ولم يكن للسلطان شعبان سوى الاسم .

وبالغ الأمير يلبغا العمرى فى الإحسان إلى مماليكه الذين عرفوا باليلبغاوية ، حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ، وأصبح موكبه معهم من أعظم المواكب ، كما صار عدد كبير من مماليكه نواباً فى البلاد ومقدمى ألوف . والخلاصة أن اليلبغاوية سيطروا على عدد كبير من الوظائف وبلغ نفوذ يلبغا درجة أصبح معها السلطان شعبان هو الآخر يخشى على نفسه منهم ولا سيما بعد أن أثرى يلبغا ثراء فاحشاً حين استولى على أموال النصارى والرهبان وأخذ ما فى الأديرة من أموال بعد رحيل القبارصة عن الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) (٣) .

ولم ينقذ السلطنة المملوكية الأولى من سطوة يلبغا العمرى سوى انقسام اليلبغاوية أواخر سنة ٧٦٧ هـ بسبب سوء سياسة يلبغا نفسه ، وذلك أنه قتل عدداً كبيراً منهم ، كما تنوع فى تعذيبهم على أدنى جرم ، فأضمروا له السوء ولم يتردد السلطان شعبان فى الاتفاق

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٤٨ أ .

(٣) راجع النويرى : الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام جـ ١ ص ٣٦٠ – ٣٦٦ ، جـ ٤ ص ٤٣٨ .

مع اليلبغاوية الكارهين له (١) ، فأنزل من القلعة أمير آتوك بن حسين أخى السلطان شعبان ولقبه بالملك المنصور وذلك بمعسكره بجزيرة أروى (٢) . تجاه بولاق على حين نزل السلطان شعبان بمماليكه ومن انضم إليه من اليلبغاوية فى الجانب الغربى من النيل . وبدأ صراع بين الطرفين ظهر فيه تقدم يلبغا العمرى فى فنون القتال، إذ استخدم مكاحل النفط لأول مرة ضد أتباع السلطان شعبان الذين قاتلوه بالسهام (٣) . ولكن رغم التقدم الحربى من جانب يلبغا فإنه لم يوفق؛ لأن مكاحل النفط لم تكن بعيدة المدى وانتهى أمره بالتسليم بعد أن أصاب السلطان عدداً كبيراً من أتباعه ؛ ثم أسرع السلطان وأمر بقتل يلبغا (٤) .

غير أن قتل يلبغا العمرى فى ١٢ من ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ لم يمكن السلطان شعبان من السيطرة على شئون الحكم، لوقوعه تحت تأثير أربعة من المماليك اليلبغاوية الذين عاونوه على يلبغا وهم ، طقيتمر النظامى واقبغا الأحمدى وقجماس الطازى وأسندمر الناصرى . غير أن أسندمر الناصرى لم يلبث أن انقلب على زملائه وسجنهم بالإسكندرية ووجد السلطان شعبان نفسه مضطراً لأن يخلع على أسندمر بالاتابكية وجعل إقامته بالكبش مكان يلبغا العمرى . وأصبح أسندمر منذئذ مالكاً لمن بقى من اليلبغاوية فضلاً عن سيطرته على أجناد الجيش بحكم استقراره فى منصب الأتابكية بالقلعة — وما لبث أسندمر أن انقلب على السلطان شعبان فى المحرم سنة ٧٦٩ هـ (سنة ١٣٦٨ م) وقاد ألفاً وخمسمائة من اليلبغاوية فى ثورة على السلطان شعبان ، وزاد اضطراب أحوال البلاد بسبب «طغيان هؤلاء الأجلاب وكثرة عبثهم وتجاوزهم حدود الشريعة والملك» (٥) ، مما حدا بعدد كبير من العامة إلى الوقوف فى جانب السلطان . وحين تقدم اليلبغاوية من وراء القلعة لم يستطيعوا الوقوف أمام العامة والمماليك السلطانية الذين استماتوا فى القتال حتى تمكنوا من القبض على عدد كبير من اليلبغاوية ، فسجنت جماعة منهم بالإسكندرية ودقت أعناق جماعة أخرى ، ونفى البعض الآخر إلى الكرك .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ٢٤٨ أ ، ١٧٩ ب.

(٢) تعرف اليوم باسم الجزيرة أوجزيرة الزمالك راجع رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ص ٢٠٥ .

(٣) ذكر Ayalon أن المماليك سبقوا العثمانيين بستين سنة فى استخدام هذا السلاح النارى كما أن أوربا سبقت المماليك فى استعمال هذا السلاح بنحو أربعين سنة — راجع :

Ayalon : Gunpowder and Firearms in the Mam. Kingdom p. 4

(٤) قال بعض الشعراء يهجو يلبغا العمرى :

بدا شقا يلبغا وعدت عداه فى سفنه إليه

والكبش لم ينقذه وأضحت تنوح غربانه عليه

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .

وتبدو أهمية هذا الصراع فى وجود أثر الجراكسة فيه ، إذ اشتملت جماعة اليلبغاوية الذين نفوا إلى الكرك على مماليك من الجراكسة كما اشتملت على مماليك من الترك . ومن هؤلاء الجراكسة برقوق ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للسلطنة المملوكية الثانية ، وجركس الخليلى الذى عاون برقوق فى التخلص من كثير من الصعاب التى واجهته ، أما المماليك الترك فتذكر المصادر من بينهم بركة الجوبانى (١) .

ومعنى هذا أن صراع الجراكسة فى هذه المرة لم يتخذ صورته العنصرية كما حدث من قبل بل اتخذ صورة حزبية ، ولعل هذا التغيير يرجع إلى قلة عدد الجراكسة بسبب الاضطهادات المستمرة منذ أواخر عهد الناصر محمد مما دفع الجراكسة إلى تناسى عصبيتهم ، وإلى تحريض إخوانهم الترك اليلبغاوية على الثورة معهم على السلطان شعبان .

ومع أن السلطان شعبان عصف بعدد كبير من اليلبغاوية الذين ثاروا عليه فإنه أبقى معه بالقلعة من وثق فى إخلاصه منهم . ومن هؤلاء الأمير منكلى بغا الذى عينه السلطان شعبان أتابكاً للعساكر وزوجه من ابنته حتى يطمئن إليه . كما استقر بمنجك اليوسفى فى نيابه دمشق . غير أن هذا الفريق من اليلبغاوية الذين بقوا بالقاهرة صاروا من العوامل التى أعادت إخوانهم اليلبغاوية المنفيين إلى العمل فى مصر وسورية ؛ ذلك أن الأمير منكلى بغا أتابك العساكر عاتب السلطان فى شأن هؤلاء المنفيين بقوله «إن فى إتلافهم قص جناح الدولة وإنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم (٢) ». كما أن أحد الأمراء اليلبغاوية الكبار وهو الأمير طشتمر الدوادار ظل يبث الرعب فى نفس السلطان من فرق المماليك الأخرى حتى اقتنع السلطان بأهمية وجود منافس لفرق المماليك الأخرى ، فعفا عن المنفيين وسمح لهم بالعمل عنده أو عند نوابه فى مصر وسورية .

والواقع أن هذا التردد الذى وضح فى سياسة السلطان شعبان بالإضافة إلى غيره من عوامل ضعف السلطنة جعل الدولة المملوكية الأولى تقترب من نهايتها ، والدليل على هذا أن طشتمر الدوادار لم يكن مخلصاً فى نصحه للسلطان ، بل كان يأمل بهذا أن يجمع شمل اليلبغاوية ليستبد بهم على السلطان . وكيفما كان الأمر عاد اليلبغاوية ليعمل بعضهم فى سوريه وليقيم أكثرهم للخدمة فى القلعة . بعد أن هدم السلطان شعبان مناظر الكبش التى هاجم منها الأمراء القلعة (٣) .

ولعودة المماليك اليلبغاوية إلى القلعة أهمية بالغة فى وقت تسابق فيه الأمراء على

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٤٥٨ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٦١ — ٤٦٢ .
(٣) راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٣٤ .

السلطنة وضعفت فيه فنون الفروسية بين المماليك السلطانية الترك ، وذلك أن السلطان شعبان أفاد من اليلبغاوية فى تعليم مماليكه فنون الفروسية التى اتقنوها : ومهد امتيازهم فى هذه الفنون لسبقهم فى شغل الوظائف الرئيسية فى الدولة (١) .

وبدا كأنما الأحوال آنذاك تنذر بزوال حكم بيت قلاون وتمهد للعناصر الطامعة فى الحكم أن تصل إليه . إذ فضلاً عن سوء الحكم فإن القحط والوباء دفعا الناس إلى تمنى زوال سلطنة هذا البيت وإلى عدم الثورة عند قتل السلطان أو عزله ، كما حدث فى عهود أكثر السلاطين السابقين . والواقع أن ثمة عاملاً هاماً ظهر واضحاً فى عهد السلطان شعبان؛ وهو أن اليلبغاوية الجراكسة الذين عادوا من المنفى تكتلوا مع إخوانهم الجراكسة فى القلعة . ثم إن اضطراب الأحوال الداخلية وخروج نواب البلاد عن الطاعة وانصراف السلاطين إلى علاجها والقضاء على الحركات الثورية ، كل ذلك مهد الطريق أمام العناصر الجركسية لإكثار عددهم وتقوية نفوذهم تمهيداً لإعلان سلطنتهم الجديدة .

والواقع أيضاً أن وصول الجراكسة إلى الحكم يمثل حركة عنصرية ، برغم أنها بدأت فى صورة حزبية إذ عملوا مع غيرهم من عناصر المماليك زمن الدولة الأولى على إضعاف سلطنة بيت قلاون، حتى إذا كثر عدد الجراكسة أخذوا يصارعون غيرهم من العناصر المملوكية وهى العناصر التركية من أجل السيطرة على الجيش حتى تمكنوا فى النهاية من إزالة حكم الأتراك ، وإقامة حكم الجراكسة بالقاهرة .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

الفصل الثانى

الأمير برقوق اليلبغاوى ونهاية دولة المماليك الأولى

جلب برقوق الى القاهرة سنة ١٣٦٣ م ـ دخول برقوق فرقة اليلبغاوية ـ اشتراك برقوق فى ثورة اليلبغاوية على السلطان شعبان ونفيه الى الكرك سنة ١٣٦٨ م ـ عودته الى العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣ م فى خدمة أمير على وأمير حاجى ابنى السلطان شعبان ـ قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦ م وتولية ابنه أميراً على السلطنة ـ الصراع بين اليلبغاوية والمماليك السلطانية ـ سيطرة اليلبغاوية على الوظائف الهامة ـ تعيين برقوق فى منصب الامرة المملوكية فى خدمة الأمير اينبك البدرى اليلبغاوى ـ استغلال برقوق للشحناء بين زعماء اليلبغا ـ تولية البدرى الاتابكية سنة ١٣٧٧ م ـ ترقية برقوق الى أمير طبلخاناة ـ طمع اينبك فى السلطنة سنة ١٣٧٧ م وفشله ازاء معارضة الخليفة ـ تحريض برقوق المماليك الترك على اينبك البدرى ـ المنافسة الخافية بين برقوق واينبك البدرى والتخلص منه ـ الاتفاق بين اليلبغاوية بزعامة برقوق على الانفراد بشئون الدولة ـ تعيين برقوق فى منصب أمير سلاح ـ استبداد برقوق وبركة بالأمور دون يلبغا الناصرى ـ وصول برقوق الى منصب الاتابكية سنة ١٣٧٧ م ـ سعيه الى تعيين أقاربه فى وظائف الدولة ـ التنافس بين برقوق وبركة واشتداد النزاع بين الترك والجركس ـ مؤامرة فى صفوف الجراكسة سنة ١٣٧٩ م لهدم نفوذ الجراكسة ـ اثارة برقوق للعامة على بركة ـ انتصار الجراكسة بزعامة برقوق وسجن بركة ـ ثورة العرب ضد الجراكسة ـ اقتناء برقوق لأعداد جديدة من الجراكسة ـ وفاة السلطان على بن شعبان أواخر سنة ١٣٨١ م ـ تولية حاجى بن شعبان بموافقة برقوق سنة ١٣٨١ م ـ اتجاه برقوق نحو العامة ـ تولية برقوق السلطنة سنة ١٣٨٢ م .

ظلت فكرة القضاء على بيت قلاون واغتصاب السلطنة عالقة بأذهان اليلبغاوية الذين عادوا إلى القاهرة ، غير أن الذى يثير الدهشة حقا أن يفكر فى هذا الأمر مملوك من أجناد اليلبغاوية العائدين من الكرك وهو برقوق بن أنس الجركسى .

وأصل هذا المملوك من قبيلة كسا الجركسية (١) ، وولد حوالى سنة ٧٤١ هـ

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٢ ، ٢٢٣ .

(١٣٤٠ م) (١) وحين بلغ العشرين من عمره بيع فى أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم إلى عثمان بن مسافر أحد مشاهير تجار الرقيق الخوارزمية (٢) ؛ ومن هناك جلبه إلى القاهرة سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٣ م) (٣) وباعه إلى الأمير الكبير يلبغا العمرى الناصرى الخاصكى وهو وقتذاك أتابك السلطان محمد بن حاجى . ومر برقوق فيما مر به غيره من مماليك يلبغا الأجلاب من خطوات الإعداد فى مناظر الكبش ، التى جعلها يلبغا العمرى تنافس قلعة الجبل فى مظاهر القوة والسيادة ، وعمل بها على إضعاف المركز السياسى لأسرة قلاوون تمهيداً لتحويل العرش عنها (٤) .

ونظراً لما لمسه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى فى مملوكه برقوق من الذكاء الخارق لم تزد المدة السابقة على عتقه على أربع سنوات ، وأصبح برقوق من جملة مماليكه الكتابية المقربين إليه (٥) واقترن اسم برقوق بالعثمانى نسبة إلى التاجر الذى جلبه ؛ ومع هذا دأب يلبغا على تلقيبه بالشيخ لما أظهره من السبق فى ميدان الفقة وسائر العلوم الدينية . وسرعان ما جعل له مكانة مرموقة لما امتاز به من جمال الخلقة (٦) والتفوق فى فنون الحرب والفروسية (٧) .

وأخلص برقوق لسيده أشد الإخلاص حتى ثار معه على السلطان شعبان بن حسن سنة ٧٦٨ هـ — سنة ١٣٦٦ م (٨) . ورغم فشل ثورة يلبغا العمرى وقتله فإن ثورات اليلبغاوية تكررت بعده واشترك برقوق مع الفريق الثائر من اليلبغاوية . وحين ازداد خطر هؤلاء الثوار من اليلبغاوية أشار المماليك الترك السلطانية على السلطان شعبان « بحسم دائهم » ونفى العناصر الثورية منهم ، فنفى السلطان شعبان برقوقاً مع عدد منهم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٦ ب .

(٣) Huart : Hist. Des Arabes T 11 p. 59.

(٤) راجع ابن الطولونى : النزهة السنية ص ٢٢١ .

(٥) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٤٧٥

Iorga : Notes & Extraits TII p 532.

(٦) الإسحاقى : لطايف أخبار الدول ص ١٤٠ . ينفى ابن تغرى بردى ماذكرته بعض المراجع أن اسم برقوق كان الطنبغا وأن يلبغا العمرى سماه برقوقا لنتوء فى عينيه ويؤيد رأيه بأن أقاربه وإخوته حين حضروا نادوه « برقوقا » راجع النجوم ج ١١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، المنهل ج ١ ورقة ٣١٦ أ ، ب ، انظر السيوطى كتاب تاريخ الخلفاء ثم ملوك مصر إلى الأشرف قايتباى ص ٩

(٧) العينى : السيف المهند ص ٣٩ .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

إلى الكرك (١) سنة ٧٦٩ هسنة ١٣٦٨ م ، غير أن اليلبغاوية الذين انضموا إلى السلطان وبقوا بالقاهرة أمثال الأمير منكلى بغا ، والأمير طشتمر الدوادار ما زالوا يسعون لدى السلطان للإفراج عن زملائهم حتى كللت مساعيهم بالنجاح ، فأفرج السلطان شعبان عنهم فى سنة ٧٧٣ هـ - سنة ١٣٧١ م ولكنه لم يسمح لهم بالعودة للقاهرة فخرج برقوق مع مملوك تركى من اليلبغاوية هو بركة الجوبانى ليعملا فى خدمة الأمير منجك اليوسفى نائب دمشق (٢) . بيد أن إقامة برقوق عند منجك اليوسفى لم تشبع طموحه إلى السلطنة بعد أن أصبحت ميداناً لتنافس الأمراء . وبدأ برقوق يتلمس الأحوال التى تمهد لعودته إلى القاهرة ولا سيما بعد أن تقابل مع أحد الرهبان السوريان وتنبأ له بأن خيرات كثيرة تنتظر الجراكسة (٣) ، وأنهم سيحكمون سورية . وتذكر الوثائق أن هذه الكلمات أثرت تأثيراً بالغاً فى نفس برقوق ، مما بين أن طمع برقوق فى عرش مصر بدأ منذ أن كان مملوكاً عادياً . والخلاصة أنه ما كاد اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة يظهرون للسلطان شعبان خطورة اعتماده على مماليكه دون وجود منافس لهم حتى استدعى اليلبغاوية من سورية ، فعاد برقوق وزميله بركة فى سنة ٧٧٥ هـ - (سنة ١٣٧٣م) مع عدد كبير من اليلبغاوية الجراكسة والترك إلى القاهرة (٤) ، وقاد الحظ الأمير برقوق وزميله إلى العمل فى القصر السلطانى فى خدمة ولدى السلطان أمير على وأمير حاجى وشغل كل منهما منصب أمير عشرة (٥) .

على أن الأمير برقوق لم يكن مملوكاً عادياً ولكنه امتاز حقاً عن أمراء المماليك بذكاء فائق ودهاء خارق ، وعندئذ بدأ برقوق يستخدم ذكاءه ودهاءه فى التدبير على السلطنة المملوكية الأولى ، ورسم خطة محكمة لهذا الأمر (٦) . ولِمَ لا ؟ فالسلاطين يقضون أوقاتهم فى اللهو والصيد وينصرفون عن شئون الحكم إلى ملذاتهم وأهوائهم .

واشتملت خطة برقوق على ناحيتين هامتين : أولاهما ، أن يعمل برقوق - وهو أمير عشرة - من وراء ستار على القضاء على كبار الأمراء حتى تتاح له الفرصة للترقى واحتلال منصب يمكنه من الهيمنة على الجيش ، فإذا نجح استطاع أن يزيد أعداد

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢ ،
راجع بداية حياة برقوق فى العسقلانى : تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣ .
(٢) المقريزى : المقفى الكبير جـ ١ ورقة ١٨ .
(٣) Iorga : op cit. p. 532
(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلة ٣ ورقة ١٤٦ .
(٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٤١
(٦) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ١ ص ٢٠ .

الجراكسة فى الدوائر المملوكية ، وثانيهما أنه رغم ما عرف عن الجراكسة من تعصبهم لعنصرهم فإنه أصبح من ألزم الأمور أن يخفى الأمير برقوق اتجاهه العنصرى وقتذاك ، وأن يوطد عزمه على الاستفادة من النعرة الحزبية فى إثارة المماليك اليلبغاوية جميعها بما فيهم من ترك وجركس على المماليك السلطانية أنصار بيت قلاون ، حتى إذا نجح فى إضعاف شأن المماليك السلطانية استعان بالمماليك الجراكسة فى داخل فرقة اليلبغاوية وخارجها للقضاء على المماليك الترك فى فرقة اليلبغاوية نفسها.

بدأ برقوق عمله بمراقبة مؤامرات كبار الأمراء اليلبغاوية ضد السلطان شعبان . وتذكر المصادر المعاصرة أنه رغم ضآلة وظيفة برقوق فإنه شجع هذه المؤامرات بل أخذ ينسج خيوطها، حتى إذا ما قارب موسم الحج سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) دفع برقوق صهره الأمير طشتمر العلائى الدوادار – وهو أكبر الأمراء اليلبغاوية آنئذ – دفعة إلى أن يأتمر بالسلطان شعبان لتكون له السلطنة ، ورتب برقوق لصهره الخطة وخلاصتها أن يخرج طشتمر للحج شكراً لله الذى شفاه من الطاعون (١) وبعيداً عن القاهرة يمكنه أن ينفذ خطته . ثم تعدلت الخطة فجأة حين قرر السلطان شعبان أن يحج مع الأمير طشتمر الدوادار ، وذلك بسبب اعتماد السلطان شعبان اعتماداً كبيراً على إخلاص طشتمر ، وخشيته أن ينتهز اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة فرصة غياب كبيرهم فيثورون عليه ، ومن ثم كان قرار السلطان شعبان بالخروج للحج مع الأمير طشتمر الدوادار والخليفة المتوكل . وصحب السلطان معه عدداً كبيراً من أمرائه ومماليكه الأشرفية وبعض كبار الأمراء اليلبغاوية الذين اعتقد فى إخلاصهم له ، ومنهم الأمير يلبغا الناصرى الصغير . (٢)

وحسب السلطان أن وجود هؤلاء اليلبغاوية معه سيدرأ عنه شر المؤامرات ، بيد أن هؤلاء اليلبغاوية الذين سافروا مع السلطان تواعدوا على إثارة الفتنة ضد السلطان شعبان فى العقبة فى الوقت الذى يثور فيه أصحابهم من اليلبغاوية الذين بقوا بالقاهرة ويعلنون موت السلطان شعبان وسلطنة ابنه الطفل . وصارت مهمة الأمير طشتمر الدوادار إشعال نار الثورة بالعقبة بتحريض المماليك السلطانية على مطالبة سلطانهم بمستحقاتهم فى وقت لم يكن يملك فى يده شيئاً (٣) . ونجحت الخطة حين ضيق المماليك الأشرفية على سلطانهم الخناق وحاولوا قتله ، حتى إنه لم يجد من يستنجد به سوى طشتمر

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٢٣ ، انظر كذلك .
Muir : the Mamluk Dynasty p.p. 101—201

(٢) أصله من مماليك الأمير يلبغا العمرى الناصرى الكبير فنُسب كنسبة وقد أصبح مقدما فى دولة الصالح حاجى – راجع العسقلانى الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٤٠ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان : ورقة ١ ب .

ليحاول إقناعهم بالعدول عن الثورة . ولكن طشتمر تخلى عن السلطان شعبان (١) الذى أسرع وهرب تحت جنح الظلام إلى القاهرة . ومن العجيب أن المماليك الأشرفية لم يفطنوا إلى أهداف مدبرى هذه المؤامرة . وحين وجدوا أنفسهم بدون سلطان حاولوا علاج الموقف بسلطنة الخليفة المتوكل ، ولكن الخليفة رفض موافقتهم(٢) ؛ فأسقط فى أيديهم وقرروا العودة إلى القاهرة .

وعلى حين جرت الحوادث على هذا النحو فى العقبة نفذ باقى اليلبغاوية فى القاهرة ما تواعدوا عليه مع إخوانهم فثاروا بزعامة بعض أمرائهم الترك وهم طشتمر اللفاف وقرطاى الطازى واينبك البدرى وقطلقتمر العلائى . وادعوا أن السلطان شعبان مات وأنهم يريدون سلطنة ابنه أمير على . ولعب برقوق دورا هاماً فى ترتيب ثورة القاهرة (٣) التى تمكن فيها الثوار من كسر شباك الزمام المطل على باب الساعات بالقلعة ونهبوا بيته وأنزلوا أمير على الذى لم يجاوز الثامنة من عمره إلى الاصطبل السلطانى وسلطنوه ولقبوه المنصور وذلك فى ٨ من ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ سنة ١٣٧٦ (٤) .

وسمع ثوار القاهرة بنجاح ثورة العقبة، ولكنهم فوجئوا بفرار السلطان شعبان إلى القاهرة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلتين : أولهما مواجهة المماليك السلطانية العائدين من العقبة ليكشفوا حقيقة المؤامرة فى الوقت الذى يبقى فيه سلطانهم مختفياً بالقاهرة ، وثانيهما أن عودة طشتمر الدوادار وغيره من اليلبغاوية قد يحدث انقساماً فى صفوف ثوار القاهرة بسبب الاختلاف على من سيكون بيده الحل والعقد .

أما مشكلة المماليك السلطانية فإنها انتهت حين كشفت امرأة عن مكان السلطان شعبان وقبض عليه وهو لابس زى النساء ، ثم أحضر إلى القلعة بعد أن ألبس عدة الحرب وعذب ليظهر أمواله ثم خنق(٥) ، وقضى اليلبغاوية بذلك على آمال مماليكه الأشرفية العائدين من العقبة . وسرعان ما سلموا بما جرى من التغيرات بعد أول هزيمة لهم أمام اليلبغاوية فى ذى الحجة سنة ٧٧٨ هـ (سنة ١٣٧٦ م) . وتبع هذا حرمان بعضهم من إقطاعاتهم التى انتقلت إلى اليلبغاوية . وما لبث أن تدعم مركز اليلبغاوية حين حضر الخليفة والقضاة من العقبة وأقروا شرعية إجرائهم وجددوا البيعة للسلطان على .

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٧٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٧٩ .

(٣) راجع ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣١٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٨٩ .

(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٠٦ — ٢٠٧ — راجع كذلك السيوطى تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٥ ب .

ويمكن القول إن الأمير برقوق نجح فى تهيئة الفرصة لليلبغاوية للسيطرة على أمور الدولة منذ نهاية هذا العام حتى أصبح اليلبغاوية سادة الجيش المملوكى (١) . ثم إن هذه الحادثة مكنتهم من السيطرة على الوظائف الكبيرة فى الدولة فصار طشتمر اللفاف قائد ثورة القاهرة أتابك العساكر بمصر وتولى اينبك البدرى أمير آخور كبير وقرطاى الطازى رأس نوبة .

وأما طشتمر الدوادار الذى حرض على ثورة العقبة فإن كبار الأمراء اليلبغاوية اتفقوا على إبعاده خشية تجدد إثارته للمماليك الأشرفية، فعينوه بنيابة دمشق وأمروه بالسفر فوراً إلى مقر نيابته (٢) . وانتقل برقوق بعد هذه الحركة مع جماعة من الجراكسة إلى العمل فى خدمة اينبك البدرى (٣) .

والنتيجة الطبيعية لسيادة فرقة اليلبغاوية على المماليك السلطانية (الأشرفية) هى بداية التطاحن بين الأمراء اليلبغاوية الترك فيها على الزعامة . أما برقوق فإنه استغل الشحناء بينهم ورسم لهؤلاء الزعماء الخطة ليباغت الواحد منهم الآخر . وتفصيل هذا أنه ما إن تولى قرطاى الطازى منصب الأتابكية خلفاً لطشتمر اللفاف الذى مات سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) حتى صاهر الأمير أينبك البدرى أمير آخور الأتابك قرطاى الطازى ولكن هذه المصاهرة اتخذها أينبك البدرى وسيلة للغدر بصهره وقتله وتولى وظيفته (٤) . وبدأ الأمير أينبك البدرى مؤامرته بالقبض على عدد كبير من أتباع صهره وسجنهم بالإسكندرية فى المحرم سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) (٥) . ثم أنزل السلطان إلى الاصطبل ، وأعد الأمراء والمماليك لقتال قرطاى وأتباعه . غير أن قرطاى سرعان ما اكتشف الأمر وهرب إلى سرياقوس، ومن هناك أرسل يطلب نيابة حلب فأجيب إلى طلبه ، حتى إذا اطمأن إلى أينبك وحضر إليه قبض عليه أينبك ونفاه مع عدد من أتباعه إلى غزة (٦) .

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن برقوقاً دبر هذه المؤامرة كذلك ومكن أينبك من الوصول إلى الأتابكية (٧) ، فانتقل أينبك بمماليكه إلى مدرستى السلطان حسن والسلطان شعبان ، ثم أخذ الأمير أينبك يعد العدة للقضاء على سلطنة بيت قلاون وإعلان نفسه

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٨٠ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٢ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٠٧ .

(٦) العينى ، عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٣ .

(٧) راجع ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٦ .

سلطاناً ، فأخذ يرقى أبناءه ومماليكه (١) . وحظى برقوق بالترقى من إمرة عشرة إلى إمرة طبلخاناه دفعة واحدة (٢) . ومع هذا بدت خطوة إعلان أينبك سلطاناً ظاهرة خطيرة لدرجة أنه لم يجسر على القيام بها دفعة واحدة بل اتخذ جسراً يعبر به إلى هذا المنصب الجديد ، فأعلن رغبته فى سلطنة ابن زوجته الأمير أحمد بن يلبغا العمرى الكبير ، إذ فضلاً عن أنه ابن أستاذه ويرضى عنه سائر اليلبغاوية فإنه يسهل عليه خلعه متى أراد لضعف شخصيته . غير أن الخليفة المتوكل على الله رفض موافقته على هذه الخطوة الجريئة لأن أحمد بن يلبغا العمرى « ليس من بيت السلطان » (٣) ؛ فلم يسع أينبك سوى عزل الخليفة المتوكل ونفيه إلى قوص وتقرير زكريا بن الواثق فى الخلافة مكانه (٤) فى ٤ من ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ .

وحسب الأمير أينبك البدرى أنه يمكن إعلان نفسه سلطاناً بالاستعانة بالخليفة الجديد وبتأييد عدد كبير من خشداشيته بعد ترقيتهم السريعة . ولكن الخطوة الجريئة التى أقدم عليها حين عزل الخليفة المتوكل سرعان ما ظهر صداها لدى كبار الأمراء اليلبغاوية فى سورية ، إذ خشى هؤلاء الأمراء على مراكزهم من أن يحتلها أتباع أينبك البدرى . فثاروا فى ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧م) على أينبك بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذى سبق لليلبغاوية إبعاده إليها . وحين أحس الأمير أينبك بالثورة استشار برقوقاً فى أمرها ، فأشار عليه بأن يجهز حملة للتوجه سريعاً إلى سورية لإقماع الثائرين .

وقبل أن تغادر الحملة القلعة عمل أينبك على استجلاب رضا الشعب ، فأعاد الخليفة المتوكل وقرر أن يستصحبه إلى سورية ، كما صحب الحملة السلطان على ، ومن الأمراء اليلبغاوية الترك اختار أينبك يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى ضمن الأمراء المتوجهين مع الحملة (٥) . ووجد الأمير برقوق فى هذه الحملة فرصة ذهبية للتخلص من أينبك ، فوضع خطة لقتل أينبك أو عزله ، عهد بتنفيذها إلى يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى . وهنا يوضح

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ٧٣ أ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣١٦ ب : يلاحظ أن الترقى إلى أعلى المناصب دون النظر إلى الاعتبارات المملوكية المعروفة أصبح بيد كبار الأمراء إرضاء لأتباعهم ليكونوا عوناً لهم على تحقيق مآربهم .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٠٩ .

(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٥ (مصورة) .

(٥) المرجع السابق والجزء ص ٣١٠ .

المقريزى بدقة سياسة الأمير برقوق نحو الترك ومدى إخفائه لاتجاهه وأطماعه فى السلطنة فى قوله « غير أنه لدهائه لم يظهر ذلك لأصحابه حتى يخلو له الجو تماماً » (١) .

والخلاصة هى أن يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى قادا الثورة على أينبك بتحريضهما العسكر المتوجه إلى سورية فى ٢٩ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ سنة ١٣٧٧م واضطر أينبك إلى الفرار ونجحت خطة الأمير برقوق (٢) ، وهدأت الأحوال مؤقتاً فى سورية وعاد الأمراء الثلاثة بالعسكر والسلطان إلى القلعة فى ٣ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ (٣) .

وأصبح واضحاً أن الأمر كله صار وقتذاك بيد هؤلاء الأمراء اليلبغاوية الثلاثة وهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى وبرقوق العثمانى . على أن الأمير برقوق احتال على بركة حتى وافقه على اختيار الأمير يلبغا الناصرى أتابكاً ومقدماً لليلبغاوية ، لا احتراماً لأقدميته فى الإمارة ولكن رغبة فى التخلص منه هو الآخر . ومع أن الأمير برقوق ارتقى بعد هذه الحركة إلى وظيفة أمير اخور ، وصار بركة أمير مجلس غير أنهما كانا أبرز شخصية من يلبغا الناصرى لأنهما أصبحا على قول ابن خلدون « أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير » (٤) ثم إن يلبغا الناصرى لم يكن يوماً مع الفريق الثائر على سلطنة بيت قلاون ، ولهذا لم تكن أوامره محل طاعة اليلبغاوية . واضطر الناصرى إلى التسليم لبرقوق وبركة فى كثير من الأمور حتى أقنعاه آخر الأمر بالقضاء على بعض الأمراء اليلبغاوية الذين نافسوهم بزعامة الأميرين دمرداش وتمرباى الحسنى ، وأتبع برقوق وبركة هذا العمل بتعيين أتباعهما فى الوظائف التى خلت (٥) .

ثم بدت أمام برقوق ناحية فى غاية الأهمية وهى أنه وجد أن الأتابك أصبح يسكن الاصطبل بعد هدم مناظر الكبش ، وأن الأتابك نتيجة هذا يسيطر على الخيل والسلاح ، فما زال حتى أقنع الأمير يلبغا الناصرى بترك الاصطبل والخروج من القلعة ليسكن فى بيت شيخون وانتقل برقوق مكانه وسكن بالاصطبل.

بيد أن استئثار هؤلاء الأمراء اليلبغاوية بالنفوذ تبعه اضطراب الأحوال الداخلية فى البلاد وظهور عدة محاولات من جانب بعض الأمراء الترك لإنقاذ سلطنة بيت قلاون

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣١٢ .

(٢) مع أن يلبغا الناصرى اشترك فى الثورة على أينبك إلا أنه كان من أنصار بيت قلاون بدليل أنه صحب السلطان شعبان حين فر من العقبة إلى القاهرة . راجع ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٧٠ .

(٣) العينى عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٧ .

(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٧٤ .

وذلك بمناداتهم بضرورة تولية سلطان كبير من هذه الأسرة (١) . وأدرك برقوق خطورة هذه المحاولات واجتهد أن يصيد عصفورين بحجر واحد ، فاتفق مع يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى على دعوة طشتمر الدوادار لتولى الأتابكية فى مصر(٢) . وأراد بهذا أن يتخلص من طشتمر الدوادار نائب دمشق وهو أكبر أمير يلبغاوى وقتذاك ، كما أن فى هذا التعيين مايرضى الترك ويؤجل مسألة تولية سلطان كبير من أسرة قلاوون. ومهما يكن من أمر فإن طشتمر الدوادار رحب بهذا التعيين ، وحين وصل القاهرة فى ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م استقبله برقوق وبركة أحسن استقبال كما أشركا السلطان فى استقباله (٣) ، ثم وزعت الوظائف فتقرر أن يترك الأمير يلبغا الناصرى لطشتمر الأتابكية ، وأن يعمل بدلاً منها فى إمرة السلاح .

وبدا لطشتمر الدوادار كأنما صار له الحل والعقد فى الدولة ، ولكن الحقيقة أن الاجتماعات بين برقوق وبركة توالت بالاصطبل للتدبير عليه ، وخاصة بعد أن أبعدا يلبغا الناصرى إلى نيابة طرابلس (٤) . غير أن هذه الاجتماعات لم تمنع وجود المنافسة الخافية بين هذين الأميرين . واتخذت هذه المنافسة صورة عنصرية ، إذ تسابق الأميران فى شراء المماليك من جنسيهما « استغلاظاً لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما » ... كما أخذا ، « يبذلان الجاه لتابعهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ، ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة لهما ، وإلى أبوابهما حتى انصرفت الوجوه عن سواهما » (٥) ، وخطا برقوق خطوات واسعة فى هذا الشأن حين أفرج عن عدد من الجراكسة الذين سجنهم من قبل نواب السلطنة الترك ، وجعل بعض هؤلاء نوابا فى البلاد(٦).

ونتيجة لهذه السياسة بدأت الشكوك تساور الأمير طشتمر ، غير أنه لم يتحرك لإنقاذ موقفه بسبب صلة الرحم بينه وبين برقوق (٧) . ولكن حقيقة موقف الأميرين سرعان ماظهرت واضحة فى غرة ذى الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) إذ دب الخلاف بين الأميرين وبين طشتمر بسبب عودة برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بمطالبهما المتكررة فى نقل أنصار طشتمر إلى وظائف النيابة فى سورية ، أو

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٧٤ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١ .
(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ٤ أ (نسخة خطية) .
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٨ .
(٥) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٧ .
(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٧) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢٠ ورقة ٢٢٨ — ٢٢٩ .

مطالبته بعزلهم وتولية أصحابهما مكانهم ، ثم طالباه آخر الأمر بنفى الأمير كتبغا رأس نوبته أوتسليمه لهما ، مما أدى إلى ثورة مماليك طشتمر الدوادار الذين اجتمعوا به فى ٩ من ذى الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) وهددوه بالقتل إن لم يخرج معهم لقتال برقوق وبركة(١) . ولكن طشتمر جبن حين أغلق بابه وترك مماليكه يقاتلون الأميرين بزعامة تقطاى طواشية . ولم تجد شجاعة تقطاى حين قاتل بمائتين من العساكر فريقاً كبيرا من أتباع الأميرين(٢) . وانتهى الصراع بين الفريقين بمقتل كمشبغا وتسليم الأمير طشتمر نفسه إلى الأمير برقوق الذى قبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أتباعه وحبسهم بالإسكندرية ثم نفى باقى اليلبغاوية من أنصار طشتمر إلى قوص فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) (٣) .

وعلى أثر نجاح هذه الثورة تولى برقوق منصب الأتابكية (٤) ، كما عين أحد أقربائه من الجراكسة وهو الأمير أيتمش البجاسى أمير أخور (٥) . وحرص برقوق على استمرار سكنه بالاصطبل بل عين أخاه قرادمرداش أمير أخور ، وأسكنه معه فى جانب الاصطبل . وبدا كأنما الحظ يساعد الأتابك الجديد إذ ازداد الرخاء فى هذه السنة بمصر واستبشر الناس بعهد أتابكية برقوق حتى قال ابن الصاحب يمدح الأتابك برقوق :

إن برقوق الغصن كعـ ـبه فى الناس أخضر (٦).

ومن الواضح أن الأمور أخذت تتطور فى سرعة عجيبة فى وقت لم يعد للسلطان على أحد أى نفوذ . وبدا كأنما الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط ، إذ زالت هيبتها من نفوس الناس ، وانصرف الناس عن السلطان ، وأخذوا يقصدون أبواب الأمير ابن برقوق وبركة اللذين أصبحا أصحاب الحل والعقد فى الدولة . وعبر الناس عن هذا الموقف الغريب بقولهم : « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة » (٧) .

ومع أن الخطوة التالية تركزت فى ضرورة تخلص الأمير برقوق من زميله بن بركة ، إلا أنه وجد أن الوقت غير مناسب ، وأصبح لزاماً عليه أن يبذل أقصى جهده لجمع شمل المماليك الجراكسة وتوحيد جهودهم . بيد أنه على حين أخذ يعد عدته لهذا الأمر إذ به يفاجأ بثورة أحد أقربائه ، وهو الأمير إينال اليوسفى الجركسى . وكادت

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٩٢.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ٤ب (مخطوط) .

(٥) Sauvaget : Noms Et Surnoms Des Mam., pp. 39—40

(٦) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٩٤ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٦٣ .

هذه الثورة تصيب صفوف الجراكسة بالانقسام . وخلاصتها أن الأمير إينال اليوسفى كان شديد الكراهية لبركة ، وطالما حرض الأمير برقوق للثورة عليه وقتله ، ولكن برقوقا لم يجبه إلى رغبته ولهذا يبدو أن طول أناة برقوق لم تعجب إينال ، فانتهز فرصة سفر بركة إلى إقطاعه بالبحيرة فى شعبان سنة ٧٨١ هـ (سنة١٣٧٩م)(١)، وخروج بركة فى نفس الوقت للصيد خارج القاهرة ، وهاجم إينال الاصطبل بمعاونة عدد كبير من المماليك السلطانية . وبعد أن استولى إينال على الاصطبل أخذ فى نهب بيت برقوق وما فى خزائنه (٢) ، ثم خدع صغار مماليك برقوق وألبسهم آلات الحرب ووعدهم بالمال والإقطاعات إن هم عاونوه فى خطته (٣) ، وتمكن الأمير إينال من القبض على الأمير جركس الخليلى ، أكثر الأمراء إخلاصاً لبرقوق ، وحاول أن يضم السلطان عليا إلى جانبه ، ليحصل على تأييد العامة ولكن الزمام رفض إجابة طلبه (٤) .

وكادت هذه الثورة تفسد على برقوق خطته لولا أن عاد برقوق مسرعاً إلى القاهرة ، ونهض لإنقاذه قريبه ايتمش البجاسى أمير أخور ، فأنزله أيتمش فى اصطبله وجعل مماليكه فى خدمته . وقصد برقوق القلعة بمماليك ايتمش ، وفاجأ أصحاب إينال الذين شغلوا بنهب بيت برقوق . وبعد أن أحرق برقوق باب السر — أحد أبواب القلعة — استطاع دخول القلعة ومعه عدد كبير من العامة الذين ساعدوه بضرب أتباع إينال بالعصى ، والحجارة (٥) . ورغم ما أظهره إينال من رباطة الجأش فإن مماليك برقوق حين رأوا أستاذهم انقلبوا على إينال ورموه بالسهام واضطروه إلى الفرار وفى جسمه نشابة (٦) . ولكن برقوقاً تمكن من القبض عليه وحاول أن يستدل منه على شركائه فى المؤامرة دون جدوى، إذ حلف له إينال أنه أراد بثورته هذه القضاء على بركة فاكتفى برقوق بسجنه ريثما ترتب أموره (٧) .

---

(١) ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٨ .
(٢) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨١ ب .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ (شمسية) ورقة ١٧٦ .
(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٨ .
(٧) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٥ — مما قاله ابن العطار الشاعر فى هذه الحادثة :

قد ألبس الله برقوقاً مهابتـــه نهار الاثنين فى عز وتمـــكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا وكان يوماً عسيراً يوم الاثنين

ويبدو أن قيام أحد الجراكسة فى هذه المرة بالثورة على برقوق دفعه إلى الشك فى مدى إخلاص عنصره له مما جعله ينقلب على الجراكسة، وقبض على من اشتركوا مع إينال فى الفتنة، ثم استدعى يلبغا الناصرى الذى أبعده من وقت قريب إلى نيابة طرابلس، ليتولى إمرة السلاح بدلاً من إينال(١) . وحين حضر بركة اجتمع ببرقوق وبحث الاثنان الموقف واتفقا على التعاون فى توزيع الوظائف التى خلت وشغلها بالمقربين من أتباعهما .

ويدلنا سلوك برقوق نحو بركة فى هذه الظروف على أن برقوقاً لم يكن مستعداً لمواجهة بركة، بل لعله وجد أن إخفاء اتجاهه العنصرى فى هذه الظروف ذو قيمة كبيرة فى كسب الجولة المقبلة . ولذا بدأ برقوق يعد عدته لهذه الجولة بالاستفادة مما جد من عوامل .

وأول هذه العوامل ما ظهر من كراهية الناس لبركة بسبب قسوته ، حتى إن العلماء تذمروا حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع ابن طولون بعد أن استقر ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠ هـ (٢) ، ورغم معارضة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى فإن بركة انتزع هذه الأوقاف ووزعها إقطاعات على أتباعه الذين زاد عددهم (٣) . واستغل برقوق سيرة بركة السيئة ، وكراهية العلماء له وشهربه ، كما ملأ الأسماع عن قبول بركة الرشوة من الراغبين فى الوصول إلى مناصب القضاء(٤) ، وتقرب إلى العامة حين أفرج عن عدد منهم سبق أن حبسهم بركة(٥) .

ثم رأى برقوق أن يعدل عن سياسته الأخيرة نحو الجراكسة وحاول الاستفادة منهم ، وذلك بعد أن ظهرت مؤامرات لقتل برقوق ، دبرها المماليك السلطانية الترك ، وبعد أن أثاروا الدعايات السيئة ضده (٦) . ولاشك أن الدعاية أصبحت ذات أثر فعال فى المحيط السياسى بعد أن تلاشت شخصيات السلاطين من هذا المحيط وبدأت شخصيات الأمراء تحتل من اهتمام الناس الجانب الأكبر.

على أنه لم يكن هناك بد من وقوع صراع شديد بين الأميرين ؛ إذ على حين سعى أصحاب بركة من الترك للاستبداد بأموال الدولة امتاز برقوق بالتثبت فى الأمور وميله

---

(١) المرجع السابق والجزء ص ٤٦٨ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢٣٦ .
(٣) Ziadeh. N.: Urban Life In Syria: p. 42
(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام قسم ١ ورقة ٢٥٢ .
(٥) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٠٩ ، ص ١٢٦ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٦٦ .

إلى تغليب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . وكثيراً ما عارض برقوق أصحاب بركة فى استبدادهم بالأموال وضرب على أيدى الكثيرين منهم ، فلا عجب أن عمل مماليك بركة على التخلص من الأمير برقوق بتحريضهم الأمير بركة على الاستقلال بأمور الدولة دونه والغدر به (١) .

وثمة ناحية توجب الالتفات فى هذا الصراع الوشيك الوقوع بين الجراكسة والترك وتبين جانباً هاماً من سياسة برقوق ، هى أن برقوق وجد نفسه يواجه بمن معه من الجراكسة — وهم قلة — فرقتين من الترك ، أولاهما فرقة الأشرفية مماليك السلطان الأشرف شعبان الذين أرادوا إرجاع مجدهم السابق ، وثانيهما فرقة مماليك بركة ،وهم الذين عملوا على إزالة شخصية برقوق ليتسنى لهم تحقيق مآربهم . ولم يشأ برقوق أن يحارب فى ميدانين بل أخذ يتودد إلى الأشرفية ويقابلهم فى طباقهم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٢) ؛ على حين أخذ يضايق الترك من أتباع بركة بما أحدثه من تغيير فى الوظائف لتأييد مركزه.وأهم هذه التغيرات إبعاده بعض المماليك الترك إلى نيابات الشام (٣) ، غير أن هذا الإجراء أغضب بركة ، كما أدى إلى وضوح الاتجاه العنصرى . وبدأ كل من برقوق وبركة يعارض فى تعيين مماليك منافسه ويحل فى الوظائف الرئيسية المماليك من بنى جنسه . واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصرى بينهما فى إشعال نار الثورة بين الفريقين حتى أضمر بركة الغدر ببرقوق . ثم تأزم الموقف بينهما حين طالب الأمير بركة الأمير برقوق بتسليم الأمير ايتمش البجاسى ، أمير أخوره وأحد الأمراء الجراكسة المقربين إليه ، ورفض برقوق بطبيعة الحال ، ولكنه أظهر نفسه أمام الشعب أنه ينشد السلام وأعلن أنه يرغب فى التنحى عن وظيفته بشرط ترشيد السلطان ، وفى نفس الوقت أوحى إلى القضاة لإصلاح ذات البين بينه وبين بركة . وبذل القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقينى جهوداً كبيرة فى الضغط على الأمير بركة لقبول الصلح حتى أذعن ووعد ألا يتحدث فى أمر من أمور الدولة . وسر برقوق لهذه النتيجة ، وخلع على من سعى فى الصلح وجمع الأمراء للعب فى الميدان ابتهاجاً بعودة الوئام(٤) .

والواقع أن هذا الصلح لم يكن سوى صلح مؤقت لجأ إليه برقوق وقتذاك حيث إنه لم يكن مستعداً للدخول فى معركة فاصلة بينه وبين الأمير بركة ، وأراد أن يكسب الوقت ريثما تتم استعداداته ؛ حتى إذا تمت هذه الاستعدادات فى أول ربيع الأول سنة ٧٨٢ هـ

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٦٩ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص٢٤٢ .

(٣) راجع العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٠٧ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(سنة ١٣٨٠م) بدأ برقوق مناوشاته لإثارة بركة فأقام وليمة بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض فيها على أميرين من أتباع بركة (١) . وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى هذا الصراع الذى عزم فيه برقوق على أن يكسر شوكة العنصر التركى بالقاهرة (٢) . وأوضح المقريزى صورة هذا الصراع العنصرى السافر فى قوله . «وصار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق ، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة، فلما أصبح نهار الأربعاء تاسعة أنزل الأمير برقوق السلطان إلى عنده بالحراقة من الاصطبل ، ودقت الكئوسات جميعاً بالطبلخاناه من القلعة (٣) » .

ورغم أن عدد الترك جاوز عدد الجراكسة وقتذاك إلا أن إقامة الأمير برقوق بالاصطبل مكنته من السيطرة على السلاح ، كما زاد من قوته انضمام الأجناد البطالة وأجناد الحلقة إليه ، وخاصة بعد أن ظهر الأمير برقوق أمامهم بمظهر المدافع عن السلطان على ضد طغيان الأمير بركة .

وبدأ برقوق فى تحصين القلعة فأمر بباب القلعة من جهة القرافة فسد بالحجارة ثم قسم أجناد الحلقة والأجناد البطالة طوائف ، وركز كل طائفة منهم على تربة من الترب فيما بين القلعة وقبة النصر (٤) ، وعزل برقوق والى القاهرة الموالى لبركة وأعاد حسين ابن الكورانى المعروف بشدته وصرامته التى سرعان ما ظهر أثرها حين أمر بفتح حوانيت أصحاب السلاح وأخذ ما فيها ، وأمد بهذه الأسلحة أتباع برقوق ، كما أمر أعوانه بمنع من يخرج لمعاونة بركة وأصحابه بالسلاح أو الطعام أو الشراب . وعلى حين جعل برقوق مركز قيادته عند باب القلعة من ناحية الاصطبل ، ملأ كذلك مدرسة السلطان حسن المواجهة القلعة ودار الضيافة وصهريج منجك بالفرسان والرماة وجعل القيادة فى هذه المنطقة للأمير بزلار العمرى (٥) .

وأعطى برقوق إشارة البدء بقتال بركة للأمير ايتمش البجاسى الذى نادى فى العامة بأن « من قبض مملوكاً من مماليك بركة فله بركة ولنا الرمح »(٦) . كما حرض ايتمش على نهب بيت بركة . ووجد العامة والزعر فى هذا كله فرصة طيبة للحصول

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١ ، السيوطى : تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٦ ب .

(٢) راجع العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦١٠ — ٦١١ .

(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

(٥) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٤١ .

(٦) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

على غنائم فى وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة وطغيانه . وتوجه العامة إلى باب بيت بركة وبعد أن نهبوه سرقوا رخامه وشبابيكه ، ثم أشعلوا فيه النيران . وهرب بركة من باب آخر من جهة الشارع المؤدى إلى باب الفتوح وتوجه إلى باب النصر حيث انتظره أتباعه . وعلى الرغم من أن برقوقا استدعى يلبغا الناصرى ليتولى إمرة السلاح بعد ثورة إينال فإنه حين أصبح العداء سافراً بين العنصرين التركى والجركسى أسرع يلبغا الناصرى وانضم بمماليكه إلى جانب مماليك بركة الترك (١) ، ولهذا رجحت كفة بركة فى المناوشات الأولى التى اشتبك فيها عسكره مع عسكر ايتمش (٢) .

وإذ وجد بركة نفسه مضطراً للقتال فى أكثر من ميدان قسم عسكره ثلاث فرق؛ سارت الأولى إلى ناحية الجبل الأحمر ، والثانية إلى ناحية دار الضيافة ، والثالثة إلى بين العروستين (٣) ؛ وأظهر الترك من الشجاعة والجرأة ما جعلهم يتغلبون على الجراكسة أكثر من عشرين مرة كانت آخرها عند العروستين ، حتى إن الأمير برقوق حين أحس بحرج موقفه أرسل إلى بركة الأمير سودون الشيخونى بخلعة بنيابة الشام ، غير أن بركة الذى أحرز كل تلك الانتصارات على الجراكسة استشاط غضباً على رسول برقوق ورفض قبول عرضه .

وبعد أن فشلت جهود الأمير برقوق فى هزيمة بركة أو إبعاده لم يجد بداً من الاستماتة فى القتال رغم الخسارة التى لحقته (٤) . والواقع أن وجود السلطان المنصور على مع فريق برقوق زاد من تحمس العامة لمعاونة هذا الفريق ، إذ لولا انضمام العامة إلى برقوق ورميهم أصحاب بركة بالحجارة والنشاب لسقطت القلعة فى أيدى أصحاب بركة (٥) .

والخلاصة أن الأمير برقوق حمل حملة قوية على بركة حتى هزمه فى ١٠ من ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) . وتفرقت عساكر بركة فى هذا اليوم الذى قيل إنه اشتدت فيه الحرارة . وهرب بركة إلى جامع المقسى وظل مختفياً هناك حتى قبض عليه برقوق وحبسه بالإسكندرية مع عدد من مماليكه (٦) . واستحوذ برقوق على ذخائر بركة التى

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
(٣) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦١٣ .
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١ .
(٦) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٤٣ .

قيل إن من بينها سبعين قنطار ذهب جمعها فى أثناء توليه وظيفته الأخيرة . وأثرت هذه الفتنة فى أحوال القاهرة إذ ظلت أبوابها مقفلة وأسواقها معطلة مدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأمير برقوق من القبض على عدد كبير من الترك وملأ بهم سجون الإسكندرية ودمياط وقوص (١) ، وأحل برقوق محل هؤلاء عدداً من الأمراء الجراكسة الموالين له ، وعزل يلبغا الناصرى وسجنه وقبض على مماليكه ووزع إقطاعاتهم وإقطاع بركة على المماليك الجراكسة (٢) . ولم يكتف الأمير برقوق بإقرار الأحوال فى مصر ، بل أجرى حركة تطهير فى الوظائف السورية من أتباع بركة وملأها بأتباعه (٣) .

والواقع أن انتصار برقوق على بركة بهذه الصورة أدى إلى ارتفاع شأن الجراكسة فى هذه السنة (٤) ، كما وجه جميع الأنظار إلى الأتابك برقوق ، وبدأ الشعراء يمدحونه ويقدمون اسمه على اسم السلطان (٥) ، كما شجع هذا الانتصار الأمير برقوق كذلك على التخلص من الأمير بركة ليضعف الروح المعنوية للعنصر التركى وليقضى على ما لديهم من آمال لاستعادة نفوذهم ، ولكن الأمير برقوق تفادى أن يعلن نهاية بركة على يديه إذ ما زال أتباعه من الترك متفرقين وربما أدى قتله إلى تجمعهم وثورتهم للانتقام منه . وفضلاً عن هذا يبدو أن الأمير برقوق أراد أن يظهر بسياسته على عكس سياسة الأتابكة السابقين ، تلك السياسة التى قامت على سفك الدماء والقسوة الظاهرة . ولهذا أمر برقوق صلاح بن عرام نائب الاسكندرية سرا بقتل بركة فى السجن (٦) ، وبعد أن تم له ما أراد أظهر غضبه على ابن عرام ، واتهمه بقتل بركة دون إذن منه . وأمر به فأحضر مقيداً من الإسكندرية وسلمه إلى مماليك بركة الذين بعد أن شهروه على جمل قطعوا جسمه أجزاءً متناثرة (٧) .

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٧٨ .

(٢) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ ، ابن إياس بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٨ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٨ فى ذلك يقول ابن حبيب الحلبى :

يا ويحها من حالة وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة فيها أزالت بركة

(٤) ابن قاضى شهبة : الذيل على تاريخ الإسلام ، المجلد ٣ ورقة ١٤٦ .

(٥) من هؤلاء الشعراء القيم خلف الغبارى ومن قوله :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهى احفظ لنا برقوق واحرس الجند والنصر المنصور

ابن إياس جـ ١ ص ٢٤٨ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٧) العسقلانى إنباء الغمر جـ ١ ص ١٤٥ .

ويعلق المقريزى على النتائج التى ترتبت على مقتل بركة ويشير إلى طمع الجراكسة فى السلطة فى قوله « فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتُتبعوا بالأخذ فقُتلوا ونُفوا وسُجنوا . ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنه كبيرة ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك .. فلما كانت حركة إينال جهروا بذلك وقالوا من غير احتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم »(١) .

غير أن هذه المدة التى تعرضت فيها البلاد للثورات الداخلية وما تبع هذا من فوضى واضطراب الأحوال الداخلية والاقتصادية مكن لقبائل العربان فى مصر من الثورة رغبة فى إعادة الحكم إليها . وكانت هذه فرصة مواتيه لقبائل العربان فى مصر إذ طالما نادت طوال السلطنة المملوكية الأولى بأنها أحق بالملك من المماليك (٢) ، وأتبعوا هذا بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق براً وبحراً وتعطيل التجارة والسفر (٣) . ولعل أهم هذه الثورات التى أقلقت بال الأمير برقوق منذ أن تولى الأتابكية فى سنة ٧٧٩ ﻫ (سنة ١٣٧٧ م) هى ثورة بدر بن سلام كبير عربان الهوارة فى غرب الدلتا . وامتنع بدر بن سلام عن التزاماته وأهمها جباية الخراج ، ووجد بدر بن سلام الفرصة مواتية لإعادة النفوذ العربى إلى مصر ، وهاجم دمنهور فى خمسة آلاف رجل نهبوا أسواقها وبيوتها وخربوا ما صادفوه من قرى وضياع . وظل برقوق عاجزاً عن قمع بدر بن سلام لانشغاله فى مقاومة المماليك الترك (٤) ، ولهذا ما إن انتهى من القضاء على ثورة بركة حتى عين فى ربيع الآخر سنة ٧٨٢ ﻫ ثمانية أمراء مقدمين على رأس تجريده ضخمة من الأمراء والمماليك . وتوجه العسكر من الجيزة إلى ضواحى البحيرة حيث ضربوا خيامهم . وخدم الحظ الأمير برقوق فى هذه المرة ، إذ استطاع الأمراء أن يحصلوا من أحد العربان على خطتهم فى هجوم معسكر المماليك وهم فى خيامهم فى أثناء الليل ، فأخذوا حذرهم وخرجوا من الخيام وكمنوا بالقرب منها . فلما انتصف الليل هجم العربان على الخيام فوجدوها خالية ؛ وهنا فاجأهم العسكر وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ألف عربى وأسروا منهم أكثر من ذلك . وكان هذا الصراع بين الجراكسة والعربان حاسماً ، إذ فضلاً عن أن الجراكسة غنموا من العربان جمالهم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ .
(٢) راجع عن هذه الثورات المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٦–٣٨٧ .
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر رقم ٥ ص ٤٧٠–٤٧١ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٩–٢٥٠ .

وأغنامهم وخيولهم وعادوا بها إلى مصر (١) ، فإن عربان البحيرة خسروا زعامتهم حين هرب بدر بن سلام إلى برقة (٢) ، كما نفى برقوق باقى عربان هوارة إلى الصعيد ليأمن شرهم (٣) .

وعلى حين عمل الأمير برقوق على التغلب على الصعوبات التى واجهته فإنه اهتم بزيادة عدد الجراكسة يمكنه الإقدام على هذه الخطوة الجريئة التى اعتزم القيام بها وهى نقل السلطنة من الأتراك إلى الجراكسة ، فبذل لتجار الرقيق أموالاً كثيرة لإحضار والده وأقاربه وأولادهم من بلاد الجراكسة إلى مصر (٤) ، وجعل عثمان بن مسافر تاجره الخاص وخصه بالكثير من العطايا ، حتى بذل جهوداً كبيرة فى جمعهم وإحضارهم لمصر (٥) . ولما حضر أنس والد الأمير برقوق فى ذى الحجة سنة ٧٨٢ ﻫ (سنة ١٣٧٩ م) فى عدد كبير من أقاربه وأولادهم صحبتهم إلى مصر بعثة من قضاة حلب ودمشق (٦) . واحتفل بهم برقوق احتفالاً رائعا ، فأركب العساكر وسائر الناس « على طبقاتهم » لاستقبالهم وأقيمت لهم الخيام ومدت الأسمطة بسرياقوس . ودخل « الخواجه » عثمان وعليه خلعه بطرز زركش ، وركب عن يمينه نائب دمشق ، وركب أنس عن يساره . وحين التقى برقوق بوالده مدّ له والده يده فأخذها برقوق وقبلها ووضعها على رأسه إجلالاً له أمام الناس ثم أخذ فى تقديم كبار أمراء مصر إليه (٧) ، وبعد أن خلع على أنس بإمارة الف (٨) ، أجلس فى صدر المجلس وجلس بجواره القضاة والأمراء . وما أن انتهت مراسيم الاحتفال حتى ركب الجميع إلى القاهرة التى زينت شوارعها وأسواقها وأوقدت بها الشموع وماجت طرقاتها بالنظارة (٩) . وبعد أن وصل الركب إلى القلعة أنزل برقوق والده بالاصطبل كما أنزل أقاربه وبنى عمومته بالقلعة وفرض لهم الأرزاق وعينهم فى وظائف مختلفة (١٠) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٣٦٦-٣٦٨ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٠ .
(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقه ٢٦٤ .
(٥) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٦٤ ، ورقة ٢٧٣ .
(٦) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ١٤٨ .
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٣ .
(٨) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ١٤٨ .
(٩) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٤ .
(١٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٣ .

ووضح من هذا كله أن الأمير برقوق خطا خطوة أخرى أخذ فيها يعد الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء الجركس، حتى إذا آمن الناس بهم ونسوا سلاطينهم أمكنه أن ينقل السلطنة إليه «دون أن ينتطح فى هذا عنزان» على قول العسقلانى (١).

وفى يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣ هـ (سنة ١٣٨١ م) توفى السلطان على بن شعبان بعد أن حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر ونصف شهر، ولم تكن له فى هذه المدة من السلطنة إلا اسمها (٢). ورغم أن الأمير برقوق بلغ من القوة والعظمة ما جعل الناس يتحدثون سلطنته عقب وفاة السلطان على، فإنه لم يجرؤ أن يتسلطن، إذ أنه فضلاً عن أن فترة التمهيد لإعلان السلطنة لم تكن كافية، فإن كبار الأمراء أظهروا امتعاضهم من سلطنة «مملوك يلبغا» (٣) حين ردد الناس هذا الخبر. ولهذا وجد برقوق أن الحكمة تقتضى التريث فى الأمر، وأن هذه الحركة لم يحن أوانها. ثم جمع برقوق كبار الأمراء والخليفة والقضاة بباب السر بقلعة الجبل، وتحدث بنفسه معهم فى سلطنة واحد من أبناء السلطان شعبان، وفى هذا الاجتماع انكشفت أمام برقوق اتجاهات الأمراء نحوه، إذ أعلن الجميع أن مصلحة البلاد تقضى بالاحتفاظ بالعرش لبيت قلاوون (٤). وإذ لم يكن هناك بين أبناء السلطان شعبان من هو أكبر من أمير حاجى الذى لم يجاوز التاسعة من عمره أحضروه وسلطنوه فى ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١م) وبايعه الخليفة ملقباً إياه بالملك الصالح، وأكد الخليفة فى تقليده للأمير حاجى بالسلطنة أن يشترك معه فى تدبير أمور الدولة الأمير برقوق «لتشد الناس إلى عقدة محكمة» (٥). وبعد أن حلف له الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه خلع على رجال الدولة على العادة.

ومن الطبيعى أن تولية أمير حاجى السلطنة على هذا النحو المشروط بإشراك الأمير برقوق تبين مدى ما وصل إليه برقوق من نفوذ (٦) أوضحه ابن تغرى بردى فى قوله «بعد أن انفض الموكب أخذ برقوق فى التكلم فى الدولة على عادته من غير معاند وفى خدمته بقية الأمراء، يركبون فى خدمته وينزلون عنده ويأكلون السماط» (٧). وبهذا النفوذ تمكن برقوق من أن يخطو خطوة جديدة حين عين عدداً كبيراً من اليلبغاوية فى

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٨٤ .

(٢) الطيب : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر جـ ٣ ورقة ١٠٩٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٠٧ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٧٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٧٣-٤٧٤ .

(٦) راجع Ency of Islam Art. Barkuk

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٠٨ .

الوظائف الرئيسية (١) . كما اهتم بترتيب الأمور فى الداخل حين اعتمد على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية ، واتبع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب ؛ ومن ذلك ما قام به حين أخرج الأمير جركس الخليلى فلوساً جديدة بدلاً من الفلوس القديمة رغبة فى الثراء عن هذا الطريق السهل . ومن هذه الفلوس التى أخرجها الأمير جركس فلس زنته أوقية بربع درهم ، وفلس زنته نصف أوقية وفلس بفلسين . وحين فعل هذا ساءت الأحوال الاقتصادية وغلت أسعار الحاجات وتأثرت التجارة الخارجية واستاء الناس لهذا الإجراء أشد الاستياء . فأمر برقوق فوراً بإبطال التعامل بهذه الفلوس ، وكان لهذا أكبر الأثر فى إنعاش الحالة الاقتصادية (٢) . ومن مظاهر هذه السياسة الشعبية ما أقدم عليه برقوق من إبطال ضمان المغانى (٣) بحماة والكرك والشوبك والمنيا ، وضمان الملح بعينتاب وضمان الدقيق بالبيرة وضمان القمح (٤) بدمياط وفارسكور وإبطال المقرر على أهل البرلس ونستوارة وشورى وبلطيم (٥) ، كما أبطل مكوسا أخرى على غرارها ، وقابل الشعب هذا الإجراء بالتأييد الكامل للأمير برقوق (٦) .

أما فى الخارج فإن الأمير برقوق انتهز الفرصة لإظهار قوته ، وجاء هجوم التركمان سنة ٧٨٣ هـ على حلب مواتيا إذ استطاع برقوق هزيمتهم وردهم على أعقابهم (٧) .

ومن الواضح بعد هذا أن شخصية الأمير برقوق أصبحت قوية ومخيفة، حتى إن

---

(١) أوضح ابن تغرى بردى أن طريقة الوصول إلى الوظائف فى وقت سيطرة الأمراء هى «الوثوب وإقامة الفتنة» راجع ابن تغرى بردى : النجوم — جـ ١١ ص ٢١٤ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٦٨ .

(٣) قال المقريزى عن ضمان المغانى (الأغانى) أنه كان بلاءً عظيماً وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزل اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها ، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لا بد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفّس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٠٦ .

(٤) ضمان القمح كان عبارة عن مكس يؤخذ من الفقراء ممن يبتاع من أردبين فما دونهما. راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٠٦ .

(٥) كان مقرراً على أهل هذه البلاد ستين ألف درهم سنويا (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) .

(٦) العينى : عقد الجمان جـ ١٤ قسم ٢ ورقة ٢٦١ .

(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٠٤ .

أعداءه خشوا على أنفسهم منه فدبروا مؤامرة لقتله . غير أن برقوقاً نصب لنفسه عيوناً تنبئه بما يدور من وراء الستار وكشف خبر هذه المؤامرة ، فجمع أتباعه واستشارهم فيما يفعله . واتفق فى هذا الاجتماع على القبض على متزعمى هذه الحركة ونفيهم أو سجنهم فى سجون القلعة (١) . وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة فى سلسلة المؤامرات التى دبرت للوقوف أمام العنصر الجركسى وتعطيله عن الوصول إلى السلطنة . فلما نفى برقوق إيتمش الخاصكى وبطا الأشرفى متزعمى هده المؤامرة التركية وقبض على أتباعهما خلا له الجو « فلم يبق له معاند ، وصار له من المماليك الجراكسة عدد كثير جلبوا إليه من البلاد فرقاهم إلى ما لم يخطر لهم ببال » (٢) .

ومع كل هذا ظل الأمير برقوق حريصاً على إخفاء اتجاهه ، بل إنه حين شعر بأن الرعية «أنست بحسن سياسته وجميل سيرته» (٣) ، تظاهر برقوق بحرصه على حياة السلطان حاجى فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان . وكان لكشف هذه المؤامرة صدى فى موقف الأمراء المناصرين لبرقوق ، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم ، واجتمعوا للتفاوض فى إسقاط «سلطنة الصغار» وإقامة برقوق سلطاناً على البلاد (٤) . وتوالت الاجتماعات التى أظهر فيها أتباع برقوق خطورة موقف البلاد فى وقت تولى أمرها سلطان صغير . كما أوضحوا للناس أن إهمال تولية سلطان كبير سيؤدى إلى طمع الأعداء فى البلاد (٥) . ثم عرض الأمراء الجراكسة : إيتمش البجاسى وجركس الخليلى وقردم الحسنى على برقوق أن يتسلطن ويحتجب عن الناس حتى يريح أعداءه وأصدقاءه على السواء (٦) ، ولكن برقوقا أبدى رغبته فى أن تأتى هذه الخطوة من جانب جميع كبار الأمراء فى مصر وسورية ، ولهذا ركب الأمير سودون الفخرى حاجب الحجاب ومر على الأمراء بمصر سراً حتى استرضاهم ومازال بهم حتى حدثوا الأمير برقوق فى أمر سلطنته «وهونوا عليه الأمر» وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والأمراء فى سورية . وإذ زالت كل العقبات التى اعترضت الأمير برقوق، وآخرها موت اثنين من كبار الأمراء اليلبغاوية أقدم من

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧ .
(٢) المرجع السابق والجزء ص ٤٠٥ .
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٤ .
(٤) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤ .

برقوق هجرة وإمارة ، وهما : الأمير أقطمر عبد الغنى والأمير ايدمر الشمسى ، قبل برقوق ما عرضه عليه كبار الأمراء فى أمر سلطنته (١) .

وبدأت مراسم إعلان السلطنة الجديدة بأن طلب برقوق الخليفة المتوكل على الله فى ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤ (٢٦ من نوفمبر سنة ١٣٨٢) ، إلى الاجتماع بهمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء فى باب السلسلة . وقام القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر فى وسط المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » (٢) . وأيد الخليفة قول كاتب السر حين أعلن فى المجلس « أن الأمور مضطربة ، وأن الوقت محتاج إلى سلطان كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وإفهام » (٣) . ولم يكن هناك بطبيعة الحال من يجرؤ على التقدم لمنافسة برقوق فى السلطنة ، ولهذا اتفق الجميع على خلع السلطان الصالح حاجى بعد أن حكم سنه وستة أشهر ونصف وأعلنوا سلطنة الأتابك برقوق (٤) ؛ لما علموا فيه من « حسن سيرته وإحكام سريرته ، وكمال شجاعته ووفور عقله ومروءته ، وحسن تدبيره فى سياسته ، وانقياده سنن النبى عليه السلام وشريعته ، ولما فيه من المصلحة التامة للخاصة والعامة » (٥) . وبعد أن بايعه الجميع توجه أميران إلى السلطان أمير حاجى وأخذاه من قلعة الدهيشة وأدخلاه إلى أهله بالدور السلطانية ، ثم أخذا منه النمجاه (٦) وأحضراها إلى السلطان برقوق ، ثم خطب الخليفة المتوكل خطبته التى دعا فيها السلطان إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أوصاه « بالعدل فى الرعية والنظر فى أحوالهم والإحسان إليهم ودفع الضرر عنهم والقيام بحفظهم وحفظ ماتحت ولايته شرقاً وغرباً ، براً وبحراً . (٧) »

جلس برقوق على تخت السلطنة فى وقت الظهر يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢١٤-٢١٥ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٠٥ .
(٣) ابن أبى السرور : الروضة الزهية ورقة ٤٠ .
(٤) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩ .
(٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩ .
(٦) النمجاه هى شارة السلطنة ، وهى كلمة فارسية معربة ومعناها السيف الصغير أو السكين المنحنية . انظر ابن تغرى بردى النجوم ج ١٠ حاشيه ٢ ص ٢٣١ .
(٧) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ١ ب .

رمضان سنة ٧٨٤ ﻫ وأفيضت عليه خلعة السلطنة وهى خلعة سوداء ، وأشار شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى أن يلقب «بالملك الظاهر» فإنه تسلطن وقت« الظهيرة ومن الظهور لأن هذا الأمر ظهر بعد أن كان خافيا » (١)

وهكذا أصبح مملوك الأمس سلطاناً بفضل دهائه وسياسته وإحكام تنفيذ خطته التى رسمها لهذا الغرض . واعترف به فى الحال سلطاناً أمراء مصر ونواب سورية مع أن أكثرهم كان ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم فى الوقت الذى كان فيه برقوق مملوكاً عادياً فى صفوف الجيش (٢) .

ثم أكمل برقوق مراسم السلطنة ، فركب فرس النوبة من الاصطبل السلطانى ، والقبة والطير على رأسه ، وطلع من باب السر ، وعند ركوبه «بأبهه السلطنة» أمطرت السماء فتفاءل الناس بيمن السلطنة الجديدة . ومشى الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل بالقصر الأبلق . وعند ركوبه دقت البشائر بقلعة الجبل ، كما زينت القاهرة وأنحاء البلاد سبعة أيام ، ونودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق (٣) وأقبل الشعراء على مدحه والإشادة بفضله (٤) . وأقام السلطان برقوق بالقصر الأبلق بالقلعة ثلاثة أيام ، وصارت هذه سنة جديدة سار عليها من تسلطن بعده (٥) .

والواقع أن نجاح السلطان برقوق فى الترقى من صفوف الجندية إلى السلطنة مرجعه حكمته ودهاؤه ، وإحكام خطته التى رسمها وقصد بها سيطرة فرقة اليلبغاوية أولاً على شئون الحكم ، حتى إذا تم له هذا الأمر مكنته شخصيته من الفوز على غيره من الأمراء اليلبغاوية واعتلاء السلطنة . ورغم أن السلطان برقوق اعتلى السلطنة بفضل تأييد الجراكسة إلا أنه لم يفاجئ الترك بتعصبه العنصرى ما دام أكثر اليلبغاوية من الترك ، ولذا حرص

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفة .

(٢) Muir : The Mamluk Dynasty p. 106

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ ب .

(٤) مما قاله فيه الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار :

ظهــور يوم الأربعاء ابتدا ... بالظاهر المعتز بالقاهــر
والبشر قد تم وكل امرئ ... منشرح الباطن بالظاهر

ومما قاله الشيخ شهاب الدين الأعوج السعدى :

تولى الملك برقوق المفدى ... بسعد الجد والأقــدار حتم
نهار الأربعاء بعد الظهــر ... والتربيع فى الأفلاك حكم

راجع ابن تغرى بردى النجوم ج ١١ ص ٢٢١–٢٢٢ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ .

فى بداية سلطنته على إرضاء الأمراء اليلبغاوية من الترك والجركس على السواء ، بدليل أنه جعل الأمير جركس الخليلى الجركسى مشيراً للدولة ، وفى الوقت نفسه ، جعل الأمير سودون الفخرى التركى نائب السلطنة بمصر ثم عفا عن يلبغا الناصرى وأقره فى نيابة حلب بعد أن حضر يلبغا وقبل الأرض بين يديه (١) . على أنه مما يثير الالتفات أن السلطان برقوق ركز كل السلطات فى يده حين جعل مرجع هؤلاء جميعا إليه ، كما أنه قيد سلطة الوزير ورسم له ألا يتكلم فى شىء إلا بعد مراجعته .

وهكذا أيضا أنهى برقوق سلطنة الترك فى مصر بعد حكم دام نحو مائة وثلاثين سنة وقضى على سلطنة بيت قلاون ، بعد أن حكمت هذه الأسرة من هذه الفترة نحو مائة سنة . وأقام برقوق دولة جديدة هى الدولة المملوكية الثانية التى أطلق عليها المؤرخون المعاصرون «دولة الجراكسة» (٢) ، وذلك لأن الجراكسة أصبحوا عماد السلطنة المملوكية الثانية بفضل دأب برقوق على جلبهم وتشجيع التجار على الإكثار منهم ، وحرص برقوق على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف . وعبر المؤرخون المعاصرون عن هذا الانتقال بعبارات الرضا عن الأحوال الجديدة للبلاد وانتقال الحكم إلى سلطان كبير أمسك بزمام الأمور ، وأخذ يوجه سياسة الدولة فى الداخل والخارج ، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك ، ذلك النفوذ الذى أضعف السلطنة المملوكية الأولى . ومن هذة العبارات ماقاله ابن خلدون : «وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم فى إيالة سلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها» (٣) .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٣١ .

(٢) راجع المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٤١ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ، جـ ١٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٧٤ .

الفصل الثالث

حكم السلطان برقوق

مشاكل سلطنة برقوق – ثورة الطنبغا السلطانى التركى نائب الابلستين ١٣٨٢ م – طمع الخليفة المتوكل سنة ١٣٨٣ م فى السلطنة وسجن المتوكل – كشف مؤامرة أحمد بن البرهان سنة ١٣٨٦ م – ثورة المماليك الترك بزعامة منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨ م – اعلان السلطان برقوق عداءه للترك ومحاولته قتل يلبغا الناصرى – توحيد صفوف الترك لمقاومة الجركس – اعلان الصراع بين الترك والجراكسة – معركة دمشق أو معركة الخمسمائة بين جيش برقوق والمماليك الترك سنة ١٣٨٩ م – عودة جيش برقوق منهزما الى القاهرة – استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩ م خلع برقوق واعادة السلطان حاجى الى الحكم – عوامل انقسام الترك على أنفسهم – النزاع بين منطاش ويلبغا الناصرى – خروج السلطان برقوق من الكرك الى دمشق فى أواخر سنة ١٣٨٩ م انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق – عودة السلطان برقوق الى القاهرة وخلع السلطان حاجى ٠

وصل الأمير برقوق إلى السلطنة بفضل خطة أحسن تدبيرها وتنفيذها ، غير أن الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود ، بل اتصف حكمه بالكفاح المستمر لإحباط المؤامرات التى دبرها المماليك الترك ضد سلطنته . ذلك أن السلطان برقوق حين أخذ فى إرساء قواعد دولته وجد نفسه يواجه فرقتين من المماليك الترك ، فرقة اليلبغاوية الترك وفرقة الأشرفية مماليك السلطان شعبان . ولما كان لليلبغاوية الترك فضل الموافقة على سلطنته فإنه بدأ حكمه بإشراك أمرائهم فى الحكم إشراكاً شكلياً ، حتى يمكنه أن ينصرف إلى التخلص أولاً من المماليك الأشرفية الترك : وتحقيقاً لهذه السياسة حرم أكثر الأشرفية من إقطاعاتهم وتركهم بطالين وبرر السلطان برقوق إجراءه هذا بقوله : «إن هؤلاء . خانوا أستاذهم بعد أن عاشوا فى نعمته مدة طويلة ، وإنه لهذا «لم يعد يأمن لهم» (١) . وأتبع السلطان هذا العمل بإحلال مماليكه الجراكسة تدريجياً مكان هؤلاء المماليك

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ .

الأشرفية الترك . ولذا أدت هذه السياسة إلى الكثير من المؤامرات والفتن التى أثارها الأمراء الترك الذين أدركوا خطورة سياسة السلطان برقوق فى جركسة الدولة كلها وماتبع هذا من اضطهاد مستمر للعناصر المملوكية التركية .

وأولى هذه الثورات التركية ثورة الطنبغا السلطانى الأشرفى نائب أبلستين(١) . ذلك أن هذا الأمير هاجم فى ذى القعدة سنة ٧٨٤ هـ (سنة ١٣٨٢ م) قلعة دارنده (٢) المضافة إلى نيابته وقبض على بعض أمرائها من الجراكسة الذين عينهم برقوق أخيراً . غير أن مماليك هؤلاء الأمراء تمكنوا من القبض على مماليك الطنبغا السلطانى وضيقوا عليه الحصار حتى طلب الأمان ؛ بيد أنهم بعد أن أمنوه تمكن من الفرار من القلعة إلى مقر نيابته . ومما هو ملحوظ أن هذه الثورة لم تكن مؤيدة من الترك اليلبغاوية فى سورية بدليل أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب لم ينضم إلى الطنبغا السلطانى فى حركته هذه ، بل على العكس كتب إلى الطنبغا يهدده بالزحف على نيابته وعزله إن لم يرجع عن عصيانه .

والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان فى نفوس الأشرفية الترك من الحقد ورغبتهم فى الثورة على حكم الجراكسة ، فإنها تدل على مدى تفكك المماليك الترك آنئذ ، حتى إن الطنبغا السلطانى حين شعر بضعف مركزه لعدم مؤازرة نواب سوريا من اليلبغاوية الترك فرهارباً إلى بلاد التتار بعد أن أعلن رأيه صراحة فى قوله . «لا أكون فى دولة حاكمها جركسى » (٣) .

على أن الأشرفية جربوا حظهم مرة أخرى فى أول رجب سنة ٧٨٥ هـ (سنة ١٣٨٣ م) ؛ وكانت هذه المرة بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله ، وخلاصة الاتفاق أن يقوم قرط ابن عمر الكاشف وإبراهيم قطلقتمر العلائى أمير جندار ومعهما نحو ثمانمائة فارس من الترك(٤) باغتيال السلطان برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان ، وإعلان الخليفة المتوكل سلطاناً على البلاد (٥) . وحين كشفت هذه المؤامرة وجىء بالمتآمرين إلى حضرة السلطان برقوق

---

(١) أبلستين مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس وكانت ضمن بلاد السلطنة المملوكية الثانية – راجع ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٨٦ .

(٢) قلعة دارندة كانت من بلاد الثغور والعواصم الخارجية عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طلبخاناة – انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٢٩ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٨ .

(٥) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٠٠–٢٠١ .

هددهم بالويل والثبور ، حتى اعترفوا بأن الخليفة استدعاهم وقال لهم « هؤلاء ظلمة وقد استولوا على هذا الأمر كرهاً منى فى الباطن ، ولم أقلد برقوقاً إلا غصبا »(١) . وظهر من اعترافاتهم أن الخليفة كتب إلى عرب البحيرة وطلب معاونتهم (٢) . وعندئذ غضب السلطان برقوق وهجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت ، ووافقه البعض على هذا الحكم ، على حين اختلف القضاة فيما بينهم فى أمر هذا الحكم لأن للخليفة حق تعيين وخلع السلاطين ؛ وهذا تخلص عجيب فى بابه من ورطة هذا اليوم(٣) . وإزاء هذا قنع برقوق بخلعه وسجنه بالقلعة وتعيين عمر بن إبراهيم خليفة وتلقيبه بـ« الواثق بالله » وبالحكم على قرط بن عمر بالموت(٤) .

على أن هذه المؤامرة التى وضح فيها استعانة الخليفة بالترك والعربان لقلب نظام الحكم الجديد جعلت السلطان برقوق يبدأ حكم الإرهاب ضد مثيرى الفتن من الترك الأشرفية وعزل عدداً كبيراً منهم عن وظائفهم ، كما نفى عدداً آخر إلى سورية بطالبين .

غير أن هؤلاء المنفيين صاروا عاملاً من عوامل إثارة حكام سورية الذين توجسوا خيفة من أن يتهموا أو يعزلوا وأحس السلطان برقوق بهذه المخاوف حتى بدأت الشكوك تساوره من ناحية اليلبغاوية كذلك ، ومما خلق عنده هذه الشكوك أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب سلك مسلكاً شائناً فى سنة ٧٨٧ هـ (سنة ١٣٨٥م) من سولى بن دلغادر التركمانى عدو السلطنة المملوكية الثانية ، ذلك أن سولى بن دلغادر حضر إلى حلب طائعاً ، فأنزله يلبغا الناصرى عنده ، وكاتب السلطان برقوق فى أمره ، فأرسل برقوق إلى يلبغا بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة مقيداً . غير أن يلبغا الناصرى وجد فى القضاء على سولى بن دلغادر هدوءاً لأحوال سورية وبالتالى توطيداً لنفوذ السلطان برقوق مما يعين السلطان على تحقيق سياسته الخطيرة نحو الترك — فتظاهر يلبغا بطاعة السلطان وقيد سولى وحبسه بالقلعة ولكنه عاد فأطلقه بعد أن زيف مكاتبة من السلطان بإطلاقه . وحين كشف زيفه حاول أن يدلل على براءته بخروجه بالعسكر فى طلب سولى ، ولكنه سار يوماً فى غير الطريق الذى سار فيه سولى بن دلغادر ، وعاد معلناً عدم إمكانه العثور عليه(٦) . وغضب السلطان برقوق من تصرف يلبغا ، وخشى تكرار مؤامرته بعد أن ظهرت نياته واضحة ،

(١) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقه ٧ أ .
(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦٠ .
(٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢٨٦ .
(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٩ .
(٦) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

فأرسل بعزله عن نيابة حلب ، وعين مكانه الأمير سودون المظفري صاحب حلب الذي طالما دس على يلبغا الناصري عند السلطان . وحين جاء يلبغا الناصري إلى القاهرة في رجب سنة ٧٨٧ هـ عنف وقيد ثم أرسل إلى سجن الإسكندرية (١) .

وماكاد السلطان برقوق يأمن شر يلبغا الناصري وينصرف إلى أحواله الداخلية حتى واجهته في السنة التالية مؤامرة جديدة اشترك فيها مع الترك أربعة من الفقهاء في دمشق . وفي ٢٤ من ذي الحجة سنة ٧٨٨ هـ (سنة ١٣٨٦ م) أحضر هؤلاء الفقهاء الأربعة من دمشق مقيدين ليقفوا بين يدي السلطان برقوق . وحين واجههم السلطان بتهمة « السعي في نقص المملكة والدعاء لإمام قرشي »(٢) تقدم كبيرهم أحمد بن البرهان في جرأة عجيبة وأنكر على السلطان برقوق قيامه بحكم البلاد وأظهر له أنه « غير أهل للقيام بأمر المسلمين وعدد له بأمور عليه ، منها أخذ المكوس وغير ذلك ، وأنه لايقوم بأمر المسلمين إلا إمام قرشي »(٣) . وكانت هذه الحركة غريبة في بابها وقتذاك ، ولذا اعتقد السلطان برقوق أن يكون للترك ضلع في هذه المؤامرة وأمر أصحابه أن يعاقبوهم حتى يعترفوا على من اشترك معهم من الترك ؛ غير أن هؤلاء لم يعترفوا برغم عقابهم فسجنهم بخزانة شمائل(٤) . واضطر برقوق بعد هذا إلى انتهاج سياسة الإرهاب للقضاء على الترك سواء أكانوا من فريق الأشرفية أو اليلبغاوية ، فتتبعهم بالقتل والنفي كما ترك عدداً كبيراً منهم يطالبن . وزيادة في الحيطة أمر برقوق ألا يدخل عليه أحد من الأمراء القصر إلا بمملوك واحد ويترك بقية الأتباع خارج القصر فامتثل الأمراء لهذا الأمر(٥) .

وحين ازداد اضطهاد السلطان برقوق للترك الأشرفية عز الأمر على تمربغا الأفضلي الأشرفي المعروف بمنطاش نائب ملطية . (٦) وأخذ في جمع الترك الذين نفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان . وعلى حين أخذ منطاش يعد العدة

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ، ص ٤٧٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٤٧٠ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٦ .

(٥) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٣ .

(٦) أصله من مماليك السلطان الأشراف شعبان الترك أبقى عليه الظاهر برقوق وعينه في نيابة ملطية بشفاعة قجماس ابن عم السلطان برقوق لأنه حين مر عليه وهو مع التاجر الذي جلبه بالغ في الإحسان إليه — راجع العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٨٣ ، الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٦٤ .

لهذه الثورة منتظراً انتهاء فصل الشتاء ليصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، أرسل استاداره إلى برقوق يخبره ببقائه على طاعته . ولكن السلطان برقوق كان أكثر دهاء ، وأرسل دواداره ملكتمر بعشرة آلاف دينار لينفقها فى أمراء حلب مقابل قيامهم بمراقبة حركات منطاش (١) . وأثبتت المعلومات التى جمعها ملكتمر سوء نية منطاش وعجز الأمير سودون المظفرى نائب حلب عن محاربته(٢) . وحين وصلت هذه المعلومات الخطيرة إلى السلطان برقوق لم يكن فى وسعه إطلاق سراح يلبغا الناصرى وإعادته إلى نيابة حلب بدلاً من سودون المظفرى(٣) وذلك فى ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٨م) ظناً منه أن يحصل بهذا على تأييد اليلبغاوية ويثيرهم على الأشرفية وبذا يستفيد من الانقسام فى صفوف الترك .

بيد أن الحوادث أثبتت عكس ما توقعه برقوق إذ أنه ما كادت تمضى ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يلبغا الناصرى للقاهرة حتى وصل إلى علم السلطان برقوق نبأ إعلان منطاش عصيانه فى ٣ من ديسمبر سنة ١٣٨٨م بعد أن اجتمع لديه عدد كبير من الأشرفية الترك (٤) . وهنا أحس برقوق بخطأ كبير لإطلاقه سراح يلبغا الناصرى وتوقع أن ينضم يلبغا إلى بنى جنسه كما فعل من قبل حين انضم إلى الأمير بركة .

على أن يلبغا الناصرى لم يجرؤ على الانضمام علناً لمنطاش ، مع أن جانب منطاش كان قوياً بعد أن انضم إليه برهان الدين أحمد صاحب سيواس ، وقرا محمد التركمانى ، ونائب البيرة . أما يلبغا الناصرى ، فإنه نفذ أمر السلطان برقوق وتقدم لإخضاع أعدائه. ولكنه بدلاً من أن يتجه إلى منطاش فى ملطية اتجه أولا إلى مدينة سيواس وأحكم الحصار حولها (٥) . ويبدو أن صاحب سيواس خشى أن يقع بين هجومين : أحدهما هجوم تيمورلنك الذى أخذ يزحف غرباً ، والثانى هجوم جيوش السلطان ، فبادر إلى إعلان الطاعة (٦) واكتفى يلبغا الناصرى بقبول طاعة برهان الدين مع أنه كان فى وسعه الاستيلاء على سيواس وطرد صاحبها (٧) . والواقع أن هذا الموقف المائع الذى وقفه يلبغا الناصرى سبّب للسلطان برقوق متاعب كثيرة ، إذ أنه لم يشتبك بمنطاش وأتاح له الفرصة لتجتمع حوله

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٣ .
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٥ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٨٠ .
(٤) راجع العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٨٨ — ٤٨٩ .
(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٨٣ .
(٧) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٢٨ .

المماليك الترك ليتمكن من الثورة مرة أخرى على السلطنة المملوكية الثانية بعد أن يوحد صفوف المماليك الترك .

وفى ربيع الآخر سنة ٧٩٠ هـ (سنة ١٣٨٨ م) عاد السلطان برقوق إلى الوقوع فى خطأ جديد، وذلك حين قبض على الأمير الطنبغا الجوبانى نائب دمشق وأكثر الأمراء الترك إخلاصاً له لمجرد انتشار الأخبار عن إكثار الأمير الطنبغا الجوبانى من شراء المماليك(١). وفسر الترك مسلك برقوق من الجوبانى بأنه حمل كل معانى الغدر . ذلك أنه حين حضر الطنبغا الجوبانى إلى مصر ليدلل على براءته قبض عليه السلطان برقوق وسجنه بالإسكندرية وأقر منافسه طرنطاى فى نيابة دمشق (٢).

ثم عادت مخاوف برقوق من الترك تدفعه إلى القبض على الكثيرين منهم ، وخاصة مثيرى الفتن من المماليك البطالين . وأدى هذا إلى فقدان أمرائه ونوابه الترك ثقتهم فيه (٣) . وتكتل نواب سورية الترك ممن ينتمون إلى الرقتين وقبضوا على عدد كبير من الجراكسة (٤) ، أما يلبغا الناصرى فإنه لم ينضم إلى هذا التكتل وآثر الحياد واحتجب فى بيته خشية اصطدامه بإينال اليوسفى الجركسى . غير أنه فى الوقت نفسه اتصل بمنطاش سراً وشجعه على الاحتماء بحماه، حيث وجد فى أهلها من يناصره من أعداء السلطنة المملوكية الثانية(٥) .

أثارت هذه الأخبار السلطان برقوق ، ولكنه كظم غيظه ريثما تتم استعداداته للانتقام من يلبغا الناصرى ، حيث إنه لم يكن يستهان بقوة يلبغا الناصرى بعد أن ازداد نفوذه فى حلب بسبب تمكنه من أسر حوالى ألف من التتار واستيلائه على عشرة آلاف فرس منهم (٦) .

وحتى تتم استعدادات السلطان برقوق عمد إلى علاج الموقف بالحيلة والدهاء ، ذلك أنه حين بدا الموقف خطيراً بسبب قلة أعداد الجراكسة بالنسبة للترك فى سورية أخذ يتودد إلى يلبغا الناصرى وبعث إليه بهدية من جملتها « خيول عربية وكنابيش وأطرزة

---

(١) أصل الطنبغا الجوبانى من اليلبغاوية — وثق به برقوق وجعله أمير مجلس ومعناه صاحب الشورى فى الدولة — راجع ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٧٧ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٩٤ .

(٣) راجع ابن دقماق : الجوهر الثمين مجلد ٢ ورقة ١٨٣ (النسخة المصورة) .

(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٩٠ .

زركش ، وبعث مع الهدية كتاباً استدعاه فيه للحضور إلى مصر للتشاور فى أمر منطاش(١) . غير أن يلبغا حين وصله رسول السلطان أبلغه شكره على هديته ، ولكنه خشية أن يفعل به ما فعله بالأمراء الترك من قبل ، كتب إلى السلطان يعتذر عن الحضور بحجة انشغاله فى مقاومة حركتى التركمان ومنطاش ؛ وخوفه على حلب منهما (٢) ، وبعث يلبغا الناصرى برده على يد رسول من عنده . ولكن رغبته فى الانتقام من السلطان برقوق دفعته إلى الكتابة سراً إلى أمراء مصر يحضهم على الثورة على السلطان برقوق ، كما طلب من رسوله أن يكشف له فى أثناء وجوده بالقاهرة عما دبره السلطان له ولإخوانه الترك من المكائد(٣) .

وبرغم أن السلطان برقوق أظهر قبولاً لكتاب يلبغا الناصرى إلا أن خوفه من مكائد يلبغا الناصرى وتوقع انضمامه إلى منطاش دفعاه إلى التدبير عليه مع خاصكيته ، الذين كسب ودهم بشربه القمز بالميدان معهم يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع (٤) ؛ حتى اقتضى رأى الجميع إرسال الأمير ملكتمر الدوادار مرة أخرى إلى حلب بحيلة دبروها ؛ ظاهرها مطالبة يلبغا الناصرى بصلح سودون المظفرى بحضور ملكتمر والأمراء والقضاة والأعيان وأن يلبسا خلعتى السلطان بعد الصلح . ولكن وراء هذا الصلح كانت خيوط المؤامرة التى دبرها السلطان مع خاصكيته ، وذلك أن السلطان أدرك صعوبة الصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى ، لما بينهما من عداء مستحكم . فكتب السلطان إلى سودون المظفرى وبعض أمراء حلب بالقبض على الناصرى وقتله فى أثناء اجتماع الصلح (٥) وتعمد السلطان أن يؤخر رسول الناصرى عنده حتى يسبقه دوداره ملكتمر إلى حلب ، بيد أن يقظة رسول الناصرى مكنته من أن يلم بتفاصيل مؤامرة السلطان . وحين أزمع رسول يلبغا السفر جد فى السير إلى حلب حتى سبق ملكتمر ، وأطلع أستاذه على تفاصيل المؤامرة ، فاحتاط الناصرى للأمر (٦) .

---

(١) راجع العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٢ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٩ .

(٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٣٤ — روى ابن الفرات أنه رأى بخط بعض المؤرخين أن الأمير ملكتمر الدوادار كانت بينه وبين الشيخ حسن رأس نوبة الأمير يلبغا الناصرى مصاهرة ، فلما بعثه السلطان برقوق بالكتب أخبر الشيخ حسن بما أبطنه — راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٢ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

وحين وصل مندوب السلطان إلى حلب أول صفر سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م خرج الأمير يلبغا الناصرى واستقبله مظهراً الطاعة للسلطان ، وبعد أن أخذ منه هدايا السلطان عاد به إلى دار السعادة بحلب (١) ، حيث اجتمع الأمراء والفقهاء وغيرهم من أمراء حلب لسماع كتاب السلطان . وبعد أن قرىء الكتاب أرسل الناصرى إلى سودون المظفرى يطلب منه الحضور للصلح ، ولكن سودون تلكأ بسبب قلة مماليكه عن أتباع الناصرى . وإزاء إلحاح الناصرى عليه بالحضور ، حضر سودون لابساً عدة الحرب تحت ملابسه خشية غدر الناصرى ، ثم دخل سودون إلى دهليز دار السعادة حيث وقف قازان البرقشى أمير آخور الناصرى ، وتقدم قازان ولمس كتف سودون ، فوجد السلاح تحت ملابسه ، وعندئذ انبرى قازان يؤنب سودون بقوله : « يا أمير ! الذى يجىء للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب ؟ » (٢) فسبّه سودون حتى سلّ قازان سيفه وضربه . ثم أخذت سودون المظفرى السيوف من كل جانب من مماليك الناصرى الذين رتبهم لهذا الأمر . وتبع هذا معركة بين مماليك سودون ومماليك الناصرى انتهت بهزيمة مماليك سودون (٣) .

وهكذا كشف يلبغا الناصرى عن موقف السلطان برقوق ونواياه إزاءه وإزاء المماليك الترك . وبدأ يلبغا الناصرى منذ ئذ يواجه السلطان علناً ، فاجتمع بالأمراء الترك وقرروا خلع السلطان برقوق (٤) . كما قبض يلبغا على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة حلب بعد صراع طويل مع نائبها (٥) . ودخل فى طاعته أهل حلب وأمراؤها وعسكرها وبعض التركمان والعرب (٦) ، ثم عمل يلبغا على توحيد جبهة الترك ، فكتب إلى منطاش يدعوه إلى محالفته ، وصادفت هذه الدعوى هوى فى نفس منطاش فقدم عليه بعد أيام قليلة ودخل فى طاعته (٧) . وهكذا أدت الحادثة إلى اتحاد المماليك الترك فى فرقة الأشرفية مع المماليك الترك اليلبغاوية وأنذرت بالتالى بسوء مصير سلطنة برقوق .

ولم يكن فى وسع السلطان برقوق حين وصلته هذه الأخبار السيئة سوى الاعتماد

---

(١) دار السعادة هى دار الحكومة التى يقيم فيها الوالى والحاكم ومنها يدير شئون الحكم .
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٠١ .
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٨٥ .
(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ قسم ١ ص ٥٣ .
(٦) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٧) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٤١ .

على الجراكسة وجمع شملهم لمواجهة الترك ، كما كتب إلى الأمير اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق تقليداً بنيابة حلب ، وأمره بالقبض على الناصرى (١) . غير أن اينال تغلبت عليه الأثرة ، فتذكر موقف برقوق منه حين اعتقله من قبل ولم يسارع إلى تنفيذ أوامره .

وفى التاسع من صفر سنة٧٩١ هـ (سنة ١٣٨٩م) تحرج موقف برقوق، فاستدعى قضاة القضاة وأعيان الدولة وأمراءها وشاورهم فى أمر عصيان الناصرى ، وعرض عليهم أن يخرج لقتاله ، ولكنهم أجمعوا على أن يجهز السلطان العسكر ويرسل لقتال الناصرى من يقوم على رأسه مقامه من الأمراء الذين يثق بهم (٢) . وتردد السلطان كثيراً فى قبول ما أشار به الأمراء . ويبدو أن هذه النصيحة لم تكن خالصة كما أن السلطان لم يرغب فى أن يرسل غالبية العسكر إلى سورية ويبقى فى القاهرة بعدد قليل ، ولهذا تودد إلى الأمراء كثيراً، واجتمع بهم عدة مرات بالقصر الأبلق وحلفهم على طاعته (٣) .

وظل الموقف مائعاً حتى بدا السلطان برقوق فى مركز لايحسد عليه حين جاءت الأخبار من دمشق بأن الأمير قرابغا فرج الله ، والأمير نزلار العمرى الناصرى ، والأمير دمرداش اليوسفى ، والأمير كتبغا الخاصكى الأشرفى اجتمعوا بعدد كبير من المماليك الأشرفية الترك فى سورية (٤) وهاجموا طرابلس ، وبعد أن قتلوا نائبها الأمير استدمر المحمدى ، دخلوا المدينة وقبضوا على عدد كبير من أمرائها الموالين للسلطان برقوق (٥) . وفضلاً عن هذا أعلن يلبغا الناصرى فى حلب نبأ خلع السلطان برقوق وسلطنة الخليفة المتوكل على الله ، وبعث يلبغا الناصرى بهذا الإعلان إلى نواب القلاع الشمالية الذين أسرعوا بإعلان تأييدهم له (٦) .

وأصبح لهذه الخطوة أسوأ الأثر على السلطان برقوق إذ جعلته يتخبط فى سياسته ، فلم تكد تمضى عدة أيام على صلحه مع الخليفة المتوكل وإعادته إلى الخلافة فى ٥ من ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ (٧) حتى عاد فسجنه بالبرج بالقلعة وضيق عليه ومنع غلمانه وأصحابه

---

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٦ .
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ أ
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٠ .
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٢٥٩ .
(٦) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٣٦ .
(٧) الهيثمى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣١ ب .

من الدخول إليه . ودفع برقوق إلى هذا الإجراء الخاطئ أنه خشى أن يرسل الناصرى إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه فترجح كفته (١) . ويبدو أن السلطان برقوق عاد فاقتنع برأى بعض خلصائه فى خطورة هذا الإجراء وخاصة بعد أن انتهز الناصرى فرصة حبس الخليفة واتخذ ذلك وسيلة يثير بها خواطر الناس على السلطان (٢) ، فاضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة المتوكل مرة أخرى . ومع أن السلطان برقوق استرضاه بعشرة آلاف درهم ومنحه أكياساً مملوءة بقماش من الصوف (٣) ، إلا أنه حدد إقامته بالقلعة وراقب حركاته وسكناته (٤) .

وفى العاشر من ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ يونيو سنة ١٣٨٩ م تواترت الأنباء بدخول سائر المدن السورية — فيما عدا قلعة دمشق وبعلبك والكرك — فى طاعة يلبغا الناصرى . وزاد الطين بلة أن انضم إلى الترك سولى بن دلغادر التركمانى ونعير بن حيار أمير عرب آل فضل وشاركا يلبغا الناصرى ومنطاش فى الدعوة إلى نصر الخليفة (٥) ، ولم يجد السلطان برقوق بداً من تجريد عدد من أمرائه ، ساروا فى خمسمائة من مماليكه لقتال الناصرى (٦) . غير أن هذا العدد لم يكن كافياً لقتال أعداء السلطان فى سورية ؛ ولكن حرص السلطان برقوق على ضبط الأمور فى العاصمة جعله يحتفظ بأكبر عدد من الجراكسة بالقاهرة . وفى ١٤ من ربيع الأول سنة ٧٩١ (٧) رسم بخروج التجريدة بقيادة ايتمش البجاسى ، وأغدق السلطان برقوق عليهم الكثير من النفقات . وبرغم أن العساكر خرجت فى تجمل زائد واحتفال عظيم فإن القاهرة المضطربة وقتذاك لم تتأثر لذهابهم كما كانت العادة عند خروج العساكر للقتال مما دفع السلطان برقوق إلى استجلاب خواطر الناس فأبطل الرمايات والسلف على البرسيم والشعير كما أبطل مكوس البصل والقلقاس .

وحين وصل عسكر السلطان برقوق إلى غزة قبض الأمير جركس الخليلى أمير آخور السلطان على نائبها الأمير ابغا الصفوى التركى وسجنه بالكرك ، وأقر فى نيابة

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ أ .
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ ب .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٥) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٦ — آل فضل قبيلة عربية على مقربة من دمشق .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦١—٢٦٢ .
(٧) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧١ .

غزة الأمير حسام الدين بن باكيش (١) . ثم تشجع جاركس وتقدم شمالاً ، وهناك أعلن قرا محمد التركمانى رغبته فى الانضمام إلى جانب السلطان كما أرسل مجد الدين عيسى صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يستأذنه فى محاربة الناصرى . وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق لم يرغب فى تدخل التركمان أو صاحب ماردين فى هذا الأمر خشية أن يزداد نفوذ هم فى سورية ، ولهذا اكتفى بإجابتهم بالشكر والثناء ، وأنه « ادخرهم لما هو أهم من ذلك » (٢) . ثم دخلت عساكر السلطان دمشق فتلقاهم نائبها حسام الدين طرنطاى ، غير أنهم بدلاً من أن يستعدوا لمواجهة العدو حسبوا أنهم فى نزهة عسكرية فأقبلوا على الفساد بدمشق وشغلوا باللهو والمجون فيها حتى « سئمهم الناس ، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفى مرسلهم » (٣) .

وانتهز يلبغا الناصرى ومنطاش فرصة انشغال عساكر السلطان بمجونهم فى دمشق وتقدما بالمماليك الترك فى ٢١ من ربيع الآخر سنة ٧٩١ يوليو سنة ١٣٨٩م لحصار دمشق. فخرج عسكر السلطان من دمشق إلى برزة (٤) ، وحين التقى عسكر برقوق بالترك عند خان لاجين نشب قتال شديد ثبت فيه كل من الفريقين مكانه . ثم حمل عسكر السلطان مرة أخرى على الترك واضطروهم للتراجع ، واعتقد الجراكسة أنهم هزموا الترك ، بيد أن يلبغا الناصرى عاد فجأة وانقض على الجراكسة وتمكن أحد مماليكه وهو يلبغا الزينى الأعور من قتل الأمير جاركس الخليلى أهم قائد فى جيش السلطان برقوق (٥) .

ولاشك أن هزيمة جيش برقوق تعزى إلى قلة عدده إذ أنه على حين بلغ عدد أفراده نحو الخمسمائة ، كان الترك يعدون بالآلاف فضلاً عمن انضم إليهم من التركمان والعرب (٦) . واستطاع يلبغا الناصرى بمعاونتهم تمزيق جيش الجراكسة حتى تفرق قواده وتمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها والقبض على الأمير ايتمش البجاسى وسجنه مع عدد كبير من الأمراء الجراكسة فى قلعة دمشق (٧) .

ولواقعة دمشق هذه نتيجتان سيئتان بالنسبة لبلاد السلطنة المملوكية الثانية ، أولاهما

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٣٧ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧١ .
(٤) برزه : قرية من غوطة دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام جـ ٢ ورقة ٣٧ .
(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٨٥ .
(٧) السيوطى : تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٧ أ .

أنها تركت الفرصة أمام التركمان والعرب لنهب دمشق ، وثانيتهما اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر حين وصل خبر هزيمة العسكر السلطانى على هذا النحو، إذ طغى أهل الفساد وأغلقت الأسواق فى وقت انتشر فيه الطاعون (١) . وساء مركز السلطان برقوق فأسرع وجمع الأمراء لمناقشة أسباب الهزيمة وعزا الأمراء أسبابها إلى قلة عدد العساكر فى التجريدة السابقة عن عساكر منطاش والناصرى ، واتفقوا على ضرورة خروج تجريدة أخرى لاتقل عن ألف وأربعمائة مملوك (٢) .

وعلى حين أخذ السلطان برقوق يعد لهذه التجريدة الجديدة وصله نبأ يفيد أن الناصرى قبض على اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق ، وأن اينال اليوسفى اضطر لينجو بحياته إلى العمل مع جيش الناصرى . وتقدم الترك ومعهم اينال والناصرى للاستيلاء على مدينتى غزة والرملة (٣) . ولم تكن لدى السلطان فى هذه الظروف السيئة من حيلة إلا أن يجتمع مرة أخرى بالخليفة والقضاة والأمراء والأعيان ويحلفهم على الموالاة وإسداء النصح ، كما أظهر احترامه الزائد للخليفة ، واسترضاه بما خلعه عليه وما أعاد له من إقطاعاته ورواتبه التى قطعت من قبل(٤) .

وبرغم هذا كله فإن خسارة السلطان فى معركة دمشق –التى عرفت بمعركة الخمسمائة– (٥) كانت فادحة إذ فقد شخصيتين من أخلص الشخصيات الجركسية هما جاركس الخليلى ، ويونس الدوادار (٦) ؛ وتحرج مركزه وخشى انتقام العامة ؛ ولهذا أمر بإبطال سائر المكوس من ديار مصر وأعمالها ، كما طلب من الخليفة المتوكل أن يركب فى شوارع القاهرة ومعه الأمير سودون الشيخونى النائب والقضاة وشيخ الإسلام وأن ينادى فى الناس « أن السلطان قد أزال المكوس والمظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله وطاعته وإنا قد سألنا العدو الباغى فى الصلح فأبى وقد قوى أمره ، فأغلقوا دوركم ، وأقيموا الدروب على الحارات ، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم (٧) » . غير أنه لم يكن لهذا النداء أية قيمة فى اجتذاب العامة إلى جانب السلطان برقوق ، لأن السلطان عاد فعدل

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠ أ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦٦ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠ أ .
(٤) نفس المرجع ورقة ٢٠ ب ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٠٤ .
(٥) عرفت بمعركة الخمسمائة لأن السلطان قاتل فيها بخمسمائة من العساكر – راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦٩ .
(٦) انظر السيوطى : تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٧ أ .
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦٩–٢٧٠ .

عن قراره وألزم مباشرى جهات المكس بمطالبة الباعة بمكس ما بيع (١) ، مما أضعف ثقة الناس بسلطانهم وما يصدر عنه من قرارات (٢) . والظاهر أن السلطان برقوق عدل عن قراره هذا بسبب حاجته الشديدة إلى المال ، فوقع هذا العبء على الناس وقعاً سيئاً حتى أخذوا فى الهروب من القاهرة والانضمام لجيش الناصرى والعمل على التخلص من حكم برقوق . أما من بقى من الناس بالقاهرة فلم تكن لديهم من حيلة آنئذ سوى « عمل الدروب وجمع الأقوات والاستعداد للقتال والحصار(٣) »فى وقت تجمع فيه الزعر ينتظرون قيام الفتنة لنهب الناس الذين يئسوا من قدرة عساكر السلطان على حمايتهم .

وإزاء هذا الشعور الذى لمسه السلطان برقوق من العامة رأى أن يستعين فى كفاحه مع الترك بعرب هوارة وعرب الوجه البحرى (٤) ، واعتمد على مماليكه فى حفر خندق حول القلعة ، وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل ، كما نقل إلى القلعة الكثير من الأقوات والمجانيق والمكاحل وغيرها من عدد الحرب وآلات الحصار ، ثم أمر سكان القاهرة بأن يدخروا قوتهم لشهرين استعداداً للحصار . وبعد أن تمت استعدادته أمر بالعمل على سد أبواب القاهرة (٥) .

على أن سوء الحظ لازم السلطان برقوق فى هذه الآونة إذ تبع هذه الاستعدادات سوء الحالة الاقتصادية فارتفعت الأثمان ، لحاجة السلطان المستمرة إلى أدوات الحرب حتى إنه أمر فنودى « بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر (٦) » . أما باقى آلات الحرب من الخوذ والقراقلات والسيوف فطلبها بثمن مرتفع جداً (٧) . وبرغم ما أنفقه السلطان برقوق على مماليكه من المال والخيول الكثيرة واضطراره إلى توزيع خيله الخاص على الأمراء والأجناد فإن اليأس أحاط به ، حتى أخذ يحرض مماليكه على القتال معه تارة بالمال وتارة بالبكاء ، ثم استعان بالخليفة والقضاة للدعاية له بالنصر بمسجد أثر النبى ، كما أعطى الأمير اقبغا الماردينى حاجب الحجاب مبلغاً كبيراً من المال ليوزعه على الزعر الذين عظم أمرهم حتى صارت الشوارع

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥١٢ .
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٧٠ .
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٧٣ .
(٧) نفس المرجع والجزء والصفحة .

على قول ابن تغرى بردى: « مشحونة بالخيول والفرسان شاهرين آلات الحرب ، ثم بطل الحكم فى القاهرة وصار الأمر فيها لمن غلب وتعطلت الأسواق وارتفعت الأسعار وأكثر الناس من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك خشية الحصار »(١) ، والخلاصة أن الأحوال ساءت فى داخل القاهرة ولم ينقذ برقوق من ثورة العامة عليه سوى انتشار الطاعون حتى قيل إن الناس لم يستطيعوا دفن موتاهم (٢) .

أما يلبغا الناصرى فإنه سار من غزة إلى قطية(٣) فى٢٨من جمادى الأولى سنة٧٩١هـ (أغسطس سنة ١٣٨٩ م)وانضم إلى جيشه جماعة كبيرة من المماليك الجراكسة الذين هددهم الناصرى بسحب إقطاعاتهم وقتلهم إن تأخروا عن الانضمام إليه (٤) . وفى قطية وجد الناصرى بعض جواسيس برقوق فعاقبهم (٥) ، ثم ماكاد خبر وصول الناصرى إلى قطية يصل إلى القاهرة حتى فر من أمراء مصر جماعة كبيرة لتنضم إليه ، وتدلنا هذه الأحداث على ما وصل إليه بعض الأمراء الجراكسة آنئذ من الجبن وعدم الإخلاص حتى إن هؤلاء الأمراء أطلعوا يلبغا الناصرى على موقف السلطان برقوق السيئ مما شجع الناصرى ودفعه إلى التقدم بسرعة نحو القاهرة . وحين وصل يلبغا الصالحية ، قدم له محمد بن عيسى أمير عرب العائد كل معونة سواء من المال أو الرجال ، وسار يلبغا الناصرى بمن اجتمع لديه قاصداً القاهرة (٦) .

أما السلطان برقوق ، فإنه بعد أن نصب السناجق السلطانية على أبراج القلعة ، أمر فدقت الكئوسات الحربية ، ثم ركب مع الخليفة فى مقدمة العساكر ، واجتمع حول السلطان عدد كبير من العامة استطاع السلطان برقوق اجتذابهم إليه ببكائه حتى إنهم بكوا إشفاقاً لحاله (٧) .

وعندما أشرف الناصرى على المرج أسرع برقوق وأغلق أبواب القاهرة كلها ماعدا باب زويلة ، غير أنه لم يستطع السيطرة على الأمن داخل المدينة ؛ بسبب فرار

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .
(٣) قطية قرية فى الطريق بين مصر والشام قرب الفرما وكان بها مكان أخذ المكس من الوافدين على مصر . راجع رمزى : القاموس الجغرافى ص ٤٢ .
(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٧٧ .
(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥١٣ . (مخطوطة)

واليها حسام الدين بن الكورانى واختفائه خوفاً من انتقام الزعر ، الذين انتشروا ينهبون في أنحاء المدينة .

والواقع ، أن تردد السلطان برقوق وانتظاره مجيء عدوه ووقوفه موقفاً دفاعياً فقط أضاع عليه الفرصة ، حتى إن من بقى معه من مماليكه بدءوا يتسللون للانضمام إلى يلبغا الناصرى برغم ما أنفقه السلطان عليهم (١) . ويبدو أن تسللهم عن طريق باب زويلة هو الذى دفع السلطان إلى إغلاقه ، وبذا أصبح محصوراً فى داخل القاهرة . وزاد فى ضعف مركز السلطان برقوق أن أعداء دولته من المماليك الترك المسجونين بخزانة شمائل وحبس الديلم والرحبة قطعوا قيودهم ، وكسروا أبواب الحبس ، وخرجوا ليعيثوا فى القاهرة فساداً . ولم تفلح جهود المماليك الجراكسة الذين بقوا على إخلاصهم لبرقوق فى منع العامة من التوجه إلى الناصرى بل إن العامة رجموهم بالحجارة ، واضطر الجراكسة إلى الدفاع عن أنفسهم برمى العامة بالنشاب حتى اضطربت القاهرة بصراع داخلى مرير (٢) .

وفى يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ — سنة ١٣٨٩م أقبلت طليعة الناصرى « كأنها الموت الأحمر » (٣) مع عدة من أعيان الأمراء ومن أصحابه ، فبرز إليهم الأمير قجماس ابن عم السلطان فى جماعة كبيرة ، وأخذ فى قتالهم وعاونه المماليك الذين فى القلعة بالهجوم على الترك بالمدافع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليع وهم يكرون ويفرون . والواقع أن باقى الجراكسة ثبتوا ثباتاً راسخاً ، غير أنهم حين أدركوا قوة الناصرى وخطورة موقفهم بدءوا فى التسلل للانضمام إليه (٤) ، حتى إن السلطان برقوق يئس وعرض على من بقى معه من الأمراء أن يسلم نفسه (٥) ، ولكنهم أعلنوا أنهم لا يسلمون أرواحهم ولا يموتون إلا على ظهور خيولهم (٦) ، غير أنه لما لم تفلح جهود الأمير بطا الظاهرى أحد كبار الأمراء الجراكسة المتحمسين ، وأيقن السلطان برقوق قرب نهايته ، أرسل النمجاه إلى الناصرى وعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته ، فكتب له الناصرى أماناً .

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .
(٢) نفس المرجع ورقه ٢١ ب ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢١٣ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ ب .
(٤) المقريزى . السلوك جـ ٣ ص ٥٢٠ — ٥٢١ .
(٥) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٤ ب .
(٦) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٣ .

والظاهر أن الناصرى حرص على احترام هذا الأمان والإبقاء على السلطان برقوق لعاملين ، أولهما أن السلطان نفسه لم يحاول قتل يلبغا الناصرى من قبل مع كثرة أخطائه ، وثانيهما أنه لم يكن من السهل القضاء على السلطان برقوق دون أن يتعرض الناصرى لانتقام الجراكسة . ولهذا أوصى يلبغا الناصرى حاملى الأمان أن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخمد الفتنة ويدبر له أمراً (١) .

وهكذا اختفى السلطان برقوق ، ودخل الناصرى وصحبه منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله فى قبة النصر (٢) ، وأخذوا فى الاتفاق على تدبير أمور الدولة فيما بينهم . على أن هذه الفتنة جعلت القاهرة تعانى أشد أنواع الاضطراب ؛ إذ عاد الزعر إلى النهب واشترك معهم التركمان من أصحاب يلبغا الناصرى فى الهجوم على بيوت الأمراء وحواصلهم ونهبها وتخريبها . ولم تسلم منازل الناس خارج القاهرة — مع ما بذلوه فى المقاومة والدفاع — من النهب والسلب . ونهب الترك والتركمان الاصطبل السلطانى ؛ فأخذوا ما فيه من الخيول والشعير حتى قيل : إنهم نهبوا ألفين ومائتى إردب شعيرا ،ونهبوا من الدراهم مائتى ألف درهم(٣)، ونهبوا من الميدان ألف رأس غنم . وظلت أحوال القاهرة مضطربة مع أن الناصرى عين الأمير محمد بن الحسام استادار أرغون والى البهنسا واليا على القاهرة (٤) ، فركب ابن الحسام فرسه من باب الفتوح ، ودخل جامع الحاكم ، واجتمع بعدد كبير من عسكر الناصرى ، وطلب منهم أن يمتنعوا عن النهب ، غير أن نداءه لم يكن مجديا إذ استمر الترك فى النهب وقتال العامة حتى اضطر الناصرى إلى الاستعانة باثنين من رجاله هما سيد بن أبى بكر أمير حاجب ، وتنكزبغا رأس نوبه لحفظ الأمن بالقاهرة ومصر ، فأمر فنودى بالأمان والاطمئنان وأن «من نهب شيئا فلا يلومن إلا نفسه ، حتى كف أذى المفسدين وسكن الحال» (٥) .

والواقع أن هذه الحركة تمثل رد الفعل الذى حدث نتيجة اعتلاء واحد من الجراكسة عرش السلطنة واتجاهه إلى جركسة الدولة فى وقت لم يكن تجمع لديه عدد كبير من الجراكسة يمكنه بواسطتهم مواجهة الترك بإعدادهم الكثيرة . ولهذا فلا عجب أن اتجه يلبغا الناصرى ومنطاش الأشرفى إلى إعادة السلطنة إلى بيت قلاون والعمل على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٢٨٦ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ أ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .
(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ ب .

إعادة الترك إلى مراكزهم التي أقصاهم عنها برقوق ، فاجتمع الناصرى بأمرائه والأعيان والخليفة والقضاة ، ونصب للخليفة خيمة عظيمة ، وللقضاة أخرى ، وأخذ رأى كل منهم على حدة فيمن ينصب سلطانا بعد الظاهر برقوق . ورغم أنهم أجمعوا على سلطنة الناصرى باعتباره صاحب أكبر نفوذ آنذاك ، فإن الناصرى امتنع عن ذلك أشد الامتناع ، ذلك أنه أدرك أن سلطنته ستواجه حملات المماليك الأشرفية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة . ولهذا استقر الرأى على إعادة الملك الصالح أمير حاجى ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة . فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على تخت الملك (١) فى يوم ١٠ من جمادى الآخر سنة ٧٩١ هـ .

وهكذا خُلع السلطان الظاهر برقوق الذى استطاع أن يرتقى من صفوف الجند إلى وظيفة أمير آخور دفعة واحدة ، وأخذ يتطلع إلى الأتابكية حتى نالها ، وظل يشغلها حوالى خمس سنوات رسم خلالها خطة القضاء على سلطنة بيت قلاون وأكثر من شراء المماليك من العنصر الجركسى حتى بلغ ما اشتراه فى هذه الفترة منهم نحو ألفى مملوك(٢) ، قدمهم على الترك والروم (٣) ، مما أدى إلى ثورة الترك عليه وإعادة السلطنة إلى بيت قلاون .

وامتاز برقوق فى سلطنته الأولى التى استمرت ست سنوات وثمانية أشهر بالحزم والهيبة وحبه لأهل الخير والعلم ، حتى قيل إنه إذا أتاه واحد من العلماء قام إليه ، على حين لم يعرف أحد قبله من سلاطين الدولة الأولى يقوم لفقيه ، وقلما كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده ، كما يذكر له بالفضل اتجاهه نحو نشر العلم وبنائه المدرسة الظاهرية (٤) بين القصرين . غير أنه يؤخذ على سياسته فى هذه الفترة انصرافه إلى جمع المال دون اهتمامه بأحوال الرعية فى وقت انتشرت فيه الرشوة دون أن يتمكن من مقاومتها ، حتى أصبح لا يصل الواحد إلى وظيفة أو عمل إلا بمال يبذله مما أفسد الأحوال . ورغم دهائه الخارق فإنه يؤخذ عليه اعتماده على «أسافل الناس وحط ذوى البيوتات» (٥) مما عجل بنهاية حكمه .

دعى أمير حاجى فى سلطنته الثانية بالسلطان المنصور وتقدم الأمراء على عادتهم

---

(١) ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٩٦ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٢٣ .
(٣) ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٩٨ .
(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٦ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٩١ .

وقبلوا الأرض بين يديه ، ودقت الكوسات وهو فى طريقة إلى القصر وسائر أعيان الدولة بين يديه (١) . ومن الطبيعى ألا تكون له من السلطنة سوى اسمها بعد أن عاد عصر الأمراء وتولى الناصرى منصب الأتابكية ، وسكن الاصطبل السلطانى ، وشغل منطاش وظيفة أمير مجلس .

وبدأ الأمير يلبغا الناصرى فى تنظيم الأمور الداخلية ، فأمر بمنع التركمان وغيرهم من الدخول إلى السلطان . وعين من يطمئن إليه من الأمراء فى خدمته (٢) ، وكتب مرسوما على لسان السلطان والخليفة بالإفراج عن الأمراء الترك المسجونين بها ، وعلى رأسهم الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس ، ثم عين الناصرى من الترك نوابا فى الشام ، وأمرهم بالتوجه فوراً إلى نياباتهم (٣) . غير أن الأمير يلبغا الناصرى لم يعد يأمن على نفسه من المماليك الجراكسة ، فأخذ فى تتبعهم وأمر بأن ينادى فى القاهرة بأن «من ظهر من المماليك الظاهرية فهو باق على إقطاعه ومن اختفى منهم بعد النداء حل ماله ودمه للسلطان » (٤) ولم يكن هذا النداء سوى وسيلة للقبض على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ونفيهم ، أو سجنهم ، أو توزيعهم على أمراء سوريا (٥) .

غير أن الأيام القليلة التى حكمها الناصرى أثبتت سوء سياسته وفساد تدبيره ، وحملت سياسة الناصرى فى ثناياها العوامل التى عجلت بحكم الترك ، وأول هذه العوامل أن الناصرى أبقى على عدد من الجراكسة الذين اطمأن إليهم ، مما خلف له عنصراً ثورياً يظهر نشاطه عندما تسنح الفرص ، وثانيهما أن عدم استقرار الأمراء الترك على سياسة واضحة أدى إلى ارتباك أمورهم ، ذلك أن الأشرفية اختلفوا مع اليلبغاوية وقامت بينهم الشحناء بسبب النزاع على توزيع الإقطاعات التى انتقلت إليهم نتيجة نفى عدد كبير من الجراكسة أو وفاتهم (٦) ، ثم إن حالة العنف والتهديد التى دأب عليها الناصرى مع العامة مع عجزه عن مقاومة أصحابه من التركمان الذين أخذوا النساء من الحمامات والطرقات دون أن يجرؤ أحد على منعهم ، أدى هذا كله إلى كراهية العامة لحكم الناصرى ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه أعاد المكوس التى أبطلها الظاهر برقوق ، أدركنا

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٣ أ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٢٠ .
(٥) راجع العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٨ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٣٢٦ .

سبب ترديد العامة لهذا القول «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصرى وثيرانه» (١) .

وثمة مظهر آخر لسوء سياسة الناصرى أنه عاد يخشى أن يؤدى اختفاء السلطان برقوق إلى ثورة داخلية ؛ ولهذا أمر بأن ينادى بالقاهرة بالبحث عنه ، وخصص مكافأة لمن يعثر عليه ، وهدد من يخفيه بالقتل حتى أبلغت زوجة مملوك — كان والى القاهرة السابق قد عاقبها — أنه فى بيت رجل خياط يدعى أبا يزيد الخازن، فأرسل إليه الطنبغا الجوبانى لاعتقاله . والواقع أن شخصية برقوق كانت جديرة باحترام أعدائه حتى فى هذه الظروف بدليل أن السلطان برقوق حين رأى الطنبغا الجوبانى أراد تقبيل يده فاستنكر الطنبغا الجوبانى هذا العمل ومنعه (٢) ، بل إنه ألبس السلطان برقوق ملابسه وعمم رأسه وطيلس وجهه وأركبه فرسا شق الصليبة فى وسط النهار ، والواقع أيضا أن سياسة الناصرى غيرت شعور الناس سريعاً نحو السلطان برقوق فانقلبوا على الناصرى ، ومالوا إلى برقوق ، وبدا ندمهم على زوال حكمه واضحا ، فأخذوا يبكون ويدعون له بالنصر على طول الطريق ، حتى صعد السلطان إلى الناصرى فى الاصطبل ، فأمر الناصرى باعتقاله فى قاعة الفضة بالقلعة ، وهناك صفد بقيد ثقيل وأجريت عليه كفايته من الطعام والشراب (٣) .

ثم عقد الناصرى فى ١٦ من جمادى الأخرى سنة ٧٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٣٨٩ م) جلسة للمشاورة فى شأن السلطان المعزول فانقسم الأمراء حياله فريقين ، نادى الفريق الأول بقتله ، وتزعم هذا الفريق الأمير منطاش (٤) ، على حين نادى الفريق الثانى بحبسه ، وصاحب هذه الفكرة هو الناصرى الذى أخذ بها فيما يبدو لعاملين ؛ أولهما خوفه من ثورة مماليك برقوق الذين أبقى عليهم وضمهم إليه ، وثانيهما أن بقاء برقوق فى الحبس يجعله شجا فى حلق منطاش إذا فكر منطاش فى الثورة على يلبغا (٥) . ولهذا أرسله الناصرى إلى الكرك فى ١٩ من جمادى الآخر سنة ٧٩١ هـ — سنة ١٣٨٩ م (٦) بعد أن عين الأمير حسن الكجكنى نائبا للكرك وأوصاه يلبغا الناصرى بالعناية بالسلطان برقوق والمحافظة عليه ، واتفق معه كذلك على أنه إذا ثار منطاش على يلبغا يفرج عن السلطان برقوق (٧) .

(١) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٣ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٤ أ .
(٤) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١ .
(٥) Muir : The Mamluk Dynasty p. 107
(٦) العسقلانى : الدرر الكامنه جـ ٤ ص ٤٤١ .
(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٣٧ .

وسافر مع السلطان برقوق إلى الكرك الأمير الطنبغا الجوبانى وثلاثة من صغار مماليكه . وأنزل حسن الكجكنى السلطان برقوق بقاعة النحاس فى قلعة الكرك ، وجعل فى خدمته ابنة أستاذه يلبغا العمرى الكبير ، وهى زوجة مأمور القلمطاوى المعزول عن نيابة الكرك « فصارت تخدمه وتطبخ له الأطعمة الملونة » (١).

وبلغ من سوء تدبير الناصرى أنه اعتقد أن حبس السلطان برقوق يمكن أن يضعف شأن الجراكسة ، وبالتالى يمكنه من إعادة نفوذ الترك . فأقدم على خطوة خبيثه إذ أمر الجراكسة الذين أبقاهم معه بالقاهرة بالتوجه فوراً إلى سوريا للخدمة عند نوابها وهدد من بقى منهم بمصر بسفك دمه (٢) . وأدت هذه الحركة إلى الحط من شأن عدد كبير من الجراكسة الذين شغلوا مناصب الإمارة وقتذاك ولا سيما أن يلبغا الناصرى طرد معظم المماليك الجراكسة الذين عملوا فى خدمة السلطان حاجى ، ولم يبق للسلطان منهم سوى مائة (٣) .

على أن سوء تدبير الناصرى لم يكن فى مظهر هذه الخطوة ولكن فيما نتج عنها من آثار إذ أن تشتيت الجراكسة فى سورية مع حرمانهم مما كانوا فيه من رغد العيش ، خدم السلطان برقوق الذى بدأ يتطلع من منفاه إلى مماليكه فى سوريا لمعاونته على إعادة سلطنته . وفضلاً عن هذا فإن الناصرى فقد عدداً كبيراً من أنصاره التركمان الذين طردهم ليخلص مصر من مساوئهم وعبثهم (٤) .

وثمة عامل هام – يتعلق بسياسة الناصرى – أدى إلى انقسام صفوف الترك وقيام النزاع الحزبى بينهم وهو أن الناصرى بحكم إقامته فى القلعة استأثر بكافة النفوذ دون منطاش الذى أقام فى جامع السلطان حسن (٥) ، كما رفع يلبغا الناصرى شأن أمرائه دون غيرهم حين وزع المثالات (٦) عليهم وجعل وظائف مقدمى الألوف الأربعة

(١) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ أ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٣٨ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٥ أ ، ب .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٢٩ .
(٥) Ency. OF Islam, Art Barkuk.
(٦) المثالات جمع مثال وهو عبارة عن ورقة أو وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبين فيها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض التى خصصت له راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨٧ .

وعشرين مقصورة عليهم ، وسعى لتحويل أنظار الشعب إليه حين جلس للنظر فى المظالم وأمر بأن ينادى بالقاهرة : بأن من ظُلم من مدة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصرى ليأخذ حقه (١) . وانعكس أثر هذه السياسة فى نفس منطاش وفى نفوس أتباعه الذين بدءوا يحسون بأن الأمر كله أصبح بيد الناصرى وأمرائه ، كما شعر منطاش كذلك بتطفله على الجوبانى وحضوره مائدته بعد أن أفرج الناصرى عن الجوبانى وأصبح أمير مجلس (٢) . ولذا عزم منطاش على الانتقام من يلبغا فقرر يلبغا التخلص منه .

وبدأت بوادر النزاع بين يلبغا الناصرى وبين منطاش فى ١٦ من شعبان سنة ٧٩١ هـ (سنة ١٣٨٩ م) حين انقطع منطاش عن الخدمة وتمارض . وفطن الناصرى إلى مكيدة منطاش فلم يتوجه لعيادته ، بل بعث إليه بالأمير الطنبغا الجوبانى . ولكن منطاش بدا غبيا حين أسرع بالقبض على الأمير الطنبغا الجوبانى وعشرين من مماليكه حين هموا بالانصراف .

وهكذا بدا كأنما الأحوال تخدم السلطان برقوق وتمهد لعودته لعرشه نتيجة هذا الانقسام بين الترك ، إذ ركب منطاش فى أصحابه ومن انضم إليه من مماليك برقوق الجراكسة الذين نقموا على الناصرى ، لأنه لم يف بوعده لهم بل إنه شرد إخوانهم (٣) .

واتجه منطاش فى ٢٢ من شعبان سنة ٧٩١ هـ أكتوبر سنة ١٣٨٩ م إلى باب السلسلة بعد أن نهب ما فى الاصطبل من الخيول . غير أنه تعذر عليه اقتحام الباب ومباغتة الناصرى بسبب إغلاق مماليك الناصرى الأبواب ورميهم الأشرفية من أعلى السور بالنشاب والحجارة ، فعاد منطاش ومعه الخيول إلى مركز قيادته فى مدرسة السلطان حسن (٤) . وبدأ يهاجم القلعة بالنشاب والحجارة من أعلى المئذنتين ومن حول القبة . والواقع أن فريق منطاش كان أقوى من فريق الناصرى بسبب انضمام العامة إليه ، لما أغدقه عليهم منطاش من الذهب ولما شعروا به من وطأة حكم الناصرى وأصحابه عليهم (٥) .

ولم تجد جهود حسام الدين بن الكورانى الذى أعيد والياً على القاهرة فى القضاء على أتباع منطاش من الترك الأشرفية . وبرغم ندائه فى الناس بنهب مماليك منطاش والقبض عليهم وبرغم إغلاقه أبواب القاهرة لحصدهم ، فإنه اضطر إلى الاختفاء حين شعر بضعف

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٣٠ .
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٨٧ .
(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين (النسخة الخطية) جـ ٢ ورقة ١٣ أ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٣٢ .
(٥) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ أ .

جانب الناصرى . وفشلت كذلك محاولة أخرى للناصرى فى نقب بيت منطاش لمهاجمته من الخلف ، إذ أرسل منطاش جماعة قاتلوا من حضر لهذا العمل (١) . وعاون منطاش فى السيطرة على القاهرة ناصر الدين نائب حسين بن الكورانى الذى عينه منطاش والياً على القاهرةوألزمه بجمع النشاب ، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً ، ثم نادى فى القاهرة بالأمان والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر ، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس (٢) .

وعند ما رأى الناصرى ضعف مركزه بعث الخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يسأله فى الصلح حتى تخمد الفتنة (٣) . غير أن منطاش أظهر احترامه للخليفة ، كما أكد طاعته للسلطان حاجى ، ولكنه أعلن للخليفة تصميمه على مقاومة الناصرى . وأظهر منطاش ما بينه وبين الناصرى من الخلافات الشخصية بسبب التنازع على النفوذ ، ثم ذكر أن الناصرى حلف له بسيواس وحلب ودمشق على أن يكونا معا فى كل أمر ، ولكنه نقض عهده فاستبد بالأمر دونه ، وقرب خشداشيته اليلبغاوية وأبعده وخشدا شيته الأشرفية ، وتمادى فى إهماله لشأنه والحط من شخصيته حين بعثه لقتال عرب الشرقية واستولى هو على الأموال وقتر على منطاش وأصحابه (٤) ، بدليل أنه لم يعطه أكثر من مائة ألف درهم ، على حين أخذ هو ما لا يحصى من الأموال ، وأعطى الناصرى نفسه ولأصحابه أحسن الإقطاعات ، ولمنطاش أصغرها وأضعفها . ثم جعل منطاش تبعة ذلك كله فى عنق السلطان الصغير (٥) .

ولم تجد محاولات الخليفة فى إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصرى والرضوخ للصلح ، كأن مصلحة البلاد لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء المتنازعين . وعاد الفريقان إلى الاشتباك تجاه باب السلسلة . ولعبت الخيانة دورها بين الترك اليلبغاوية ؛ إذ خرج على الناصرى عدد كبير من مماليكه كما خرج عليه عدد كبير من المماليك الجراكسة الذين خدعهم ، وانضموا إلى منطاش مما أنذر بهزيمة الناصرى . وفضلاً عن هذا ظهر تأييد العامة الكامل لمنطاش ، وزاد حماسهم فى الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله : « أنا واحد منكم »(٦) ، ولهذا أخذ العامة يتسابقون فى

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٦ أ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٣٤ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٣٥ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٤٨ .
(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان جـ ورقة ٢٦ أ .
(٦) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقه ٤٠ .

جمع النشاب والحجارة من على الأرض وحملها إلى منطاش . وأرسل منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسى أستاذ الرماية بمدافع النفط وأمر بتوسيطه لتأخره عن الحضور لمعاونته ، فاعتذر ابن الطرابلسى له حتى عفاعنه ، وبادر ومعه طائفة من الفرسان فأحضر آلات النفط والمدافع وصعد على المدرسة الظاهرية وصار يرمى على حيث جلس الناصرى ، حتى أحرق جانباً كبيراً من الخيمة ، ففر السلطان حاجى من الخيمة إلى مكان آخر ؛ وظلت الحرب مستمرة حتى انضم أكثر أمراء الناصرى إلى منطاش (١) .

وهكذا فشل الناصرى فى سياسته ، وفشلت معها خطة إعادة السلطنة إلى الترك ، حيث ظهر الانقسام بين صفوف الترك واضحاً نتيجة للمطامع الشخصية ، وبدا جانب الناصرى ضعيفاً بعد أن استولى منطاش على الاصطبل السلطانى ، واقتحم القلعة ونهب بيوت الناصرى وخزائنه (٢) . ثم توجه منطاش إلى السلطان حاجى وأعلمه أنه فى طاعته وأنه أحق بخدمته لكونه من مماليك أبيه الأشرف شعبان . وخُدع السلطان بهذا القول وأعلن ابتهاجه لهذه النتيجة ، خاصة بسبب تضييق أتباع يلبغا عليه (٣) ، ثم أقر السلطان حاجى الأمير منطاش أتابكا للعساكر فى رمضان سنة ٧٩١ هـ ـ سنة ١٣٨٩ م .

وتتبع منطاش يلبغا الناصرى حتى تمكن من القبض عليه بسرياقوس ثم أمر به فقيد وحبس بالإسكندرية مع عدد من أصحابه .

ولعل من أهم أسباب هزيمة يلبغا الناصرى أمام منطاش أنه لم يتمكن من إطلاق السلطان برقوق فى الوقت المناسب ، وبهذا أصبح يواجه عدوين فى وقت واحد ، هما المماليك الأشرفية الترك والمماليك الظاهرية الجراكسة .

على أنه يبدو أنه لم يكن ينتظر لمنطاش أن يكون أسعد حظا من يلبغا الناصرى ؛ ذلك أنه أنفق جهده فى تتبع أصحاب الناصرى والقبض عليهم ، وتحريض أتباعه على الانتقام منهم ثم إنه لم يجده أن تزوج من أخت السلطان المنصور حاجى (٤) رغبة فى تأييد مركزه ، إذ سرعان ما شعر بحرج موقفه أمام الجراكسة الذين حنث بعهده معهم فى إطلاق سراح أستاذهم إن هو انتصر على الناصرى ، وحين وزع الإقطاعات على مماليكه

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٦ أ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٨٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٤٠ .

(٤) ذكرت المراجع المعاصرة أنها جهزت جهازا قليل المثل لعظم ما فيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلفة الألوان ، وحمل جهازها على خمسمائة جمل ــ راجع إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٨٨ .

وأخذ يقرب خشد اشيته ومماليكه وأولاد الناس ، لم ينعم على واحد من الجراكسة الذين اتفق معهم – بإمرة أو إقطاع ، مما أوغر صدورهم عليه (١) . وإذ أراد منطاش أن ينقذ نفسه مما عساه أن يحدث دبر للجراكسة مكيدة فطلبهم إلى القلعة لينفق عليهم ويترضاهم ، ثم أغلق عليهم الباب وقبض على نحو المائتين منهم ، (٢) وبعد أن أخذ خيولهم قيدهم وسجنهم بأحد أبراج قلعة الجبل (٣).

وجاءت هذه الحادثة ضغثاً على إبالة بالنسبة للسلطنة التركية ؛ إذ بدأ الجراكسة يتكتلون لحماية أنفسهم من منطاش الذى نادى فى الناس بالقبض عليهم وقطع أيديهم وتشهيرهم .

ثم شُغل منطاش فى تتبع الجراكسة ولهذا لم يوفق فى إعادة الأمن إلى نصابه داخل القاهرة برغم أنه أعاد حسين بن الكورانى والياً على القاهرة إجابة لرغبات الشعب الذين خشوا من الزعر (٤) .

أمام هذا التكتل الجركسى أرسل منطاش يستدعى المماليك الأشرفية من سوريا وأنعم على من وصل منهم بالإقطاعات (٥) . غير أن هذا لم يؤد إلى توطيد نفوذه أو هدوء الأحوال فى القاهرة وبرغم وجود الخفر فى شوارعها للقبض على الزعر فإن الحال زاد سوءاً . بل إن حوادث أخرى أنذرت بقرب عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرشه ، وأهم هذه الحوادث اضطراب أحوال سورية بسبب اتفاق أمير العرب نعير ابن مهنا مع سولى بن الغادر الأمير التركمانى ونهبهما حلب ، كما ثار على منطاش الأمير نزار العمرى الناصرى نائب دمشق ، وحرض نواب سورية على مؤازرته فى ثورته غضباً لما فعله منطاش بيلبغا الناصرى (٦) .

وحين أحس منطاش بالثورة تندلع ضده من الجراكسة والترك فى سورية دبر مقتل السلطان برقوق سراً ، فأرسل على يد شخص من أهل الكرك يدعى الشهاب البريدى إلى حسن الكجكنى نائب الكرك ، يأمره مشافهة بقتل السلطان الظاهر برقوق ، ولكن حسن الكجكنى لم يسارع بتنفيذ كتاب منطاش ، وكاتبه يعتذر عن قتل السلطان

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨٠ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٥٥٠ – ٥٥١ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٧ أ .
(٤) نفس المرجع ورقه ٢٧ ، ٢٨ ب .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٣ .
(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٨ .

برقوق دون إذن كتابى من السلطان والخليفة . وبرغم أن منطاش استكتب السلطان والخليفة إذناً بقتل برقوق فإن حسن الكجكنى ماطل الشهاب البريدى وأنزله فى قاعة أخرى بالقلعة على حين أعلم برقوق بحضور رسول منطاش حاملاً أمر قتله ، وحلف حسن الكجكنى لبرقوق بالأيمان المغلظة ألا يفعل به شيئاً (١) . وحين أيقن الشهاب البريدى بأن الكجكنى يماطل فى قتل برقوق ، عزم على العودة ، ولكنه كان سيئ الطالع بسبب كراهية أهل الكرك له منذ طلاقه لابنة قاضى الكرك الجميلة (٢) ، فضلاً عن حب أهل الكرك للسلطان برقوق . ولهذا فإنهم حين عرفوا بمهمة الشهاب ، فاجئوه بالقلعة وقتلوه أشنع قتلة وجروه إلى باب السلطان الظاهر برقوق ، ثم حملوا السلطان إلى الباب وهم يدعون له بالنصر هاتفين : «دس برجلك على عدوك» (٣) .

ويروى بعض المؤرخين المعاصرين أن حسن الكجكنى عزم على إطلاق سراح السلطان برقوق حسب اتفاقه مع الناصرى ، ولكنه ظل ينتظر وصول كتاب الناصرى ، ولما لم يكن متحققاً من سير الأمور بالقاهرة فإنه ماطل فى تنفيذ كتاب الناصرى وكتاب منطاش حتى لا يتكرر معه ما حدث لابن عرام حين قتل بركة (٤) .

ومهما يكن فقد تطورت الأمور بسرعة ؛ إذ أن أهل الكرك بايعوا السلطان برقوق فى ٩ من رمضان سنة ٧٩١ هـ — سنة ١٣٨٩ م وبدأ السلطان برقوق حكمه بتحصين الكرك (٥) ، وسمع الجراكسة بحكم سلطانهم فى الكرك فأسرعوا إليه حتى اجتمع له نحو ألف فارس منهم من سوريا ومصر ، وأقاموا خارج الكرك ، كما أيده فى حركته عرب بنى عقبة القاطنون حول الكرك وعلى رأسهم أمير آل فضل الذى قدم له الخيل والمال . وهكذا أصبح لبرقوق جيش فى فترة وجيزة ، فعزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى دمشق . ويبدو أن بعض أعيان الكرك خشوا انتقام منطاش فاجتمعوا عند العماد أحمد بن عيسى المقيرى قاضى الكرك ، واتفقوا على القبض على السلطان برقوق وإبلاغ القاهرة أنه لم يخرج إلا بإجماع السفهاء ، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٧ ب .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٨ أ .

(٤) راجع ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقه ٤١ ، الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٨ أ .

(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقه ١٨٨ .

القاضى فأغلق باب المدينة (١) . ولكن السلطان الظاهر برقوق تمكن بمساعدة علاء الدين ، أحد إخوة القاضى المخلصين له من الخروج والاتصال بمماليكه والعرب الذين حضروا لنصرته خارج الكرك (٢) . وهناك أقام يوماً زحف بعده على دمشق . وفى شقحب إحدى قرى دمشق — تمكن الظاهر برقوق من هزيمة جنتمر أخى طاز نائب دمشق كما هزم معاونه ابن باكيش نائب غزة واستولى على ما معهما من الخيل والسلاح والقماش . وبرغم أن ما استولى عليه برقوق شىء كثير فإنه شعر بعدم قدرته على حصار دمشق لقلة من معه من الرجال ، ولذا تذرع بالصبر حتى وصل إليه من صفد الأمير إينال اليوسفى الجركسى والأمير قجماس ابن عمه ومعهما نحو مائتى مملوك (٣) من الجراكسة مستعدين بالسلاح ، كما وصل إليه مملوكه كمشبغا الحموى بجنده من حلب ، وقدم له خيلا وإبلاً وكثيراً من آلات الحصار ، وهكذا أعانه كل هؤلاء فى التقدم لحصار دمشق (٤) .

وعمد الظاهر برقوق إلى الاستفادة من الحيل الحربية والزمن للاستعداد لقتال منطاش ، فأرسل إلى منطاش على لسان أحد البدو أن برقوقاً حين خرج هارباً من الكرك وقع فى قبضة العرب (٥) . فسر منطاش وأمر بإبطال سفر تجريدة أعدها من أربعة آلاف فارس لقتال برقوق ونجحت الحيلة إذ أخذ منطاش فى إنفاق جهده فى الانتقام من الجراكسة بالقاهرة وقبض على عدد كبير منهم ونفاهم إلى قوص ، غير أن هؤلاء قاموا بالثورة هناك وقبضوا على والى قوص وحبسوه واستولوا على المدينة . وازداد موقف منطاش حرجاً حين انضم إلى هذه الثورة الجركسية فى قوص الأمير مبارك شاه ، نائب الوجه القبلى ، الذى استطاع أن يستميل إليه جماعة كبيرة من عرب الوجه القبلى عاونوه فى تشتيت التجريدة التى أرسلها منطاش لمحاربة الجراكسة الفارين .. وهكذا لعب الزمن أيضاً دوره فى شغل منطاش بإخماد الثورات الداخلية التى اندلعت فى الصعيد كله ، على حين ازداد عدد المماليك الجراكسة الفارين لسورية للانضمام إلى برقوق (٦) .

وإذ تواترت الأنباء الحقيقية عن موقف برقوق ووجوده خارج دمشق ، وجد منطاش نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فعزم على الزحف إلى سورية مع السلطان حاجى . غير

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٨٤ — رفع الإصر عن قضاة مصر : ص ٩٢ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ١١ ص ٣٥٢ .
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٩١ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٨١ ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٤٧ .
(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٣ ورقه ٣٦٤ .
(٦) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٩ أ .

أن المال شكل عقبة جديدة أمامه إذ كانت الخزائن خاوية لأنه كان على قول العسقلانى «نهابا وهابا» (١) . ولم تكن أمامه وسيلة لتدبير المال سوى الاستيلاء على الأموال الموقوفة على الأيتام ، ثم استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال من رئيس اليهود بعد أن قبض عليه وعذبه . وطلب البابا متاؤس الأول سنة ١٣٧٨ – ١٤٠٨ م البطريرك السابع والثمانين فى عداد بطاركة الإسكندرية ليأخذ منه أموالاً قيل له إن برقوقاً أودعها عنده قبل خروجه . وبعد أن عذبه أفرج عنه إذ لم يجد مصداقاً لهذا القول (٢) . ودفع سوء الأحوال المالية منطاش إلى جمع الخيل والمال بشتى الطرق، فقرر على المماليك البحرية المقيمين بالقاهرة وعلى موقعى الإنشاء عدة خيول «بحسب مقامهم» مما أدى إلى ثورتهم عليه (٣) . وبلغت به الضائقة المالية أن منع الكتاب والفقهاء من ركوب الخيل للانتفاع بها فى الحرب وأمرهم أن يركبوا البغال بدلاً منها ورسم كذلك بأخذ خيول الطواحين لاستخدامها (٤) .

وبهذه السياسة الخرقاء فقد منطاش عطف طبقات الشعب جميعاً إذ فضلاً عما فرضه على الكتاب والفقهاء وموقعى الإنشاء و المماليك البحرية ، فإنه عاد وجلب على نفسه نقمة أعيان البلد حين قبض على عدد كبير منهم وألزمهم بدفع أموال كثيرة يمكنه سد نفقات الحرب (٥) . والخلاصة أن البلاد تعرضت لحالة سيئة من التوتر بسبب هذه الأمور ولتوارد الأخبار المختلفة عن انتصار الظاهر برقوق أو انهزامه .

وقبل أن يغادر منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأعيان الفقهاء حيث أعدوا صورة فتيا فى أمر السلطان الظاهر برقوق خلاصتها أن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله فى الشهر الحرام، واستباح أموال المساكين وقتل النفوس التى حرم الله قتلها ، ولذا وجب قتاله (٦) .

وعبأ منطاش كل جهوده لحرب السلطان الظاهر برقوق، ثم قسم قواته ، وجعل قوة لحراسة القلعة ، وقوة لحراسة القاهرة ، وجماعة أخرى لحراسة مصر (مصر القديمة) هذا إلى جانب التجريدة الضخمة المتجهة إلى سورية . ولكن منطاش وقع فى خطأ

(١) العسقلانى : الدرر الكامنه جـ ٤ ص ٣٦٦ .
(٢) يوساب : كتاب تاريخ البطاركة ورقة ٧٣ أ.
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ ب .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٧٣ .
(٥) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٠ أ .
(٦) نفس المرجع ورقه ٢٩ أ ، ب .

جسيم حين قبض على عدد كبير من مماليك يلبغا وسجنهم . كما أنه وزع جهوده توزيعاً أضعف من قوته . وفى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٧٩١ هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٩ م) سار منطاش بالجيش وأخذ معه السلطان والخليفة والقضاة وترك الأمير تكا الأشرفى نائباً للغيبة بالقاهرة فى أسوأ الظروف ، بعد أن أمره بتتبع الجراكسة فى كل مكان، حتى فى المدارس والمساجد (١) .

وعلى حين علم السلطان الظاهر برقوق بسرعة زحف منطاش خشى أن يهاجمه من الخلف . وإذ اطمأن من ناحية الشمال بسبب انضمام كمشبغا الحموى نائب حلب له (٢) ، فإنه ترك حصار دمشق وأقبل بعساكره ومن انضم إليه من التركمان لملاقاة منطاش فى شقحب ورسم السلطان برقوق خطة محكمة لمواجهة جيش منطاش البالغ عدده ثلاثين ألفا بأربعة آلاف فارس فقط (٣) . واعتمدت هذه الخطة على عاملين ، أولهما : تنسيق العمل بين قواد جيشه من الجراكسة ، وثانيهما : العمل على الاستحواذ على السلطان حاجى ليظهر كمدافع عنه من بطش منطاش ، وبذا يمكنه جذب أكبر عدد من الترك الأشرفية ، وفى الوقت نفسه أراد أن يضم الخليفة إلى جانبه لأن بيده إعلان شرعية السلطنة (٤) . ولتنفيذ هذه الخطة قسم الظاهر برقوق عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين ، وتولى هو قيادة الميمنة . وحين التقى الفريقان فى ١٤ من المحرم سنة ٧٩٢ هـ — سنة ١٣٩٠ م هزمت ميسرة الظاهر ، وانسحب كمشبغا الحموى نائب حلب عائداً إلى بلاده ، وعاد حسن الكجكنى إلى الكرك . غير أن السلطان برقوق ثبت ثباتاً عجيباً بمن أخلص له من حاشيته ومماليكه الجراكسة (٥) حتى تمكن من اعتقال السلطان حاجى والخليفة المتوكل والقضاة ، واستحوذ على ما معهم من الخزائن والذخيرة التى وصفتها المراجع المعاصرة بأنها كانت شيئاً يخرج عن الحد فى الكثرة (٦) . وعمد الظاهر برقوق إلى دهائه المعروف ليجذب إلى جانبه أكبر عدد من عساكر منطاش ؛ إذ تلطف بالسلطان حاجى والخليفة والقضاة وأوقفهم إلى جواره . وحين رأى عسكر منطاش

---

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣١ ب .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٧٠ .

(٣) Iorga : Notes & Extraits T11. P.534

(٤) Iorga . Op. Cit. T11p.534

(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٥٠ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦١٣ ، ابن تغرى بردى النجوم جـ ١١ ص ٣٦٧-٣٦٨.

انضمام السلطان والخليفة والقضاة إلى برقوق بدءوا يتركون منطاش وينضمون إلى السلطان برقوق ، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك .

وبهذا العدد الضخم تقدم برقوق فى اليوم التالى نحو دمشق التى فتحت أبوابها لمنطاش الذى تقهقر إليها ليحتمى بها . واقتتل الفريقان بظاهر دمشق من شروق الشمس إلى غروبها قتالاً مستمراً أظهر فيه برقوق ومماليكه رباطة جأش وصلابة عود حتى تابعوا القتال طيلة الليل، ثم تغير الموقف فجأة وهبت رياح عاصفة مصحوبة بكتل من الثلج على معسكر منطاش حتى اضطر إلى إغلاق دمشق والتحصن بها (١) .

وكاد برقوق يدخل دمشق بعد أن عاد لمعاونته كمشبغا الحموى نائب حلب ، وبعد أن استولى إينال اليوسفى على قلعة صفد ، غير أن أهل دمشق اضطروا عساكره الذين تمكنوا من التسلل إلى داخل المدينة إلى الهرب خارجها بعد أن اكتشفوهم وهم ينهبون البضائع من بعض السوقة (٢) ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه لم يكن لدى الظاهر برقوق من المعدات ما يكفى لحصار دمشق فإنه تقهقر إلى شقحب منتظراً جلاء الموقف .

وبعد أن أقام الظاهر برقوق سبعة أيام فى شقحب اجتمع بأمرائه والخليفة والقضاة وعرض كتاباً من السلطان حاجى ذكر فيه رغبته فى التخلى عن السلطنة لعجزه عنها (٣). وشهد الخليفة على السلطان المنصور حاجى بخلع نفسه من السلطنة ، وحكم بذلك القضاة ثم نهض الخليفة وبايع السلطان الظاهر برقوق بالسلطنة (٤) . وبعد هذه البيعة التى عرفت ببيعة شقحب (٥). خلع السلطان برقوق على الخليفة والقضاة ، ونودى بذلك فى العسكر .

ورغم مرور هذه الأيام السبعة فإن الموقف لم ينجل ، ولهذا رأى السلطان برقوق أنه من الحكمة أن يترك حصار دمشق التى أحكم منطاش إغلاقها ويعود إلى القاهرة وذلك لعدة عوامل : أولها : أن منطاش تأيد مركزه بانضمام عدد كبير من العرب إليه بعد أن تزوج ابنة أمير العرب نعير (٦) ، وثانيهما أن الأحوال الاقتصادية فى سوريا ساءت حتى عدمت الأقوات وغلا ثمنها حتى بيعت البقسماطة بخمسة دراهم ،

---

(١) السلامى : مختصر التواريخ ورقه ٨٥ ب .
(٢) كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ، ص ٤٩٢-٤٩٣ .
(٤) ابن أبى السرور : النزهة الزهية ورقه ١٦ أ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٦٩ .
(٦) Iorga : Op. Cit· T11 ,p.535

وعلى العكس رخصت الأمتعة من كثرة مانهب (١) وثمة عامل هام عجل بزحف برقوق على القاهرة ، وهو أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً بعد أن ثار مماليك الظاهر برقوق الجراكسة الموجودون بالقاهرة بزعامة مملوكه الأمير بطا الظاهرى وعددهم نحو ألف وخمسمائة من الجراكسة وانضم إليهم مماليك يلبغا الناصرى رغبة فى الانتقام لأستاذهم. واتجه الثوار إلى سجون القاهرة التى أودع فيها منطاش عدداً كبيراً من الجراكسة فأخرجوا من فيها ، ثم سار الثوار إلى بيوت الأمراء المنطاشية ونهبوها (٢) . وتأيد مركز الثوار حين استولوا على الاصطبل السلطانى ، وعلى بيت منطاش بمدرسة السلطان حسن بمساعدة العامة الذين انقلبوا على منطاش بسبب سوء تدبيره وقسوته (٣).

وبعد أن أرسل السلطان برقوق إلى نائب قطيه أن يحفظ الطرقات ، تقدم بمن معه من المماليك والسلطان المعزول والخليفة والقضاة إلى القاهرة التى فشلت فيها الدعايات السيئة التى بثها ضده ابن الكورانى والى القاهرة ؛ إذ نشر أخباراً تفيد هزيمة السلطان برقوق، ودق البشائر لهذه المناسبة عدة أيام، ومع هذا فإن الناس لم يصدقوا بل اشتركوا مع الثوار الجراكسة فى مقاومة أنصار منطاش ووالى القاهرة حتى اضطروه إلى الاختفاء (٤). ويعجب ابن تغرى بردى من أنه مع قيام هذه الثورة ظلت القاهرة فى أمن من الزعر وفسادهم (٥) . ويفسر الخطيب سبب هذا الأمن بأن الأمير بطا الظاهرى بعد أن قبض على ابن الكورانى ، وصفده بقيد من حديد ، ورسم بنهب داره أمر بتولية محمد بن العادلى والياً على القاهرة . وأسرع الوالى الجديد إلى الطواف بشوارع القاهرة منادياً بالأمان والدعاء للظاهر برقوق (٦) . وأدى هذا دون شك إلى سهولة مهمة السلطان برقوق ، إذ فضلاً عن سرور الناس واطمئنانهم لانتصار السلطان برقوق وتمنى عودته ، فإن بطا قضى على ما بقى من مقاومة الترك الأشرفية ، ثم قبض على زعمائهم بالقاهرة ، وسقطت القلعة فى يده فتمكن بطا من إعادة مقررات المماليك الجراكسة من اللحم وغيره مما كان مقرراً للمماليك الترك (٧) . وبدأ بطا فى إقامة الكثير من الاستحكامات حتى

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٩ .
العينى : عقد الجمان : جـ ٢٤ قسم ٢ ورقه ٣٨٥ .
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢ .
(٣) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠١ .
(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٢ ب .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٣٧٥ .
(٦) المرجع السابق ورقه ٣٣ أ ، ب .
(٧) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢ .

يبلغ من قوتها أن ظن البعض أن بطا أراد فى نفسه بهذه الاستحكامات الكثيرة أن يمنع الظاهر برقوق من دخول القاهرة (١) .

وكيفما كان الأمر انتشرت الأخبار برحيل الظاهر برقوق من غزة إلى مصر فى العاشر من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م فأمر بطا الظاهرى بدق البشائر وأرسل إلى السلطان برقوق ينبئه بأنه استولى على القاهرة وأقام الخطبة فيها باسمه (٢) . فرد عليه السلطان برقوق يشكره ويأمره بتجهيز الإقامات له ولمن معه (٣) .

وما كاد ركب السلطان برقوق يصل إلى الصالحية حتى نودى بزينة القاهرة وبلغ سرور الناس أشده حتى تنافسوا فى إقامة الزينات، ثم خرجوا من القاهرة أفواجاً للقائه فرحين « مقدرين فيه عقله وتثبته » (٤) . وليس من شك فى أن الشعب قارن بين سياسة كل من برقوق ويلبغا الناصرى ومنطاش . وظهر واضحاً أنهم قاسوا الكثير من سوء تدبير الآخيرين ، على حين فضلوا حكم السلطان برقوق نظراً لسياسته الشعبية .

ويصور لنا المقريزى استقبال القاهرة للسلطان الظاهر برقوق وشعور الناس تصويراً حياً وذلك حين دخلها ومعه السلطان المنصور فيقول : « فى ٢٤ من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها ، والعساكر بلبوسها الحربية ، واليهود بالتوراة ، والنصارى بالإنجيل ، ومعهم شموع كثيرة مشعلة (٥) ، وخرج من عامة الناس رجالهم ونساؤهم مالا يحصيهم إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شيء زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتى لقوه وأحاطوا به . وقد فرشت الشقق بالحرير من الترب إلى باب السلسلة ، فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها ، ومشى بجانبه فصار كأن الموكب للمنصور ، فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً ، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال لتواضعه مع المنصور فى حالة غلبته وقهره له ، وأنه معه أسير ، وعد هذا من فضائله . وصارت القبة والطير أيضاً على رأس المنصور والخليفة راكب بين أيديهما ، وقضاة القضاة بين يدى الخليفة ، فإذا تقدم الفرس من شقة إلى أخرى تناهبها العامة من غير أن يمنعهم أحد ، وكانت العادة أن الشقق لجمدارية السلطان ، ولكنه قصد بذلك التحبب للعامة ، فإنه صاحب كيد ودهاء ، وكذلك لما نثر عليه

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٣١ .
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٩٤ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٣٧٨-٣٧٩ .
(٤) العسقلانى : الدرر الكامنه جـ ٤ ص ٣٦٥ .
(٥) راجع كذلك يوساب : تاريخ البطاركة ورقة ٣٩ .

الذهب والفضة تناهبه العامة ، وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه ومشى راجلاً تجاه فرس السلطان المنصور ، وهو راكب ، حتى نزل فأخذ بعضده وأنزله . فحسن هذا منه إلى الغاية . وأخذ فى المبالغة فى تعظيمه ومعاملته بما يعامل به الأمراء سلطانهم ، إلى أن أدخله إلى داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه (١) » .

ومما ذكره المقريزى يمكننا أن ندرك مدى ثبات السلطان برقوق على سياسته ودهائه ، إذ فضلاً عن إظهار حبه للشعب وعدم ترفعه عن الناس ، فإنه عمد إلى المبالغة فى إكرام السلطان حاجى ليتظاهر بمدى زهده فى السلطنة ، ولتنكشف أمامه اتجاهات الناس نحو سلطنته ، حتى إذا تأكد من ميل الناس جميعاً له استدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة واجتمع بهم فى الاصطبل حيث جددوا له البيعة بالسلطنة .

وهكذا فشلت محاولة الترك لإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون وبدأ الناس يؤمنون بالسلطنة الجديدة — ومع هذا ظل السلطان برقوق يأخذ حذره من الترك ، فأسكن السلطان حاجى بالحوش السلطانى ، ووكل بالباب حفظة من الخاصكية الأبطال (٢) . ثم أخذ السلطان برقوق فى تدبير أمور دولته والعمل على إعادة الجراكسة إلى الوظائف الرئيسية فى الدولة وبدأ بتعيين مملوكه الأمير بطا الظاهرى دويداراً كبيراً وإينال اليوسفى أتابكا للعساكر (٣) .

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٣٨-٦٣٥ .
(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣٣ ب .
(٣) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠٣ .

الفصل الرابع

استقرار دولة المماليك الثانية

سياسة برقوق نحو الترك ـ الصلح بين برقوق ويلبغا الناصرى ـ بقاء قوة الترك فى دمشق واستعانتهم بالعربان ـ قضاء يلبغا على معظم المماليك الترك • عودة الخصام بين يلبغا الناصرى وبرقوق ـ محاولة يلبغا الناصرى انقاذ منطاش ـ ذهاب السلطان برقوق الى دمشق سنة ١٣٩١ م ـ القبض على يلبغا الناصرى وقتله ـ فرار منطاش ـ عودة برقوق الى القاهرة ـ تطهير القاهرة من الترك ـ القبض على منطاش وقتله ـمطالبة العربان بالحكم دون الجراكسة ـ محاولة العربان اقامة الشريف العنابى سلطانا سنة ١٣٩٤ م ـ موقف السلطان برقوق من باقى الثورات العربية ـ فشل مبدأ وراثة العرش فى دولة المماليك الثانية ـ الصبغة الجديدة ـ التغيرات فى نظم الحكم والادارة •

لم تغير المؤامرات المستمرة من سياسة السلطان برقوق بعد أن عاد إلى عرشه فى ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ- يناير ١٣٩٠ م، وبدا على عادته سياسياً عاقلاً، متوخيا الحرص والتأنى فى كثير من أموره السياسية ولاسيما فى علاقاته مع أعدائه ، فهو أراد بناء دولة جديدة معتمداً على العصبية الجركسية (١) . ولم يكن هذا الأساس سهلاً لأن العصبية التركية التى حكمت البلاد نحو مائة وثلاثين عاماً مازالت تناصبه العداء ، كما أن العصبية العربية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها ممثلة فى عدد كبير من القبائل العربية التى اشتغلت بالزراعة والتجارة طالما ثارت على السلطان ، واعتبرت العناصر المملوكية مغتصبة للحكم . وتحمست هذه القبائل أكثر حين انتقل الحكم إلى الجراكسة ، ولذا عمل السلطان برقوق منذ عودته إلى السلطنة على تصفية حسابه مع هاتين العصبيتين ، وذلك حتى يضمن الاستقرار لدولته.

---

(١) تحدث ابن خلدون عن أهمية العصبية فى قيام الدول فقال : « إن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ، ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الميزات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضى إلى الحرب والقتال والمغالبة ، وشىء منها لايقع إلا بالعصبية » ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٤ .

ولتحقيق ذلك بدأ السلطان برقوق سلطنته الثانية بإعادة الهدوء إلى القلعة ومحاربة الإشاعات لمسببة للفرقة والانقسام فى صفوف مماليكه ، فلم يتورع أن يسمر أحد مماليكه لأنه أشاع كذبا أن الأمير بطا الدوادار عزم على الثورة على السلطان (١) ، على حين أمر بالعفو عن الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش ، مع تحديد أماكن إقامتهم (٢). ولم يكن يدفع السلطان برقوق إلى هذه السياسة العطف أو الشفقة ، بل إن الأحوال الداخلية اضطرته إليها ، إذ بدت أحوال سورية غير مطمئنة منذ ٢٠ من صفر سنة ٧٩٢ هـ — يناير سنة ١٣٩٠م — وذلك بسبب بقاء منطاش مستقلاً بدمشق ، وتحريضه لقطلوبغا الصفوى نائب صفد على الانضمام إليه — ولذا استدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى وصالحه ، ثم عينه أمير سلاح ، والطنبغا الجوبانى اليلبغاوى وعينه رأس نوبة الأمراء (٣) . وجعل السلطان برقوق تعيين هؤلاء اليلبغاوية فى مناصبهم كسباً لودهم ، حتى إذا انتظمت أموره فى العاصمة استغل عداءهم لمنطاش فى القضاء عليه وعلى أتباعه من المماليك الأشرفية الترك.

وبدأ السلطان برقوق الاستعدادات السريعة فى القلعة لإعداد التجريدة المتجهة لحرب منطاش ولكنه قرر أن يحتفظ لديه بالقاهرة بأكبر عدد من الجراكسة ، على حين جهز أغلب التجريدة من الترك اليلبغاوية ، حتى يضمن التخلص من عدد كبير منهم فى القتال فى سورية مع أعدائهم من المماليك الأشرفية . ولذا خلع على عدد من الأمراء اليلبغاوية بإقطاعات فى سورية (٤) ، ثم جعل الطنبغا الجوبانى نائباً لدمشق ، والأمير قرادمرداش الأحمدى اليلبغاوى نائبا لطرابلس (٥) ، وبعثهما على رأس التجريدة ، على حين عين الأمير يلبغا الناصرى مقدماً للعسكر جميعا ، وجعل مرجع الأمور كلها إليه ، وحثه على أخذ ثأره من منطاش بقوله « هو غريمك ، اعرف كيف تقاتله » (٦) .

وقبل أن يتحرك العسكر إلى سورية فى ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ — أبريل سنة ١٣٩٠ م — بدا الحظ فى جانب السلطان برقوق ؛ إذ خرج على منطاش حليفه قطلوبغا الصفوى ، وحضر إلى مصر طائعاً ، وجعل هذا العمل منطاش يشك فى نيات أتباعه ، فقبض على عدد منهم وسجنهم ، مما دفع بعض المماليك الأشرفية إلى تركه والهروب

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٢) السلامى : مختصر التواريخ ورقه ٨٥ ب .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٦ .
(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٤ ب .
(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، المجلد الثانى ورقه ١٥ أ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٩ .

إلى مصر للانضمام إلى جانب السلطان (١) . وبدا جانب منطاش ضعيفاً حتى إنه لم يبق معه أكثر من ستمائة فارس ، فاضطر أن يخرج بهم من دمشق ومعه كل ما أمكنه جمعه من الأموال التي قومت بنحو سبعين حملاً من الذهب والفضة والقماش (٢) ، وتوجه إلى بلدة النبك – بين دمشق وحمص (٣) – فتمكن الأمير إيتمش البجاسي من الخروج من سجنه بقلعة دمشق وأخرج المحبوسين بها من الجراكسة . ثم استطاع إيتمش السيطرة على المدينة ، وسهل هذا مهمة النواب المتجهين لحرب منطاش ، إذ دخلوا دمشق دون قتال فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ – أبريل سنة ١٣٩٠

وأحدث إعلان هذا الخبر المفاجئ صدى كبيراً فى القاهرة حيث أمر السلطان بدق البشائر ، وأنفق أموالاً كثيرة فى الناس ، الذين شغلوا بالتسابق فى إقامة الزينات (٤) .

ثم نجحت عساكر السلطان برقوق فى كسب جولة أخرى فى سورية وذلك حين انتصر الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرفى الذى استعان بأهل بانقوسا (٥) ، وحاصر كمشبغا فى قلعة حلب فأسرع كمشبغا ونقب القلعة وقاتل الأشرفية بالمكاحل من الثقب حتى ضعف أمرهم ، وقبض كمشبغا على ثمانمائة من الترك ومن أهل بانقوسا ، وانتقم منهم بتخريب بلدهم حتى صار دكا (٦) .

أما منطاش فإنه عاد ليتفق مع الأمير العربى نعير بن حيار أمير آل فضل ، واتجه الاثنان نحو دمشق لقتال يلبغا الناصرى . فخرج يلبغا الناصرى والطنبغا الجوبانى من دمشق إلى سلمية ، وترك بدمشق الأمير إيتمش البجاسى مع الحامية الجركسية وعدد من المماليك الترك اليلبغاوية . غير أن المماليك الترك اليلبغاوية الذين بقوا بدمشق انتهزوا فرصة قلة عدد أفراد الحامية الجركسية وثاروا على إيتمش بالاتفاق مع العامة . وحاولوا الاستيلاء على الحكم بدمشق . ولما كان يلبغا الناصرى حريصاً على إظهار إخلاصه للسلطان برقوق خشية انتقامه ، فإنه ما كاد يتلقى نبأ هذه الثورة حتى أسرع فى طائفة من عسكره إلى دمشق ومعه الأمير الابغا العثمانى ، حاجب حجاب دمشق ، وقاتل الثائرين قتالاً شديداً أفنى فيه عدداً كبيراً من الترك والعامة المعادين للسلطان برقوق (٧).

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٥٥ .
(٣) راجع : معجم البلدان جـ ٨ ص ٢٤٧ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٤٤ .
(٥) كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٦٧ .
(٦) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ٣٩٨ .
(٧) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٥ ب .

وبعد أن أعاد الأمير يلبغا الناصرى الأمن إلى نصابه فى دمشق عاد إلى سلمية (١) . فى رجب سنة ٧٩٢ هـ — مايوسنة ١٣٩٠ م — ، واجتمع بباقى النواب لرسم خطة قتال منطاش وحليفه نعير . واتفق فى هذا الاجتماع على تقسيم العسكر ثلاث فرق يتولى يلبغا الناصرى قيادة الفرقة الأولى المتجهة لقتال نعير بن حيار ، وأن يقوم الأميران قراد مرداش الأحمدى نائب طرابلس ، والطنبغا الجوبانى نائب دمشق ، بقيادة الفرقتين الثانية والثالثة المخصصتين لقتال منطاش .

وحين بدأ القتال فى شعبان سنة ٧٩٢ هـ — يونيه سنة ١٣٩٠م — استطاع يلبغا الناصرى أن يقتل عدداً من عرب آل فضل وأن يلحق الهزيمة بنعير بن حيار ، أما قراد مرداش فإنه اشتبك مع منطاش دون أن يتمكن منه ، على حين نشبت معركة حامية خارج دمشق بين مماليك منطاش وبين الفرقة التى قادها الجوبانى . ورغم انتصار الجوبانى فى بادئ الأمر ، فإن المعركة أسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين وقتل الجوبانى نفسه . وتأثر جيش السلطان برقوق بنهب العرب والتركمان حتى اضطر الناصرى إلى التقهقر بجيش السلطان إلى دمشق ليصلح أمره (٢) .

وبقدر ما تظاهر السلطان برقوق بأسفه الشديد لفقد عدد كبير من اليلبغاوية بقدر ما تحمس فى نفسه لنجاح فكرته ، وتمنى المزيد من الصراع ليتخلص من عدد آخر من الأجناد الترك . فاستدعى عدداً كبيراً من الأجنادالترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلىيلبغا الناصرى . واستطاع يلبغا أن يخرج بهم من دمشق فى نهاية شعبان سنة ٧٩٢ هـ — يونيه سنة ١٣٩٠ م — وأن يهاجم عرب آل على — على مقربة من دمشق — وقتل نحو مائتين منهم ، ونهب بيوتهم وجمالهم ، ثم عاد سريعا إلى دمشق لانتظار ماعسى أن يقوم به منطاش (٣) .

وأدى هذا الانتصار مع توالى الإمدادات من القاهرة إلى إعلان نعير طاعته للسلطان. وبعث للسلطان يسأله الصفح والأمان ، ولم يتأخر السلطان برقوق فى إجابته إلى ماطلب ، وأرسل إليه تقليداً جديداً بإمرة آل فضل على عادته (٤) .

---

(١) سلمية بليدة من أعمال حماه راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ حاشية ١ ص ١٥ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٤٩ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٠ .

(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٦ أ .

ولاشك أن منطاش فقد بخروج نعير جانباً كبيراً طالما اعتمد عليه ، إذ أصبح لايخشى عساكر السلطان وحسب بل وعرب آل فضل كذلك ، ولذا اضطر منطاش إلى الارتماء فى أحضان سولى بن دلغادر التركمانى وطلب معاونته (١) .

وفى ١٦ من المحرم سنة ٧٩٣ هـ - يناير سنة ١٣٩١ م - لجأ يلبغا الناصرى إلى حيلة للقبض على عدد كبير من المماليك الترك الأشرفية . إذ لبس عدة الحرب وتظاهر بعدائه للأمير إيتمش البجاسى وللحامية الجركسية ، ونادى بدمشق « من كان من جهة منطاش فليحضر » وجازت الحيلة على أتباع منطاش من الأشرفية والتركمان ، فانضم إليه نحو ألف ومائتى فارس منهم ، فقبض عليهم يلبغا وسجنهم (٢) ، ثم خلع عدة الحرب وكتب بذلك إلى السلطان الذى أجابه بالشكر والثناء (٣) .

على أن منطاش لم ييئس لخروج هذا العدد الكبير من أتباعه ، بل استعان بعدد كبير من عامة دمشق فى مناوءة يلبغا الناصرى ، ولكنه اضطر إلى التقهقر سريعا إلى عينتاب. ولما لم يستطع دخولها بسبب ملاحقة عساكر يلبغا اضطر إلى الفرار إلى مرعش(٤) . ونتج عن هذه الهزائم المتلاحقة خروج جماعة أخرى من أتباع منطاش وحضورهم إلى مصر طائعين (٥) . وسلك السلطان برقوق على عادته سبيل العفو عن هؤلاء ، بل إنه خلع على استدمر رأس نوبة منطاش الذى حضر إليه مع هؤلاء المماليك الأشرفية (٦) .

ويمكن القول إن السلطان برقوق نجح حتى هذا الوقت فى القضاء على أكثر المماليك الترك الأشرفية بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية ، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم فى هذه المعارك المتصلة ، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان برقوق حتى يقبض يلبغا على منطاش وينتهى أمر الأشرفية ، ثم يتخلص من باقى اليلبغاوية ، إلا أنه انقلب فجأة على المماليك الترك جميعاً إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين التجئوا إليه ، وعفا عنهم من وقت قصير ، فى الوقت نفسه الذى قبض فيه على مماليك الطنبغا الجوبانى الذين عادوا إليه بعد قتل أستاذهم فى المعركة التى دارت خارج دمشق فى شعبان سنة ٧٩٢هـ (٧).

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ ورقه ٤٠٦ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٩٧ .

(٤) مرعش مدينة كبيرة على ست مراحل من حلب فيها أسواق :
راجع المقريزى : جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار ورقة ٤٤ ب .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٤٧ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٥٤ .

(٧) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٦-٣١٧ .

وجعل هذا الانقلاب المفاجئ الأمير يلبغا الناصرى يفهم نيات السلطان ، إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء !!؟ وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركى وأنه لاشك عازم على التخلص من باقى اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرفية . ولذا انقلب يلبغا الناصرى بدوره مرة أخرى على السلطان برقوق ، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته على السلطان برقوق بسبب قلة عدد اليلبغاوية فى سورية ، ولذا بدأ يتقرب من منطاش بأن تعمد بعدم مقابلته فى معركة حاسمة ، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر (١) .

ثم أثبتت الحوادث أن يلبغا الناصرى اتفق فعلاً مع منطاش ، وأنه كاتب منطاش أن يتقدم إلى دمشق ، وأنه لن يقف فى طريقه على أن يظل هذا الأمر سراً بينهما ؛ فعاد منطاش من مرعش فى أول رجب سنة ٧٩٣ هـ — يوليو سنة ١٣٩١ م — وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس (٢) . ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعلبك واستولى عليهما ، وفر نائب بعلبك إلى دمشق حيث أخبر الناصرى بزحف منطاش على دمشق (٣) . وبدلاً من أن يخرج يلبغا الناصرى للقاء منطاش من الطريق الذى سلكه منطاش خرج يلبغا من طريق الزبدانى (٤) . وبذا ترك دمشق لقمة سائغة لمنطاش الذى تقدم إليها بمعاونة بعض ذوى النفوس الدنيئة من عامة دمشق الذين فتحوا له باباً من وراء الجبل ، ومكنوا أتباعه من المماليك الأشرفية والتركمان من دخول اصطبلات أمراء دمشق ، وأخذ نحو ثمانمائة فرس منها (٥) . ثم تمكن منطاش فى النهاية من احتلال القصر الأبلق بدمشق ، ونزل أمراؤه فى البيوت المجاورة للقصر الأبلق ، واحتل باقى أتباعه جوامع المدينة .

وهكذا مكن يلبغا الناصرى منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق . ولكى يدارى يلبغا الناصرى موقفه أسرع بالعودة إلى دمشق . ورغم أنه حاصر القصر الأبلق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار (٦) ، وأكثر من هذا فإنه رغم أن بعض الفلاحين اعتقلوا منطاش وأرسلوا للناصرى للحضور واستلامه ؛ ورغم أن القاهرة سمعت بهذا النبأ ، وزينت له فإن يلبغا

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٣١٧–٣١٨ .
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٥٥ .
(٣) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٦٦ .
(٤) الزبدانى قرية بين دمشق وبعلبك راجع ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٧٤ .
(٥) كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٦٦ — ٦٦٧ .

الناصرى لم يبادر باعتقاله بل سهل أمر فراره ، وسرعان ماكذب هذه الأنباء وأعلن أن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه (١) .

وحين أخذت إشاعات الجراكسة حول موقف يلبغا الناصرى الأخير تملأ القلعة كاتب يلبغا الناصرى السلطان برقوق يستحثه للحضور إلى دمشق ، ليدرك عن كثب مدى ما يبذله من جهود فى حرب منطاش ، وليشترك بنفسه فى الصراع الدائر (٢) .

وهكذا قرر السلطان برقوق أن يخرج بنفسه على رأس تجريدة جديدة ، بعدأن اطمأنت نفسه لتطهير القاهرة فى هذه الفترة من عددكبير من المماليك الترك . ويبدوأن الحروب والفتن المستمرة جعلت هناك أزمة فى الخيل ، حتى أمر السلطان برقوق أن « ينادى فى القاهرة ومصر ألا يركب أحد من المتعممين فرساً سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص فقط ، ومن عداهم يركب البغال ، وأن طحانا لا يترك عنده فرساً صحيحاً ومن وجد عنده فرس أخذت منه (٣) » .

وإذ انكشفت أوراق يلبغا الناصرى ، ووضح أمام السلطان برقوق خطربقاء بعض اليلبغاوية ممن اعتمد عليهم فى وظائفهم فى مصر أثناء غيابه عن القاهرة عزل أكثرهم عن هذه الوظائف فى ١٢ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ — أغسطس سنة ١٣٩١ م ، وولى بدلاً منهم من مقدمى الحلقة الجراكسة (٤) . ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك البطالين بالقاهرة ، وأمر بضرب أعناقهم بالصحراء (٥) وفى ٢٦ من شعبان سنة ٧٩٣هـ — أغسطس سنة ١٣٩١ م — أعلن السلطان برقوق أنه خارج لمعاونة الناصرى على منطاش (٦) . وعهد السلطان إلى الأمير كمشبغا الحموى بنيابة الغيبة لما عرفه فيه من دقة وبعد نظر . وماكاد السلطان برقوق يرحل عن القاهرة حتى سادتها أحكام قاسية (٧) ، وشدة متناهية قصد بها

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٦٢ — ٢٦٤ .
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٨ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٥٧ — ٦٥٩ .
(٤) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٨ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٦ — ٢٧ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٥ .
(٧) من هذه الأحكام القاسية أن كمشبغا أمر فى ٢١ من رمضان سنة ٧٩٣هـ بمنع النساء فى يوم العيد من الذهاب إلى المقابر ، وأن من خرجت وسطت هى والمكارى ، كما أمر ألا يركب أحد فى موكب ، وألا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكمام ، ولا يزيد قماش القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً بسبب مبالغة النساء فى سعة القمصان حتى عملن القميص من ٧٢ ذراعاً . ولم يجسر أحد على مخالفة كمشبغا . راجع العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٢٣ .

إنزال الرعب فى نفوس العناصر الناقمة على الحكم حتى لاتحدث نفسها بالثورة . وبلغت شدة الأمير كمشبغا درجة لم يجسر معها أحد فى مدة حكمه أن يحمل سلاحاً .

أما السلطان برقوق فإنه وصل دمشق فى ٢٢ من رمضان سنة ٧٩٣ ﻫ سبتمبر سنة ١٣٩١ م ورغم أنه حضر ليتحقق بنفسه من سوء نية يلبغا الناصرى فإنه أخفى مافى نفسه على من معه، بل إنه أعلن فى دمشق العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم ، وصار لهذا العفو أكبر الأثر فى كسب عدد كبير من عامة دمشق(١).

وفى الثانى من شوال من السنة نفسها توجه السلطان برقوق إلى مدينة حلب بعد أن أقام بحمص وحماه أياماً كثيرة دون أن يتمكن من العثور على منطاش(٢) ، الذى فر إلى سالم الدوكارى التركمانى . ولاشك أن وجود السلطان برقوق فى حلب كان له أكبر الأثر فى إضعاف شأن منطاش إذ أرسل صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يخبره أنه قبض على جماعة من المماليك الترك الأشرفية ، فبعث إليه السلطان من تسلمهم وشكره على معاونته(٣) . كما أرسل إليه سالم الدوكارى يخبره أن الأمير منطاش فى قبضته وأنه ينتظر من يسلمه . واعتقد السلطان برقوق أن سالماً مخلص فى قوله ، فأرسل إليه الأمير قرادمرداش مع عدد من العسكر لإحضار منطاش . غير أن سالماً الدوكارى عاد واتفق مع يلبغا الناصرى على الإبقاء على منطاش فماطل قرا دمرداش عدة أيام (٤) ،حتى أن قرادمرداش حين تحقق أن سالما الدوكارى لن يسلم له منطاش هاجم بيوته ونهبها وقتل عدداً من أتباعه ، واضطر سالم إلى الفرار بمنطاش إلى سنجار (٥) .وإذ عرف السلطان برقوق بمماطلة سالم الدوكارى ، أرسل إلى يلبغا الناصرى يطلب حضوره ليكشف بذلك عن اتجاهات يلبغا المعادية له . ثم إن بعض الأخبار التى نقلت إلى السلطان برقوق أفادت أن يلبغا حين وصل عند سالم وعرف ما فعله قراد مرداش بسالم الدوكارى سلّ سيفه وأراد قتل قرادمرداش لولا تدخل الأمراء(٦) .

ودفعت هذه الأخبار السلطان برقوق إلى أن يتحقق مما أشيع عن اتفاق الناصرى مع منطاش ،

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٧٢ .

(٢) Iorga : Notes & Extraits T 11 p. 535

(٣) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٩ .

(٤) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٦ أ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٧٠ — سنجار مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام — راجع: ياقوت : معجم البلدان ص ١٤٤ .

(٦) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٩ .

وغلب على ظنه صحة ما نقل عن يلبغا الناصرى من أن قصده مطاولة الأمر بين السلطان برقوق وبين منطاش ، كما تحقق السلطان مما نقل إليه عن أن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا ، وأن يلبغا تخاذل فى القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق (١) . كما عرف السلطان برقوق أنهما اجتمعا فى هذه الفترة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطط (٢) . وأن رسل الناصرى كانت ترد على منطاش فى كل ليلة بما يأمره به ، وأن سالماً الدوكارى لم يهرب بمنطاش إلى سنجار إلا بمكاتبة يلبغا الناصرى (٣) . وأكثر من هذا فإن قرادمرداش عثر عند سالم الدوكارى على خطاب من يلبغا الناصرى جاء فيه « خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فإن منطاش مادام موجوداً فنحن موجودين » (٤) وتحركت عند السلطان برقوق الكمائن القديمة من خروج يلبغا عليه وخلعه من السلطنة وحبسه بالكرك ، وما تسبب فيه من الفتن . ولم يجد السلطان برقوق مجالا للشك فى نيات يلبغا حين سأل إيتمش الذى أرسله لتتبع الأشرفية عن سبب عودته فجأة ، فأبلغه أن يلبغا الناصرى هو الذى أرسل إليه كتاباً ليعود سريعاً إلى دمشق (٥) . ولهذا انتظر السلطان برقوق فى حلب حتى عاد إليه يلبغا الناصرى يعلن فشله فى مهمته فقبض عليه وعلى أمير أخورة ورأس نوبته ، كما قبض على نائب حماه وسجن الجميع بقلعة حلب ثم أمر بهم فقتلوا فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ (نوفمبر سنة ١٣٩١ م)(٦) .

والواقع أن قضاء السلطان برقوق على يلبغا الناصرى يمثل خطوة كبيرة نحو تأمين السلطنة الجديدة من العناصر المناوئة ، ولو لم يكن أكثر اليلبغاوية قتلوا فى هذه المعارك ، لما أقدم السلطان برقوق على هذا العمل وقتذاك ؛ والحقيقة أن السلطان برقوق صبر كثيراً على يلبغا الناصرى مع أنه تسبب فى كثير من الفتن منذ أن وصل إلى منصب الإمارة (٧) ثم أنه لما لم يعد لمنطاش أو للبقية الباقية من الترك الأشرفية قيمة تذكر بعد أن قتل أكثرهم فى هذه الحروب ، قرر السلطان برقوق العودة إلى القاهرة ريثما تتاح له الظروف للقبض على منطاش .

وفى ١٧ من المحرم سنة ٧٩٤هـ — يناير سنة ١٣٩٢م وصل السلطان برقوق إلى القاهرة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٣٣ .
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٧١ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٩ أ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقه ١٦ ب .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٣٢ — ٣٣ .
(٧) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ٤٣٦ .

التى استقبلته استبقالا رائعاً إذ « تلقاه المسلمون بالختمات الشريفة واليهود بالتوراة والنصارى بالأناجيل والشموع الموقدة . وفرش له الطريق بشقق الحرير الأطلس (١) واصطف الناس لرؤيته إلى أن طلع القلعة في موكب جليل إلى الغاية (٢) » .

واعتقد السلطان برقوق أن أول واجباته بعد التخلص من الناصرى هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك أو ممن يميلون إليهم ، فخلع الأمير استدمر الأشرفى من ولايته فى نقابة الجيش لأنه تزوج من بنت السلطان حسن بن الناصر محمد وولى مكانه واحداً من مماليكه (٣) . ثم قام بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم ، وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة (٤) ، وخصهم بالإقطاعات الكثيرة . ومن هؤلاء الذين ارتقوا فى هذه الحركة ايتمش البجاسى الذى أصبح رأس نوبة الأمراء. ثم إن السلطان برقوق لم يطمئن على أحوال سورية حتى عين مملوكه الأمير تنبك الحسنى الظاهرى المعروف بتنم نائباً لدمشق ، بعد أن توالى عليها نواب من الترك اليلبغاوية (٥) .

غير أن الأحوال فى سورية عادت إلى الاضطراب فى شعبان سنة ٧٩٤ هـ — أغسطس سنة ١٣٩٢م— بسبب عودة منطاش إلى مزاولة نشاطه المعادى للسلطنة المملوكية الثانية وتمثل نشاطه — بعد أن فقد أنصاره من الترك الأشرفية — فى إثارة بعض القبائل العربية وبعض التركمان ؛ ذلك أنه اتفق مع نعير بن حيار الذى حنث بعهده الأخير مع السلطان ، ومع ابن بزدغان التركمانى وهاجم الجميع سلمية . غير أن الأمير العربى محمد بن قارا — الذى عين أميراً على آل فضل بدلا من نعير — استطاع بمعاونة التركمان الموالين للسلطنة المملوكية الثانية رد منطاش وإلحاق الأذى به ، كما قتل ابن بزدغان واستحق ابن قارا خلعة السلطان وشكره وثناءه على جهوده فى خدمة السلطنة المملوكية الثانية (٦) . وكما فشل هجوم منطاش على سلمية فى شعبان سنة ٧٩٤ هـ — أغسطس سنة ١٣٩٢ م ، فشل هجومه بالاشتراك مع نعير على حماة فى الشهر التالى بسبب مقاومة نائبها الأمير اقبغا الصغير . وحين تحول منطاش لمهاجمة حلب لقنه أهلها درساً قاسياً ؛ فاضطر إلى الفرار إلى العراق (٧) .

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٩٥ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٣٥ .
(٣) المرجع السابق والجزء ص ٣٠٩ .
(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٣٨ .
(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٣٢ .
(٧) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقة ٤٠ ب .

على أن خاتمة هذا الصراع جاءت فى ٣ من رمضان سنة ٧٩٥هـ — سبتمبر سنة ١٣٩٣ م على يد الأمير جلبان الكمشبغاوى الجركسى نائب حلب (١) الذى استطاع الاتفاق مع نعير بن حيار على أن يسلم له منطاش الذى عاد من العراق واحتمى بنعير ، وذلك مقابل إعادة اعتراف السلطان بإمرته على آل فضل . وأرسل الأمير جلبان شادشر بخاناته فى خمسة عشر مملوكاً ، وندب نعير أحد عبيده إلى منطاش الذى ركب فرسه وحاول الهرب غير أن العبد قبض على عنان فرسه وأنزله بمعاونة عبد آخر وحاول منطاش الانتحار بسكين كانت معه لولا أن منعه العبد ، وأودع منطاش سجن حلب انتظاراً لأمر السلطان (٢).

وحين بلغ السلطان النبأ سُرّ له سروراً عظيماً ، وأنعم على جلبان بخمسة آلاف درهم وخلع عليه « فوقانيا بطرز ذهب مزركش » ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوا الأمير جلبان بالخلع ، ودقت البشائر لهذا الخبر بمصر وزينت القاهرة فى اليوم التالى زينة عظيمة ، ثم أرسل السلطان إلى حلب لإحضار منطاش ، وأوصى رسوله أن يعذبه حتى يحضر أمواله ، غير أن منطاش لم يعترف بشىء ، فذبحه الرسول وحمل رأسه على رمح وطاف به مدينة حلب ، ثم أخذه وعاد به إلى القاهرة ، وبعد أن طاف به شوارعها علق الرأس على باب القلعة ، ثم نقل ليعلق أياما أخرى على باب زويلة (٣) .

وهكذا استطاع السلطان برقوق بفضل حرب الإبادة التى أثارها على الترك إزالة أهم عقبة اعترضته فى سبيل توطيد دعائم دولته حتى إنه لم يعد يسمع بعد هذا عن محاولات الترك إثارة الفتن ضد السلطنة المملوكية الثانية (٤) .

غير أنه ينبغى أن يكون مفهوماً أن كل هذه الفتن لم تكن موجهة ضد شخص السلطان برقوق فحسب ، بل ضد الجراكسة كذلك ، بدليل أنه حين وقع مملوك جركسى من جيش برقوق فى أيدى الترك فإنهم جردوه من ملابسه ، وألقوه فى السجن ، والعكس حين وقع فى أيديهم مملوك تركى من جيش برقوق فإنهم اكتفوا بأخذ مامعه وأطلقوا سراحه (٥) .

ومن المشكلات الداخلية التى واجهها السلطان برقوق ما هو معروف باسم ثورات

---

(١) Sauvaget, J : Noms Et Surnoms Des Mamlouks, J.R.A.S. p. 47 ,Paris 1950.

(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٩١ .

(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١٨ أ .

(٤) راجع ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ١٠٤ وما بعدها .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٦٤ .

العربان وهم الفلاحون والبدو (١)، ومع أن البدو اشتغلوا بأعمال شبه زراعية وشابهوا الفلاحين إلى حد ما فإن مركزهم الاجتماعي كان أعلى مستوى من مركز الفلاحين، نظراً لأنهم كانوا يؤدون خدمةحربية ويشتركون فى الجيش المملوكى بكتائب احتياطية، كما كان أمراؤهم مسئولين عن حفظ النظام والأمن فى البلاد والقرى مقابل حصولهم على إقطاعات وإعفاءات معينة (٢). وكانت العادة المملوكية القديمة أن يعين السلطان على كل قبيلة من قبائل العربان أميراً منها ويكتب له تقليداً سلطانيا بذلك، ويلبس الأمير المعين «تشريفا أطلس» أسوة بأقرانه فى الترتيب الإقطاعى (٣).

وفى سلطنة برقوق الثانية اتخذت ثورات العربان فى مصر صورة عصيان وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج. أما عربان الشام فإنهم شاركوا أعداء السلطان فى صراعهم ضده. ورغم أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هوارة من البحيرة إلى بعض بلاد الصعيد(٤)، فإنهم لم يكفوا عن العصيان، بل انتشروا فى أرجاء الوجه القبلى وامتد عصيانهم حتى نواحى أسوان وأذعنت لهم سائر العربان وصاروا طوع قيادهم (٥)، وأدى ذلك بالسلطان برقوق إلى تعيين نائب قوى للوجه القبلى لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمرى.

على أن أهم ثورات العربان التى هددت دولة المماليك الثانية هى ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابى (٦) سنة ٧٩٦هـ — ١٣٩٤ م— أى فى السنة الثانية عشرة لحكم السلطان برقوق بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد الضاربين حول الكرك بجنوب فلسطين (٧).

وسبب هذه الثورة أن الشريف جمال الدين محمود العنابى أرسل كتاباً إلى موسى

---

(١) Piloti: l'Egypte Au Commencement Du XV siecle, pp. 18—19,

(٢) Poliak; Les Revoltes Populaires pp. 256—257.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٤) المقريزى : البيان والإعراب ص ٦٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٩ .

(٦) حضر الشريف جمال الدين محمود العنابى مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجنه بالكرك، وأفضى هذا الشريف إلى السلطان بأسرار صحت عنده فيما بعد حتى قدمه على كثير من رجال دولته، ورتب له فى كل شهر ألف درهم.

راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ .

(٧) كان الأمير موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد مسجوناً قبل ذلك بخزانة شمايل بالقاهرة هو وأقاربه وإخوته لأمور نقمها عليه السلطان برقوق ثم أفرج عنه.

راجع نفس المصدر والجزء والصفحة .

ابن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالنزول قريباً من القاهرة، ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمورلنك ، وجاء فى الكتاب أن الشريف العنابى اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافه فى أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد ، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابى الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون فى الخطة .

غير أن كتاب الشريف جمال الدين محمود العنابى وقع فى يد على بن الطبلاوى والى القاهرة وقتذاك ، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق (١) وأسرع برقوق بالقبض على الشريف جمال الدين العنابى وشريكه وعذبهما ليقرا على من اشترك معهما فى المؤامرة ، فلم يعترفا بشىء سوى أنهما استعانا بطائفة من مماليك بركة الترك .

والخلاصة أن السلطان برقوق تخلص من هذه المؤامرة بأن ترك الشريف جمال الدين محمود العنابى وشريكه يقضيان نحبهما فى العذاب الأليم (٢) .

غير أن السلطان برقوق لم يطمئن على أحواله الداخلية فقبض على خمسمائة من العربان بنواحى ببا ، واستولى على نحو خمسين من جيادهم ، كما قبل فى نفس الوقت عقد الصلح مع نعير بن حيار أمير آل فضل بالشام بعد أن جاء نعير إلى القاهرة سنة ٧٩٧هـ ودخل عند السلطان وفى رقبته منديل ، فخلع عليه السلطان برقوق وأبقاه فى إمرته (٣) .

ثم عاد عرب هوّاره يهددون السلطان برقوق فى ربيع الآخر سنة ٧٨٩ هـ — مارس سنة ١٣٩٦م — حين أرسل إليه على بن غريب أمير عرب هواره بمنع القود السنوى من العربان والخيل ، وأرسل إليه السلطان برقوق الأمير نوروز الحافظى رأس نوبة، فقبض نوروز على علىّ بن غريب وأولاده وإخوته وأقاربه ونحو أربعة وثلاثين من أكابر عربانه ، فأمر السلطان بسجنهم (٤) . بيد أن عرب هواره حين سمعوا بهذا ثاروا وقتلوا الأمير قطلوبغا الطشتمرى نائب الوجه القبلى ، ثم اتجهوا إلى أسوان واضطروا واليها إلى الفرار إلى بلاد النوبة بعد أن نهبوا بيته والمدينة ، وإزاء هذا ولى السلطان برقوق عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلى بالإضافة إلى وظيفته فى ولاية منفلوط ، وأمره بالتوجه إلى أسوان ، ولكن عمر لم يتمكن من القبض على الثوار (٥) . وظل العربان يناصبون

(١) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٦ .
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ١٠٠ .
(٣) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٨٤ .
(٤) ابن دقاق : الجوهر الثمين ، المجلد الثانى ورقه ٢٣ أ
(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٩ ب .

السلطان برقوق العداء حتى استطاع إقماعهم سنة ٨٠١ هـ – سنة ١٣٩٩ م بعد أن جرد لهم تجريدة بقيادة ستة مقدمين (١) .

ويبدو أن خوف السلطان برقوق من قيام سلطان عربي دفعه إلى استخدام العرب بالجيش (٢) . ودليل هذا ما ذكر عن استعانة برقوق بعرب هواره سنة ٧٩١ هـ – سنة ١٣٨٩ م (٣) ، وما قدمه العرب من معونة للسلطنة المملوكية الثانية فى صد غارات تيمورلنك ، حيث أسهم عرب البحيرة بستة آلاف فارس ، وعرب الشرقية بألفين وخمسمائة ، وأسهمت باقى القبائل بنحو ألف وخمسمائة فارس (٤) .

وليس من شك فى أن قوة السلطان برقوق وتتبعه لكل حركة من حركات العربان وضع حدا لهذه الثورات حتى تكاد تخلو السنوات الأخيرة من حكمه من الثورة أو العصيان .

ويمكن القول إن السلطان برقوق تمكن من تثبيت دعائم دولة المماليك الثانية بعد أن قضى على العصبية التركية ، وحدّ من نفوذ العربان وواجه كل هذه الحروب والفتن فى شجاعة وقوة .

على أن هذه الحروب والفتن لم تشغل السلطان برقوق من القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية التى صار لها أكبر الأثر فى تدعيم كيان دولته ، ومن هذه الإصلاحات إبطاله الكثير من المكوس التى كانت عبئاً كبيراً على الناس (٥) . ثم إنه أقام جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحرى ، هذا الجسر الذى عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين. وسبب إقامة هذا الجسر أن ماء النيل ابتعد عن الضفة الشرقية من تجاه القاهرة نتيجة الجسور الضعيفة التى أقامها السلاطين السابقون على الضفة الشرقية ، وحتى تقترب مياه النيل من هذه الضفة بدلا من ابتعادها ناحية الضفة الغربية ، أى ناحية الجيزة ، مما سبب متاعب كثيرة للناس فى حصولهم على الماء أو ركوبهم المراكب . وعهد السلطان برقوق بإقامة هذا الجسر إلى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ (النسخة المصورة بالجامعة العربية) راجع حوادث سنة ٨٠١ هـ .

(٢) Paliak : op. cit. p. 260.

(٣) راجع ما سبق بالفصل الثالث ص ٩٢ – ٩٣ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٥) راجع ماسبق بالفصل الثانى ص ٥٦ .

الأمير جهاركس (جاركس) الخليلى، أحد قواده المخلصين (١). وأنشأ السلطان برقوق جسراً على ضفة نهر الأردن بالغورطوله مائة وعشرون ذراعاً فى عرض عشرين، وأصلح خزائن السلاح بثغر الاسكندرية، وسوّرمدينة دمنهور ليقيها من هجمات البدو. وعمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقيها من هجمات البدو، كما عمّر زاوية البرزخ بدمياط (٢)، وقناة العروب بالقدس، وبنى بركة بطريق الحجاز إلى الحج. وجدد السلطان برقوق القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وزرع به بعض النباتات، وبنى صهريجاً للماء، ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلا تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة (٣)، ثم إنه اهتم بإصلاح قلاع سورية وخاصة قلعة دمشق التى أهملها السلاطين طوال القرن الثامن الهجرى، وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر فى مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما بعد (٤). ثم إن السلطان برقوق اهتم بالعلم إذ افتتح مدرسته التى بناها بين القصرين فى أثناء سلطنته الأولى فى احتفال عظيم، واستقدم لها عدداً من العلماء من كثير من أنحاء العالم العربى (٥)، ورتب لها صوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درساً للتفسير، ودرساً للحديث، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها فى كل يوم الخبز واللحم، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدراهم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضى والدور ونحوها (٦).

وفى شوال سنه ٨٠١ هـ — يونية سنة ١٣٩٩ م — مرض السلطان برقوق مرض الموت. وحين شعر بدنو أجله فى ١٤ من شوال، وخشى أن ينهار هذا البناء الذى كافح من أجله طويلا، فكر فى أن يعهد إلى أولاده بالحكم من بعده، ولذا استدعى الخليفة المتوكل، والأمير ايتمش، وقاضى القضاة، وسائر الأمراء، وأجلس الخليفة عند رأسه، والقضاة الأربعة بين يديه، وأوعز إلى الخليفة والقضاة أن يحلفوا الأمراء على عهده

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ص ٢٦٩ جـ ٢ — المقصود بالجسور هنا الطرق المرتفعة على جانبى النهر وفروعه لحفظ البلاد من أخطار الفيضان — راجع كذلك ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٦ — ١٧.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١١٣ — ١١٤.

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١١٥.

(٤) Ziadeh : Urban life, p. 85.

(٥) راجع السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٣٥ — ٢٣٦.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١١٣.

بالسلطنة لأولاده من بعده ، وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم على التوالى ، وأن من يتولى السلطنة منهم لا يخالفه أحد ، وأن يستمر جميع الأمراء فى وظائفهم حسب ترتيبه ، وأن يكون ايتمش أتابكاً لصغرسن فرج . وفى ليلة الجمعة ١٥من شوال سنة ٨٠١ هـ - ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩ م توفى السلطان برقوق بعد أن جاوز من العمر ستين سنة (١).

ومن الإنصاف أن نذكر طرفاً عن شخصية السلطان برقوق . ذلك الرجل الذى امتاز بهذه العقلية الفذة فى وسط مملوكى طغى عليه الضعف والجهل فى آن واحد . تحدث عنه العينى بأنه « كان حسن القامة ، عريض الكتفين ، فصيح السلطان ، ذكى الفهم ، عالماً بألوان الفروسية ، ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة وتدبير حسن ، وكان على درجة كبيرة من العقل والرزانة والصبر والتحمل .. .. لم يشتهر بشرب الخمر إلا أنه كان يشرب القمز ومشروباً يسمونه التمربغاوى فى يومى الأحد والأربعاء مع الأمراء (٢) » . وامتدحه الخطيب بأنه « كان كثير الإحسان للمحتاجين محباً لأهل العلم والخير والدين ، متواضعاً معهم ، ولم يعرف لأحد من السلاطين قبله هذه الصفات » (٣). والخلاصة أن السلطان برقوق لم يشتغل باللهو والطرب كما فعل السلاطين الأواخر فى دولة المماليك الأولى ، ولكنه يؤخذ عليه كثرة مصادراته للدواوين والولاة والكشاف والوزراء وأرباب الوظائف من أجل تدبير أمور مملكته (٤) ، ومع أنه حاول وقف تيار الرشوة . فى بداية سلطنته فى الوظائف المختلفة فإنه فشل (٥) كما فشل فى إيقاف تيار غش النقود (٦) ، مما كان له أكبر الأثر فى الأحوال الاقتصادية وقتذاك .

وإذ حاول السلطان برقوق أن يؤكد مبدأ وراثة العرش الذى عرف فى بيت قلاون ، فإن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الجراكسة فيما بعد (٧) . حقيقة لم يكن فى وسع أحد من مماليك السلطان برقوق أن يعارض فى تنفيذ وصيته لفضله عليهم ، فسلطنوا ابنه فرج فى

---

(١) ابن تغرى النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٤ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٦٢ ، ٦٣ – القمز عبارة عن لبن مصنوع محمض وكان القمز يسكر راجع ابن إياس جـ ١ ص ٢٦٩ – أما التمربغاوى : فهو شراب صنعه الأمير تمربغا سنة ٧٩٧ هـ من الزبيب أعجب به السلطان برقوق وسمى التمربغاوى : راجع الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٤٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ ب .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٦٤ .

(٥) المقريزى : المقفى الكبير جـ ٣ ورقة ٢٨ .

(٦) الأسدى : كتاب التيسير والاعتبار ورقة ٤٣ .

(٧) Devonshire : l'Egypte Musulmane p. 93

١٥من شوال سنة ٨٠١هـ — ٢٠من يونيه سنة ١٣٩٩ م ولقبوه بالناصر، وجعلوا أيتمش أتابكاً له ، ولكن سرعان ما ناصب الخاصكية — بزعامة الأمير يشبك الخازندار — الأمير أيتمش أتابك السلطان فرج العداء ، بسبب ما بدا بينهم وبين باقى كبار الأمراء المناصرين لأيتمش من التنافس على النفوذ ما دام السلطان طفلاً . وما زال الخاصكية بالسلطان حتى طلب من أيتمش أن يرشده . كما نجحوا فى طرد أيتمش من القلعة فسكن خارجها . غير أن نجاح الخاصكية فى إبعاد أيتمش تبعه قيام صراع بين حزب أيتمش الذى لم يرض أفراده بهذا التشريد، وبين حزب يشبك الخازندار الذى استحوذ على النفوذ (١). وانتهى الصراع بانتصار حزب يشبك الخازندار سنة ٨٠٢ هـ — سنة ١٤٠٠ م (٢) .

وما لبث أن انضم حزب يشبك إلى الحزب الثائر على فرج فى سورية . واجتمعت فى سورية الفئات المملوكية الثائرة على فرج بزعامة الأمير جكم نائب دمشق ، وشيخ المحمودى نائب طرابلس، ويشبك الخازندار ، ومع أن جميعهم من مشتروات السلطان برقوق الجراكسة ، اتفق الثلاثة على الاستقلال بحكم سورية ، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة ، والتقدم إلى القاهرة لخلع فرج (٣) . وظل فرج عاجزاً عن إقماعهم حتى تقدم هؤلاء الثوار فى ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ لحصار القلعة . ولم ينقذ فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم ، فتمكن جيشه من هزيمتهم ، ففروا إلى سورية ولكنهم عادوا فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ فبراير سنة ١٤٠٥ م ، واشتركوا فى خلع فرج الذى اختفى فى بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه . . ولم تكن هنالك أمام الثوار فرصة لترشيح أحدهم للسلطنة دون أن يحدث بينهم صراع دموى عنيف ، ولذا اكتفوا مؤقتاً بسلطنة أخيه عبد العزيز (٤) . غير أن عبد العزيز لم يستمر فى السلطنة طويلا، إذ ظهر فرج فجأة ودخل بحزبه القلعة من باب خلفى وخلع أخاه وسجنه ، وأعاد نفسه إلى السلطنة بعد أن بقى مختفيا تسعة وستين يوماً ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٠٨ هـ — أبريل سنة ١٤٠٥ م . واستمر فرج فى السلطنة حتى ١٥ من المحرم سنة ٨١٥ هـ — يناير سنة ١٤١٢ م(٥). ولم يكن معنى هذا أن الأمراء أجمعوا على بقاء فرج طول هذه المدة فى السلطنة ، أو اعترفوا بضرورة بقاء السلطنة فى

(١) المقريزى : السلوك (النسخة المصورة) ج ٣ ورقة ١٣ .
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦١ ، ١٦٦ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣١٨ — ٣١٩ .
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٦٨٨ .
(٥) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٠ .

بيت برقوق ، ولكنهم ظلوا طوال هذه المدة ينازعون السلطان فرج . وشغلهم عن خلعه عاملان : أولهما إعداد الجيوش لصد هجوم التتر وغيرهم من أعداء دولة المماليك الثانية ، وثانيهما أن شخصية السلطان برقوق كمؤسس لدولة جديدة قوامها عنصرهم ظلت مدة طويلة ذات أثر فى أذهان مماليكه فلم يفكر أحد منهم فى خلع السلطان فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر ، حتى إذا انمحت شخصية السلطان برقوق من نفوس مماليكه خلع شيخ المحمودى نائب دمشق السلطان فرج وقتله ، وسلطن الخليفة المستعين فى ٢٠ من المحرم سنة ٨١٥ هـ (١). وجعل الأمير شيخ المحمودى هذه الخطوة وسيلة لاغتصاب السلطنة لنفسه (٢) . ولكن محاولته سنة ٨٢٣ هـ لإبقاء السلطنة فى بيته فشلت بدورها كما فشلت محاولات السلاطين ططر سنة ٨٢٤هـ سنة ١٤٢١م . وبرسباى سنة ٨٢٥هـ — ٨٤١هـ وجقمق سنة ٨٤٢ هـ — سنة ٨٥٧ هـ وإينال سنة ٨٥٧ هـ — سنة ٨٦٥ هـ فى تولية ابن كل منهم السلطنة بعده ، ولم يستمر حكم الواحد منهم أكثر من شهور أو أيام ، ومرجع هذا كثرة أحزاب المماليك بسبب توالى السلاطين فى دست الحكم وإفساح السلطان الجديد لمشترواته للظفر بالقوة والسلطة ، فضلا عن الإكثار من عددهم مما أوجد نوعاً من الصراع المستمر بين هؤلاء المشتروات والقرانيص وأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر (٣) ، وصارت السلطنة مجالاً للصراع بين أكثر الأمراء هيبة أو أبرزهم شخصية .

وهكذا صار المماليك فى دولة المماليك الثانية ينتخبون للسلطنة أوفرهم حظا من الكفاية والمقدرة ، أو أكبرهم سنا فى بعض الأحيان ، ولم يكن هؤلاء فى غالب الأحيان سوى الأوصياء أو أكثر الأمراء نفوذاً فى مصر أو سورية . ومنذ ذلك الحين تقلصت سلطات السلطان المطلقة ، وانتهت شيئاً بعد شىء إلى العدم وأصبح السلطان هو الأول بين أقرانه (٤) . Primus Inter Pares ، ذلك أن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه الأوليجاركية العسكرية ممثلة فى زعماء المماليك المقدمين ، وكان هؤلاء شديدى الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية ، فعهدوا فى تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار المماليك من بلادهم الأصلية (٥) .

---

(١) العينى : السيف المهند ص ١٩٢ .

(٢) الهيثمى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ٣٢ أ ،

Demombynes : La Syrie A l'Epoque Des Mamlouks ; intr. p. XXV.

(٣) راجع العرينى : الفارس المملوكى ص ٦٧ ب .

(٤) انظر Hitti : Hist. of the Arabs : p. 694

(٥) Brockelmann,C : Hist. of Islamic Peoples : p. 236

ومعنى هذا أن دولة المماليك الثانية اصطبغت بصبغة جديدة هى الصبغة الجركسية ، وهى التى أصبحت أهم الصفات التى ميزت دولة المماليك الثانية عن دولة المماليك الأولى ، وكان السلطان برقوق هو البادئ بهذا الاتجاه ، ذلك أنه منذ أن جلب والده وأقاربه سنة ٧٨٢ هـ – سنة ١٣٨٠ م ، وهو يوالى جلب الجراكسة من بلادهم وتشجيع التجار على جلبهم . ومن تجار السلطان برقوق الذين عاونوه فى هذه المهمة عثمان بن مسافر ومحمود شاه اليزدى (١) . وعلى حين بلغ عدد الجراكسة فى بداية سلطنة برقوق نحو ألفى مملوك ، ارتفع هذا العدد فى نهاية حكمه إلى خمسة آلاف مملوك جركسى (٢) ، من بين عدد مماليكه الذين قدرهم العينى بنحو عشرة آلاف مملوك (٣) .

ويعتبر السلطان برقوق أول سلطان مملوكى اتجه هذا الاتجاه العنصرى . ووضح هذا التمييز العنصرى فى تقديم مماليكه الجراكسة على الترك والروم وما تبع هذا من إقطاعهم الإقطاعات الكبيرة وتوظيف شبابهم فى الوظائف الكبرى ، حتى إنه كثيراً ما أعلن رأيه صراحة فى قوله « هم أولاد عمى وعشيرتى » (٤) ولم تأت سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩م حتى كان كل نواب سورية وأصحاب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة (٥) .

وبلغت حرب الإبادة التى شنها السلطان برقوق على العناصر التركية أن القلقشندى الذى أنهى موسوعته : «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» سنة ١٤١٢م ، ذكر أنه فى وقته «قلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقايا أولادهم» (٦) فضلا عن أن حروب تيمورلنك فى وسط آسيا أوقفت جلب العناصر التركية ، وأدى هذا إلى تغير واضح لا فى العناصر التى كونت الجيش المملوكى فحسب ، بل فى حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية كذلك ؛ إذ أصبح الجراكسة الطبقة الأرستقراطية بين باقى العناصر المملوكية – وكما كونت العناصر التركية رأس النظام الإقطاعى فى دولة المماليك الأولى كون الجراكسة رأس هذا النظام فى دولة المماليك الثانية (٧) .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ١٨٩ ب .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٧ .
(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٦٣ .
(٤) كتاب قهر الوجوه العابسة ص ١٢ – ١٣ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٩١ .
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٨ .
(٧) Poliak : le Caractére Colonial p.p. 242-244

ويبدو أن السلطان برقوق أراد بهذه الصبغة الجديدة أن يستغل الميل العنصرى فى ضمان بقاء السلطنة فى بيته؛ ولكن قدر للسلطان برقوق أن يرى نتيجة هذا الاتجاه العنصرى فى أواخر أيامه إذ رغم اعتزازه بالجراكسة فإنهم لم يبقوا على إخلاصهم له ، وذلك أنه فى ١٩ من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ - سنة ١٣٩٨ م دبر الأمير على باى - رأس نوبة الأمراء وأحد الأمراء الجراكسة الذين اعتز بهم برقوق - مؤامرة لخلع السلطان برقوق وهو فى طريقه إلى حفل فتح الخليج . ولكن أخبار هذه المؤامرة تواترت إلى السلطان فأخذ حذره . وعمل حتى فشلت خطة على باى ثم قبض عليه وخنقه (١) .

وأثرت خيانة هذا الأمير الجركسى فى نفس برقوق تأثيراً كبيراً جعلته يندم على اعتماده على بنى جنسه ، وبدت كأنما آماله تذهب بها الرياح لاسيما وأن الأمير على باى من مشترواته الذين رباهم ، وعامله السلطان كأحد أبنائه ثم جعله دواداره ، وأقطعه إقطاعاً وافراً . ولم تمض مدة طويلة حتى جعله مقدم ألف ورأس نوبة كبير ثم قدمه على كثير ممن سبقوه (٢) . وبلغت منزلته عند السلطان برقوق أنه «لم يرد له كلام ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة»(٣) . والخلاصة أن السلطان أمن له فى كل الأمور ، ولم يتصور أن يقدم على باى على الخيانة ، ولهذا لا نعجب أن تؤدى هذه الحادثة إلى حالة من الرعب سادت القلعة بعد اعتقال الأمير على باى وتعذيبه ، إذ خشى مماليكه الجراكسة أن يكون على باى ذكر واحداً منهم من قسوة العقوبة . ثم إن السلطان برقوق ندم أواخر أيامه على أنه لم ينتصح بنصيحة زوجته التركية «خوند الكبرى ارد» التى طالما حذرته من اقتناء المماليك الجراكسة ومن خطر اعتماده على عنصر واحد بقولها : «اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس : تتر ، وجركس ، وروم ، وتركمان، تستريح أنت وذريتك»(٤) . ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصيحة بعد حادثة على باى حتى إنه قال لزوجته « الذى كنت أشرت به على هو الصواب ولكن هذا كان مقدراً ، ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم (٥) » .

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشترواته الجراكسة ، وأخذ فى ترقية بعض العناصر الأخرى (٦) ، فإن هذه العناصر لم يقدر لها الغلبة فى

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٣٨ .
(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٥ ، ورقة ٣٦ .
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٤ أ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٨٨ .
(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٦) راجع نفس المرجع والجزء ص ٩٧ .

دولة المماليك الثانية لعاملين : أولهما أن عدول السلطان عن تماديه فى الاتجاه العنصرى جاء فى أواخر أيامه ، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالجراكسة من مشترواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى فى الجيش المملوكى حتى صار أكثر الأمراء والجند من الجراكسة ، وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى بلاد السلطنة المملوكية الثانية .

على أن تعصب برقوق لكل ماهو جركسى ، وما نتج عن هذا التعصب من آثار بعيدة وقريبة ، تعرض لنقد شديد من بعض المؤرخين المعاصرين الذين تشدقوا بمدح أيام دولة المماليك الترك ، ولم يستطيعوا كبت كراهيتهم للجراكسة . ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغرى بردى الذى امتدح حكم طشتمر العلائى التركى (سنة ٧٧٩هـ)، ووصفه بالازدهار على حين بيّن أن هذا الازدهار اختفى بعزله وقيام برقوق فى الحكم وتغييره لسياسة الدولة وتفضيله عنصره على غيره من العناصر المملوكية وإعطاء الجراكسة الإقطاعات الكبيرة والوظائف العالية مع صغر سنهم . ويبين ابن تغرى بردى المرارة التى سادت الأوساط المملوكية غير الجركسية فى قوله : «أى أمر أعظم من تقديم الأصاغر على الأكابر ، وهذا بخلاف المتقدمين (سلاطين الدولة الأولى) فإنهم حينما وجدوا فى شخص نجابة أو شجاعة قدموه وقربوه وأدنوه ، فكان لايلى وظيفة إلا من يستحقها» (١) .

على أن سياسة الجركسة التى بدأها السلطان برقوق جلبت لابنه السلطان فرج متاعب كثيرة سببها الجراكسة أنفسهم . ويرجع هذا إلى مخالفة السلطان فرج لاتجاه أبيه ، حيث مال إلى المماليك الروم لأن أمه «خوند شيرين» كانت رومية (٢) . وحين مال فرج إلى الروم وزاد فى إكرامهم حقد عليه الجراكسة وأرادوا تولية الأمير لاجين الجركسى أكبر الجراكسة سنا لولا أن قبض عليه سنة ٨٠٣ هـ (٣) — سنة ١٤٠١م— ثم عاد الجراكسة يتحينون الفرص لقتل فرج ، وعلى حين أخذ فرج يلهو مع مماليكه فى حمام فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ — سنة ١٤٠٥ م ، أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك رومى (٤) . وكان سبب اختفاء فرج فى هذه السنة إحساسه بكراهية الجراكسة له ، وأنهم لم يهتموا بشكواه فى موضوع اعتداء بعض المماليك الجراكسة عليه فى الحمام (٥) . واعتقد الجراكسة أن سلطنة أخيه عبدالعزيز ربما تبعد النفوذ الرومى الذى بدأ فرج فى تشجيعه . غير أن عودة فرج إلى عرشه فى جمادى الآخر

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ٢٢٨ ب .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٦٨ .
(٣) العينى عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٥٨ .
(٤) المرجع السابق والجزء ص ٣٢٩ .
(٥) المرجع السابق والجزء والصفحة .

سنة ٨٠٨ هـ كان ضغثاً على إبالة ، إذ تعقب السلطان فرج الجراكسة فى سلطنته الثانية حتى إنه قتل منهم فى يوم واحد مائة جركسى (١) ، ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيا فى سنة ٨١٤ هـ سنة ١٤١١ م (٢) ، ولما كان الجراكسة هم عماد هذه الدولة فإن السلطان فرج بانقسامه على نفسه جلب على سلطنته الخراب ، ولم يكن عجيبا أن يتمكن واحد منهم من قتله فى ١٧ من صفر سنة ٨١٥ هـ (٣) .

أما شيخ المحمودى الذى تسلطن بعد خلع الخليفة المستعين سنة ٨١٥ هـ فإنه يبدو أن هذه الروح العنصرية لم تعجبه ، وتردد فى سياسته نحو الجراكسة برغم أنه جركسى مثلهم ، فلم يظهر ميلا نحوهم ، كما أنه لم يظهر ميله للروم كما فعل السلطان فرج ، وأوضح ابن تغرى بردى سياسة شيخ فى قوله : « كان يقدم الشجاع ويبعد الجبان من كل جنس من المماليك ، لا يميل إلى جنسه ويترك غيره ، بل حيثما ظهرت له النجابة من الشخص قربه ولا يلتفت إلى جنسه كغيره من الملوك (٤) » . على أن ابن تغرى بردى عاد فذكر أن شيخ اعتمد على بعض الترك لأن أكثر أمرائه كانوا منهم (٥) . وكيفما كان الأمر فإن النكسة التى منى بها الجراكسة مهدت لتكتلهم لاستعادة قوتهم حتى ظهر أثر هذا واضحاً فى عهد برسباى .

ومهما يكن من شىء فإن هذه الصبغة المملوكية الجديدة جعلت تولى غير الجراكسة السلطنة أمراً غير مقبول لديهم (٦) ، وأصبح هذا الاتجاه حقيقة آمن بها الجميع وليس أدل على هذا من أن السلطان شيخ حين عهد إلى ابنه أحمد بالسلطنة عين الطنبغا القرمشى أتابكاً له ، وهو يعلم جيداً أن الطنبغا القرمشى ما دام تركيا فليس هناك من أمل لطمعه فى السلطنة ، لأنه على قول ابن تغرى بردى « كان من جنس غير جنس القوم لا غير (٧) » .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ ٦ ص ٢٥١ .
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٣٠ ب .
(٣) راجع المرجع السابق والجزء ص ٢٦٩ ، انظر ماسبق بهذا الفصل ص ١٠٧
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ورقة ٢٠٦ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ ٦ ص ٤٣٠ .
(٦) بلغ تمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية فى سياسة الجركسة أن برسباى أطلق من بقى من ذرية سلاطين الدولة الأولى من القلعة سنة ٨٢٥ هـ حتى تهتكوا فى المتنزهات وفسد حالهم وباع بعضهم أرزاقهم وصاروا يعيشون على الغناء مع الجوارى فى الأسواق (راجع ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٢٦٥) .
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ ٦ ص ٥٤٧ — وثمة أدلة أخرى على أن عنصراً غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى السلطنة طيلة الدولة المملوكية الثانية حالة الخليفة المستعين الذى جعل ألعوبة فى عملية التنافس السياسى حين انتخب سلطانا =

ولعل من أهم مظاهر هذه الدولة اتباع السلاطين والأمراء سياسة السلطان برقوق في جلب أقاربهم من بلادهم الأصلية فى أعداد كبيرة (١) . ومع أنه لاينقصنا الدليل على هذا الاتجاه فى عهد دولة المماليك الأولى فإنه لم يكن بهذا الشكل الملحوظ . وبلغ هذا الجلب أكثره فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى برغم مغالاة التجار فى أثمان المماليك الجراكسة لتهافت السلاطين على شرائهم (٢) .وإذ شمل الجلبان نسبة كبيرة من البالغين ، فإنه أصبح من الصعب أن يتدربوا تدريباً عسكرياً دقيقاً كما لوكانوا فى سن مبكرة عن هذا . وتولى هؤلاء الوظائف الكبيرة دون أن يتدرجوا فى الوظائف الصغيرة أو ينالوا ألوان التربية المخصصة لهم مع أهمية هذه التربية فى إعداد المملوك خلقياً وعسكرياً . ثم ساد فى دولة المماليك الثانية محاباة السلاطين وكبار رجال

=قبل سلطنة شيخ لمدة لم تزد على ستة شهور فى سنة ٨١٥ هـ - سنة ١٤١٢ م (راجع: Arnold The Caliphate (p.p 100-101) ثم فى الحالتين اللتين اعتلى فيهما السلطنة اثنان من الروم وهما: خشقدم وتمربغا (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة « كاليفورنيا » ج ٧ ص ٦٦٧ ، ٧٤٢ السيوطى : نظم العقيان ص ١٠٩) وفى سلطنة خشقدم فى ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥هـ حين كانت المؤامرات تدبر لخلع السلطان أحمد بن إينال دارت الاتصالات بين بعض الأمراء لسلطنة الأمير جانم نائب الشام لأنه « رجل عظيم ومن الجنس » (نفس المرجع والجزء ص ٦٦٧). وإذا انقسم المماليك فرقاً وتمسكت كل فرقة باسم سلطانها برغم أنهم أصبحوا من القرانيص فإن أهم ما كان يعنيهم أن يتولى السلطنة واحد من فرقتهم ليمكنهم تحقيق مآربهم فى السيطرة على شئون الدولة . ولذا عرض الأمير جانبك المشد على الأمراء حسماً للموقف سلطنة الأمير خشقدم المؤيدى « فإنه من غير الجنس ، يعنى كونه رومى الجنس ، وأيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب فأعجب الجميع هذا الكلام » . (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) . ولعلنا نتساءل إنه ما دام الأمر كذلك فما سبب طول مدة خشقدم ؟ أما الإجابة فتتضح فى أن كثرة الفرق المملوكية جعلت هناك صعوبة فى سرعة إجماعها على خلع خشقدم (راجع Lane-poole : Hist of Egypt. p. 325) أما تمربغا الذى وصل إلى السلطنة فى ١٠ من جمادى الاولى سنة ٨٧٢ هـ — سنة ١٤٦٧ م . فإنه لم يرشح للسلطنة إلا بسبب عمله أتابكا للسلطان يلباى سنة ٨٧٢ هـ كما أنه كان بحكم أقدميته فى الإمارة مقدما للمماليك الظاهرية الجراكسة وذلك منذ عهد خشقدم (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ « كاليفورنيا » ص ٧٥٧ — ٧٥٨) وتوهم تمربغا أن السلطنة لن تخرج عن الروم حتى إنه اختار قايتباى الجركسى والرجل الثانى فى فرقة الظاهرية الجراكسة أتابكا للعساكر . غير أن قايتباى أمكنه أن يجمع شمل الجراكسة ويخلع تمربغا دون كبير عناء وذلك فى ٦ من رجب من السنة نفسها (نفس المرجع والجزء ص ٨٥٨) .

(١) راجع السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٩ ، ٣٠٧ .

(٢) البغدادى : عيون أخبار الأعيان : ورقه ٤٨١ .

الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والإقطاعات فى غير نظام (١) . وتبع هذا كثرة المصادرات وانتزاع الأوقاف وتوزيعها إقطاعات (٢) وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع مما أدى إلى ضعف الإقطاعيات (٣) .

ويمكن القول بأن الفترة الأخيرة لحكم الجراكسة كانت فترة حكم أصهارهم وأقاربهم ومن هؤلاء إينال وقايتباى (٤) . ولم يكن غريبا بعد هذا الاتجاه أن يأتى الجلبان من الجراكسة إلى مصر ، وخيال السلطنة فى رأس كل واحد منهم حتى إن واحداً من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرع والعرج سأل دلاله عن إمكان تولية مثله السلطنة (٥) .

ولاشك ، أن سرعة تخريج المماليك دون أن يحفل السلاطين بالمدة الكافية لتعليمهم صار عاملاً من عوامل ضعف نظام الفروسية فى دولة المماليك الثانية ، ذلك النظام الذى كان ميزة امتازت بها دولة المماليك الأولى . وأنحى المقريزى باللائمة على السلطان برقوق لأنه كان البادئ بإفساد نظام الفروسية بسبب أنه «رخّص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج ، فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد (٦) » . ويضيف أيالون Ayalon إلى العوامل التى سببت ضعف نظام الفروسية منذ أول دولة المماليك الثانية عاملاً آخر هو إهمال تدريبات الفروسية والتمرينات الحربية ، التى كانت من ألزم الأمور لتربية الفارس المملوكى فى الدولة الأولى ، تلك التمرينات التى اعتمدت على السيف والنشاب والقوس ، واستبعد أيالون Ayalon أن يكون سبب الضعف طريقة استخدام الأسلحة النارية فى الجيش المملوكى وقتذاك (٧) . والواقع أنها ترجع إلى العوامل الداخلية التى أدت إلى فساد عام فى المجتمع الحربى المملوكى ؛ ومن أهم هذه العوامل – إلى جانب ماذكرنا – إبطال السلطان

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٤٣ ب ، ٤٥٦ أ ، جـ ٢ ورقة ٦٢ أ ، جـ ٣ ورقة ٢٥ ب .

(٢) المقدسى : نزهة الناظرين ص ٢٥٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ « كاليفورنيا » ص ١٩٥ – ذكر ابن تغرى بردى فى نفس المرجع والجزء ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ كيفية فساد الإقطاعات وأوضح أن مملوك الأمير حصل على ثلاثة رواتب من الإقطاع ومن الجوامك ومن راتب سيده ، كما أوضح فساد الإقطاعات بسبب كثرة المغارم والظلم المستمر وقلة نظر الحكام فى إحكام البلاد .

(٤) راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٦٤ ، ٢١٠ .

(٥) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١ .

(٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٧) Ayalon : Gunpowder & Firearms. p. p. 52-54

برقوق عادة الركوب إلى الميدان ، وكانت تعتبر من محاسن دولة المماليك الأولى إذ كانت عادة السلاطين أن يصلوا صلاة العيدين فى الميدان بالقلعة ، ثم يشاهدون تمرينات الفروسية ولعب الأمراء بالكرة بعد الصلاة ، غير أنه حين حدثت حادثة الأمير على، اى سنة ٨٠٠ هـ — سنة ١٣٨٩م — صلى السلطان برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة ، لخوفه من المؤامرات وهجر الميدان (١) ، وهجره من جاء بعده من السلاطين ، واقتصرت التدريبات بشكل محدود على الحوش السلطانى (٢) .ثم ازداد ضعف نظام الفروسية أيام السلطان فرج بن برقوق لتفضيل المماليك الراتب النقدى ، وانقطاع الرواتب من اللحوم وغيرها حتّى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم حتّى صار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره (٣) . وأضاف المقريزى عوامل أخرى أسهمت فى ضعف هذا النظام فى قوله: « وبقى الجلب من المماليك من الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط أشجار وغير ذلك . واستقر رأى الناصر فرج على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم ، فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفسا ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضاً عن الدين ، مافيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتّى إنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه (٤) » .

واقتضت أحوال الدولة الجديدة من السلطان برقوق عدة تغيرات فى نظم الحكم والإدارة . وأول هذه التغيرات ما أدى إلى ضعف منصب الوزارة حتّى كادت تتلاشى ؛ ومع أن هذه الوظيفة كانت أجل الوظائف وأرفعها رتبة فى أوائل دولة المماليك الأولى(٥) لكن

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع ابن تغرى بردى : منتجات من حوادث الدهور ص ١١٨ : ظلت هجرة الميدان فى عهود باقى السلاطين حتّى عهد الغورى حين بدأ فى صفر سنة ٩٠٩ هـ يوليه ١٥٠٣ م بإنشاء ميدان كبير رغبة فى عرض قوة مصر وفرسانها أمام رسل الصفوى وابن عثمان مع استمرار استخدام الأسلحة النارية راجع .

Ayalon : op. cit p. p.57-58

(٣) المرجع السابق والجزء ص ٢١٤ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٥) كان أول مملوك تولى الوزارة فى الدولة المملوكية الأولى هو سنجر الشجاعى (٦٩٣ هـ ١٢٩٤م) وقد ساد اعتقاد فى هذا العصر مؤداه « أن الوزارة إن لم يتقلدها مملوك فسد الحال » ولذا فإن السلاطين اكتفوا بإضعاف شأن الوزارة دون إلغائها . راجع

Ayalon : Studies, 111 p, 61.

استحداث نظام نيابة السلطنة قلل من قيمتها ، واقتصر متوليها فى دولة المماليك الأولى على التحدث فى الأمور المالية ، ووزعت باقى اختصاصات الوزير على ثلاثة : هم ناظر المال ، واختص بتحصيل المال وصرف النفقات ، وناظر الخاص وعهد إليه بتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين ، والثالث هو كاتب السر واختص بالتوقيع فى دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالا"(١) . أما السلطان برقوق فإنه ركز السلطة فى يده ، وعمل على إضعاف شأن الوزارة بإنشاء الديوان المفرد الذى أقام فيه ناظراً وشادين وكتابا ، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الاستادار وقرر أن يصرف مايتحصل منه فى جوامك مماليكه المشتروات ، ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيراً من أعمال مصر وبذلك قوى جانب الاستادار وضعفت الوزارة(٢) ، حتى اقتصر اختصاص الوزير على التحدث فى أمر المكوس ، فيحصلها من جهاتها ويصرفها فى شراء اللحم وحاجات المطبخ وغير ذلك من حاجات إنفاق القصر السلطانى . وبلغ من ضعف شأن الوزارة آنئذ أن سعد الدين نصر الله بن البقرى وصفها بقوله «الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش ، يشترى (الوزير) اللحم والحطب وحوايج الطعام ، وناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير والصوف والنصافى والسنجاب وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص فى القديم فقد بطل (٣) » .

والخلاصة أن منصب الوزارة كاد يتلاشى منذ عهد السلطان برقوق إذ وزعت اختصاصات الوزير بين أربعة ، وهم كاتب السر والاستادار وناظر الخاص والوزير ، فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات والعزل ونحو ذلك فى دار العدل وفى داره ، وأخذ الاستادار التصرف فى نواحى أرض مصر والتحدث فى أمور الدواوين السلطانية وفى كشف الأقاليم وولاية النواحى وفى كثير من أمور الوظائف ، وأخذ ناظر الخاص جانباً كبيراً من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها فى متعلقات الخزانة السلطانية ، وبقى للوزير شىء يسير جداً مما كان يتحدث فيه ، فاقتصر على النظر فى المكوس وبعض الدواوين ومصارف المطبخ السلطانى والسواقى ، كما صار مرجع ناظر الدولة وشاد الدواوين وناظر بيت المال وناظر الاهراء ومستوفى الدولة ، وناظر الجهات . أما ناظر البيوت وناظر الاسطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره(٤) .

وثمة تغير آخر فى نظم الحكم والإدارة أحدثه السلطان برقوق وهو الإكثار من

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، راجع كذلك
Poliak : Feudalism : p. 4.

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

عدد الحجاب حتى بلغ عددهم ستة بعد أن تراوح عددهم فى دولة المماليك الأولى بين ثلاثة أو أربعة حجاب (١). وكانت رتبة الحجبة فى دولة المماليك الأولى رتبة جليلة ، وتأتى فى الترتيب الوظيفى بعد نيابة السلطنة وأطلق على أكبر الحجبة حاجب الحجاب . والحجبة وظيفة من وظائف أرباب السيوف يجلس صاحبها بدار العدل لينظر فى مخاصمات الأمراء والأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات ، ونحو ذلك تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمشاورة النائب . وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند . وكثيراً ماقام الحاجب مقام النائب فى غيبته أو اعتقاله(٢) . ويبدو أن السلطان برقوق زاد من عدد الحجاب بسبب كثرة مؤامرات الأمراء وكثرة الخلافات بينهم وذلك حتى يمكنه الاستعانة بهم فى القبض على المتآمرين منهم مجرد صدور أمر السلطان .

ولم يكن أحد من الحجاب فى دولة المماليك الأولى يتعرض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية ، غير أن ازدياد عدد الحجاب منذ عهد برقوق تبعه اتساع سلطته حتى صا للحاجب الحكم بين الناس مع بقاء سلطة مكاتبة الولاة فى مختلف الأعمال والأقاليم(٣)

وفى عهد السلطان فرج ازداد عدد الحجاب حتى بلغوا ثمانية . ولكن الحجاب تبعاً لهذه الكثرة العددية لم ينلهم على الإمرة إقطاع ،وإنما ارتزقوا من النظر فى مظالم الناس ، وصار الحاجب يحكم فى الناس جميعاً حتى فى الأحكام الشرعية ، مما أدى إلى تنافس بين الحجاب والقضاة على النظر فى قضايا الناس،حتى صار الحاجب يأخذالغريم من باب القاضى ويتحكم فيه بضربه أوأخذ ماله دون أن يلومه أحد على ذلك(٤) .

واستحدث السلطان برقوق نيابة الوجه البحرى ونيابة الوجه القبلى . ولم تكن هناك بالوجهالبحرى سوى نيابة الإسكندرية التى رتبها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٨ هبسبب كثرة عدوان الفرنج على الإسكندرية . وفى عهدالسلطان برقوق أصبحت دمنهور مقرنائب الوجه البحرى . وسبب إنشاء هذه الوظيفة هو كثرة ثورات العربان فى البحيرة ، بل إن السلطان برقوق جعل لنائبها أهمية كبيرة . ويؤيد هذا الرأى ماذكره القلقشندى أن نيابة دمنهور « ليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة ولاية حرب كبيرة (٥) ».

وترتب على هذا التغيير الإدارى أن جعل للوجهالبحرى كاشفاً من أمراء الطبلخاناة يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة ، ومقره ميت غمر ولكنه صار يرجع

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٩٧ .
(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٩ .
(٣) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩ ، ٢١٩ — ٢٢٠ .
(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢١٩ — ٢٢٠ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥ .

فى كل أموره إلى نائب الوجه البحرى (١) . وإلى جانب هذا أبقى السلطان برقوق على وظائف الولاة التى عرفت فى دولة المماليك الأولى فى الوجه البحرى فى بلبيس وفى منوف والمحلة ؛ ولكن جعل مرجعهم جميعاً إلى نائب الوجه البحرى (٢) .

ثم إن ثورات العربان بالصعيد إلى جانب الأخطار التى هددت البلاد من الجنوب جعلت السلطان برقوق ينشئ نيابة أخرى بالوجه القبلى صار مقرها أسيوط وأصبح نائبها فى رتبه نائب الوجه البحرى بل لعله أعظم شأناً منه ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها (٣) . على أن هذه الوظيفة قبل عهد السلطان برقوق لم تكن لها هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد ولذا تولاها وقتذاك كاشف أطلق عليه والى الولاة . وحين ازدادت الأخطار التى هددت البلاد من النوبة والحبشة استحدث برقوق وظيفة والى أسوان ، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والى قوص . والخلاصة أن الوجه القبلى صار فيه خمسة ولاة فى البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص وأسوان ، وجميعهم تابعون لنائب الوجه القبلى (٤) .

ثم إنه نظراً للأخطار الخارجية التى أحدقت بالسلطنة المملوكية الثانية فى بدايتها ، جعل السلطان برقوق نواب الثغور والبلاد الواقعة على الحدود من مقدمى الألوف بعد أن كانوا فى الدولة الأولى فى رتبة أقل . ومن هذه النيابات عينتاب ودرنده وشيزر والأبلستين وإياس وطرسوس والبيرة (٥) .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٥ ، ٦٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٧ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٤ — ٢٥ .
(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢٦ .
(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

الفصل الخامس

دولة المماليك الثانية وجيرانها حتى سنة ١٤١٢م

ظهور تيمورلنك فى الشرق الأوسط ـ علاقته بدولة المماليك الثانية ـ موقف السلطنة المملوكية الثانية من الدولة العثمانية ـ دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوبية والروادس حتى سنة ١٤١٢ م ـ سياسة السلطان برقوق ازاء بلاد المغرب ـ برقوق وفرج وامارة مكة ـ اليمن والسلطنة المملوكية الثانية ـ علاقة السلطان برقوق بالحبشة والنوبة وآثارها .

اقترن قيام الدولة المملوكية الثانية على يد السلطان برقوق بظهور نفوذ هذه الدولة بين الدول التى تاخمت حدودها الشرقية ، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان برقوق رغبة فى التمتع بحمايته وطلب معونته ، لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيها . ولم يتأخر السلطان برقوق فى أن يجعل من دولته حصناً وملاذاً لجيرانه ، حتى إن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٧٨٥ هـ ـ سنة ١٣٨٣م إلى السلطان برقوق برغبتهم فى إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان برقوق سارع السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنيابة السلطنة فى بلده(١) .

والواقع أن خطر التتار فى الشرق الأوسط وَضَحَ فى هذه السنة حيث ظهر تيمورلنك (٢) ، واستولى فى سرعة مدهشة على بلاد ماوراء النهر ، وجعل سمرقند عاصمة لبلاده ، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان(٣) . ثم

---

(١) راجع العسقلانى : إنباء الغمر ج١ ص ٢٠١ .

المقريزى : السلوك ج٣ ص ٤١٦ ، ٤٦٢

(٢) أصله من قبيلة جوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التترية وهو حفيد قراشور نويان وزير جقطاى الابن الثانى لجنكيزخان ، أطلق عليه تيمور كوركان ومعناه صهر الملوك ؛ وأصل اسمه « تمر » ثم أضيف إليه « لنك » ومعناه الأعرج لإصابته فى فخذه حين كوّن عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج ـ وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أرضهم حتى وصل إلى الملك ـ راجع ابن عربشاه : فاكهة الخلفا ص ٢٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) Sykes : A History Of Persia : VII P.P. 281-202

زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦ م وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى . ومن هناك أرسل تيمورلنك إلى مجد الدين عيسى حاكم ماردين يستدعيه . غير أن حاكم ماردين الذى احتمى بالسلطنة المملوكية الثانية ، أرسل إلى تيمورلنك يعتذر عن الحضور قبل أخذ رأى السلطان المملوكى فى هذه الزيارة(١). وغضب تيمورلنك لهذا الرد . ورغبة منه فى إثارة روح العداء بين مجد الدين عيسى والسلطان برقوق عاود تيمورلنك الكتابة اليه بقوله: « ليس لصاحب مصر بملكك حكم »(٢) ، كما أوضح له أنه لايهدف من وراء هذا سوى إقامة علاقات الود معه. وبرهن لصاحب ماردين على صدق نواياه بإرساله خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير (٣) . ولم ينتظر تيمورلنك رد صاحب ماردين إذ رحل فجأة فى سنة ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م عن تبريز واتجه إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ليفتحها فى غزوات سريعة مفاجئة ، ويبدو أن تيمورلنك لم يكن يهدف إلا إلى أن تدين له كل ملوك الأرض بالطاعة ، وأن تظهر شخصيته المخيفة بين شعوب العالم المعروف وقتذاك كفاتح يقود جيشاً جراراً ، وبكلمة منه تتحول مدينة عظيمة إلى رماد وينحسر سكانها أمامه (٤) .ولاشك أن قيام دولة مملوكية جديدة اعترفت لها الدول المجاورة بالطاعة ، أوارتبطت معها بأواصر الصداقة والتحالف فى الوقت الذى قام فيه تيمورلنك بالتوسع رغبة فى إذلال حكام البلاد المفتوحة وإظهار قوته فى العالم المعروف وقتذاك ، جعل وجود هذه الدولة شجاً فى حلقه . على أن اتساع رقعة البلاد التى فتحها جعل من الصعب أن تبقى كل هذه الدول ضمن أملاكه فى وقت واحد ، ولم يكن أمام هذه الدول سوى أن تستجير بالسلطان برقوق بدليل أن تيمورلنك حين ترك تبريز أواخر سنة ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م أسرع قرامحمد التركمانى واستعاد بلاده ، ثم أرسل إلى السلطان برقوق يخبره بعودته إلى عرشه وأنه ضرب فى تبريز السكة باسم السلطان، ودعا له فيها على منابره ، وسأله أن يكون نائباً بها عنه(٥) .

وعلى حين استعد مجد الدين عيسى صاحب ماردين ليبعث برسله إلى برقوق ينبئه بما جرى بينه وبين تيمورلنك ، عاد تيمورلنك ، سنة ٧٩٥ هـ — ١٣٩٣ م فجأة وهاجم بغداد ، فازداد خوف مجد الدين عيسى ، وأسرع فى إرسال

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٣ .
(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة ؛ الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ أ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ (الخطية) ص ٧٠٦ .
(٤) Malcolm : Hist. Of Persia PP 482-483.
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٩٥ .

الرسل إلى السلطان برقوق طلباً لعونه السريع (١) . وبيّن مجد الدين عيسى فى رسالة إلى السلطان برقوق كيف أن تيمورلنك خدع السلطان أحمد بن أويس الجلايرى حاكم بغداد(٢) ، بعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو سنة ١٣٩٣م ، ثم بعث برأسه إلى بغداد كما بعث بالخلع والسكة إلى أحمد بن أويس وطمأنه بأنه لن يغير على بلاده ، وأنه لايطلب سوى ضرب السكة فى بغداد باسمه .فلبس أحمد بن أويس الخلعة وطاف بها شوارع بغداد ونفذ مطالب تيمورلنك . ولم يشعر أحمد بن أويس إلا وتيمورلنك يقترب من بغداد ومن غربيها ، وهى الناحية التى لم يكن ينتظر أن يقوم تيمورلنك بهجومه منها . فأسرع السلطان أحمد بن أويس بقطع الجسر عن هذه الناحية ، ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر (٣) . فتقدم تيمورلنك بجحافله لحصار بغداد سنة ٧٩٥ هـ - يولية سنة ١٣٩٣ م . وبرغم هذا فإن تيمورلنك لم يستطع دخول بغداد إلا بعد أن استمر حصاره لها مدة شهرين ، قتل فى أثنائها أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها (٤) . ومن بغداد أرسل تيمورلنك ابنه ميران شاه فى أثر ابن أويس فأدركه بالحلة (٥) ونهب ماله ، وسبى بعض حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه (٦) ، وتمكن أحمد بن أويس من النجاة بنفسه فى نحو ثلاثمائة فارس وهم شبه عراة ، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان برقوق(٧) .

ويبدو أن السلطان برقوق لم يفزع لهذه الأخبار التى أنبأه بها صاحب ماردين ، إذ دأب السلطان برقوق على تأمين الحدود الشرقية لبلاده بإرساله العسكر إليها منذ سنة

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ .

(٢) هو السلطان أحمد بن أويس بن حسن بن حسين بن اقبغا بن أيلكان الجلايرى تولى الحكم فى بغداد سنة ٧٨٤ هـ بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس وهو من سلالة المغول الذين اجتاحوا العراق راجع العينى : السيف المهند ص ١٨ - ١٩ .

(٣) Yazdi : Zafarnama VI, P.434.

(٤) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٥) مدينة بين الكوفة وبغداد - راجع ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٢٢

(٦) Grousset : L'Empire Des Steppes .P, 512

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٣ - بدأت علاقة السلطان أحمد ابن أويس بالسلطان برقوق منذ سنة ٧٨٥ هـ حين بعث إلى السلطان برقوق هدية بمناسبة توليه السلطنة واشتملت الهدية على فهد وصقر وقماش . ثم حرص ابن أويس على استمرار علاقات الود بالدولة المملوكية الثانية حتى سنة ٧٨٨ هـ - راجع المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤١٦ وما بعدها .

٧٨٩ هـ — ١٣٨٧ م حين سمع بتحركات التتار على هذه الأطراف الشرقية (١) ، كما أن السلطان برقوق عرف أن تيمورلنك يعمل ألف حساب له ، فضلاً عن أن تيمورلنك لم يكن قد نظم أحوال بلاده الداخلية (٢) . على أن السلطان برقوق سرعان ما تقدم لحماية أحمد بن أويس ومعاونته ، حين أرسل إليه ابن أويس من حلب يطلب عونه على إعادة ملكه والانتقام من عدوه ، فكتب السلطان برقوق إلى نعير أميرا آل فضل بإكرامه ، والقيام له بما يليق به . ثم جمع السلطان برقوق مجلساً من كبار الأمراء لبحث أمر ابن أويس . واتفق الجميع على السماح لابن أويس بالحضور إلى القاهرة ريثما تتم الاستعدادات لمعاونته على إعادة ملكه . وأنفق السلطان برقوق على سفر ابن أويس من حلب إلى القاهرة نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار ، فضلاً عن بعثة سلطانية رافقت ابن أويس (٣) ، واستقبل السلطان برقوق أحمد بن أويس استقبالاً رائعاً ليتردد صدى هذا الاستقبال فى بغداد إذ خرج الأمراء للقائه فى ٢١ من ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) ، ونزل السلطان برقوق معهم ومع العسكر إلى الريدانية . وحين قرب أحمد بن أويس من مسطبة السلطان نزل عن فرسه ، ومشى عدة خطوات ، فتقدم إليه حاجب الحجاب وقدم له الأمراء حيث قبل صغارهم يده واحداً بعد واحد ، على حين عانقه كبار الأمراء (٤) . ثم قام السلطان برقوق ومشى نحو عشرين خطوة ، فأسرع ابن أويس نحوه حتى التقيا . ولم يقبل السلطان برقوق أن يقبل ابن أويس يده بل عانقه ، ثم بكيا وسارا متشابكى الذراعين نحو المصطبة السلطانية ، حيث دارت المناقشات فى طريقة إعادته إلى عرشه . وخلع السلطان على ابن أويس بالخلع ثم عاد إلى القلعة حيث امتلأت صحراء الريدانية والشوارع المؤدية إلى القلعة بالناس ، الذين خرجوا لاستقبال ابن أويس . وبعد انتهاء الموكب اتجه ابن أويس إلى قصر الضيافة فى بركة الفيل حيث أرسل له السلطان مائتى ألف درهم فضة ، ومائتى قطعة قماش وثلاثة أفراس وعشرين مملوكاً وعشرين جارية (٥) .

وكأنما أراد تيمورلنك أن يجدد طريق فتوحاته المقبلة فأرسل من بغداد سنة ٧٩٥ هـ — ١٣٩٣ م إلى القاضى أبى العباسى أحمد صاحب قيصرية وتوقات وسيواس ، رسالة سبه فيها وهدده « بقوته التى لا تقاوم » ، وبشره « بالمستقبل المظلم » إن لم يعلن طاعته له . غير أن أبا العباس أحمد الذى تحالف مع السلطان برقوق منذ ٧٨٥ هـ قطع رءوس كبار

---

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٤ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٤٥ — ٤٦ .

(٤) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٧ أ .

(٥) ابن تغرى بردى : للنجوم جـ ١٢ ص ٤٦ — ٤٧ .

رسل تيمورلنك وعلقها فى أعناق باقى الرسل ، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقين إلى السلطان العثمانى بايزيد مع كتابين تعجل فيهما مساعدة كل منهما . وسر كل من السلطانين برقوق وبايزيد برسالة أبى العباس وما قام به، ورد كل منهما على رسالته باستعداده لتقديم كل عون لصاحب قيصرية لمقاومة تيمورلنك (١) .

ثم إن تيمورلنك أرسل من بغداد فى نفس السنة « أكتوبرسنة ١٣٩٣ م » بعثة إلى السلطان برقوق رأسها رجل ذو مواهب وقدرات خاصة هو الشيخ سواح ، وزوده بهدايا عديدة وقيمة ، وكتاباً إلى السلطان برقوق(٢) ، وحين وصلت بعثة تيمورلنك إلى الرحبة على الحدود الشرقية للدولة المملوكية الثانية (٣) . أرسل متولى تلك الناحية إلى السلطان برقوق يستأذنه فى تمكينهم من الدخول إلى البلاد ، وأعلمه أن معهم هدية من ضمنها مماليك وجوار وغير ذلك .فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم بمكانهم وإرسال ما معهم من الهدايا وكتاب تيمورلنك . وحين وصلت الهدايا إلى السلطان برقوق وجد فيها نفس الأسلوب الذى تعامل به مع ملوك الدول التى قهرها ، إذا اشتملت الهدية على أسرى من أعيان بغداد وقضاتها (٤) .كما أن كتاب تيمورلنك إلى السلطان برقوق اشتمل على نوع من التهديد ، إذ طالب تيمورلنك رسوله أن يناقش السلطان المملوكى فى أسباب الأضرار الجسيمة التى لحقت ممتلكات المغول من حكام مصر السابقين ، وأن يلفت نظر السلطان برقوق إلى الاضطرابات التى قامت بها الدولة المملوكية الأولى عقب موت ايلخان بن سعيدسنة ٧٣٦هـ–١٣٣٥م(٥) ، وطالب كذلك بطرد أحمدالجلايرى(٦). ثم بين تيمورلنك فى كتابه أن حدود بلاده أصبحت تمتد من سمرقند إلى حدود العراق العربى الملاصقة لحدود بلاد الدولة المملوكية الثانية .وأن أهالى هذه المنطقة يتمتعون بحمايته ، وعلى السلطان المملوكى أن يرعى حدود الجوار وأن يقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل ،وأن يمكن تجارهمن ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين (٧).

غير أن الكلام المعسول الذى ورد فى نهاية هذه الرسالة لم يعجب السلطان برقوق .

---

(١) Ibn Arab Shah : Tamerlane, pp. 89-91

(٢) مير خواند : كتاب روضة الصفا جـ٦ ص ٢٠٩ .

(٣) Bouvet : L'Empire Mongol, p. 49.

(٤) السلوك جـ٣ خطية ص ٧١٤ .

(٥) راجع الملحق الأول ص ١٦٧ ، وانظر . Browne : Litrary Hist. of Persia, VIII, p. 159.

(٦) Bouvet : OP. Cit. p 49.

(٧) Price : Memoirs, VIII. P 160; Yazdi : Op. Cit. pp.440-441

وبرغم أن السلطان خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك ، فأمر نائبه بقتل رسل تيمورلنك(١) ، وأعلن عداءه الصريح له ، فإنه كان على حق فى مسلكه مع هذا الداهية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً .

ووضح أن ثمة تعاوناً فعلياً بدأ فى هذه السنة (سنة ٧٩٥ هـ) بين السلطنة المملوكية الثانية وجيرانها من الدول الإسلامية فى الشرق الأوسط من أجل صد خطر التتار الذى هددهم جميعا . يضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن قرا يوسف التركمانى زعيم قبيلة قرةقو يونلو « الشاة السوداء »(٢) اشتبك وقتذاك مع « أطلمش توجين » قائد « قلعة أونيك(٣) » وقريب تيمورلنك . وبعد أن اعتقله أرسله إلى السلطان برقوق الذى سجنه بدوره(٤) . وبرغم غضب تيمورلنك من هذا العمل الجرىء ومن رد كل من السلطان المملوكى وصاحب قيصرية ، وتحدى كل منهما له ، فضلاً عن تحدى السلطان العثمانى له كذلك ، فإن تيمورلنك لم يتحرك نحو واحد منهم خشية أن يتقدم لمعاونته الآخران (٥) .

بيد أن تيمورلنك وجد أن بقاءه فى بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المئونة بها (٦) . ولذا اتجه نحو الشمال الغربى ليهاجم أعداءه على انفراد قبل أن تتوحد جهودهم . فاستولى فى ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ — مارس ١٣٩٤ م على ماردين بعد حصار قاس ، ثم اكتسح أرمينيا الكبرى ، ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركمانى ، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة فى شمال شرق البحر الأسود . ولم تقف السلطنة المملوكية الثانية مكتوفة الأيدى إزاء تحركات تيمورلنك ، بل اصطدمت جيوش نائب حلب ، ونائب ملطية ، بطلائع جيوش تيمورلنك عند الرها . وتمكن جيشا النائبين من هزيمتها وأسرا من اللنكية عدداً كبيراً على حين هرب باقى التتار(٧) .

وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمورلنك ، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش . وعلى حين كانت الاستعدادات لتعبئته على قدم وساق ورد على السلطان برقوق كتاب آخر من

---

(١) مير خواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

(٢) تقع على حدود جورجيا — راجع Grousset : Op. Cit. p 512

(٣) تقع هذه القلعة فى كورة باسين فى ارزروم — راجع مراصد الاطلاع جـ ١ ص ١٠٤ .

(٤) خواند امير : حبيب السير جـ ٣ ص ٥٦ .

(٥) Ibn Arab Shah : Op. Cit. P 94.

(٦) Yazdi : Op. Cit. P 442.

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

تيمورلنك(١) . وبدأ تيمورلنك كتابه بتهديد السلطان برقوق بالويل والثبور إن لم يعلن تبعيته له ، كما اتهمه بظلمه لرعيته وقبوله الرشوة من الحكام وغير ذلك من عناصر الإثارة ، ثم عنفه على قتله لرسله السابقين ، وأنكر عليه إيواءه لأحمد بن أويس ، وطالبه بإرساله ورد جوابه (٢) .

أما السلطان برقوق فإنه كتب رده مبدوءاً بالبسملة ، ثم أخذ فى نقد ماجاء فى كتاب تيمورلنك من العبارات الشديدة اللهجة واتهم تيمورلنك بالكفر والإلحاد وأعلن نفسه حامياً للإسلام ضد أى اعتداء ، وأنه لن يعلن طاعته إلا « لأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين » (٣) .

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة واضحة عن مدى استعدادات السلطان برقوق لمواجهة تيمورلنك إذ تذكر أنه جند كل القوى للسفر معه إلى الشام (٤) .ونظراً لأن منطاش ترك خزائن الدولة خاوية فإن السلطان اضطر لاقتراض مبالغ طائلة من تجار القاهرة لتغطية النفقات (٥) ، ثم قبض على ثلاثمائة من الأجناد البطالين وسجنهم بخزانة شمائل (٦) ، وأشرف السلطان برقوق بنفسه على ترتيب الجيش الذى سار « فى أبهج زى وأفخر هيئة وأحسن ملبس ، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة (٧) ». وسار السلطان فى ربيع الثانى سنة ٧٩٦ هـ — أبريل سنة ١٣٩٤ م على رأس هذا الجيش الضخم ، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه .

ويبدو أن تيمورلنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع السلطان برقوق لاسيما وأن طقتمش ايلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده ، فاضطر إلى الاشتباك معه ، ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه (٨) .

---

(١) راجع نص الكتاب بالملحق رقم ٢ ص ١٦٨-١٦٩ .

(٢) راجع المقريزى : السلوك جـ ٣ الخطية ص ٧٢٠ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٦٥ — ٦٦ .

(٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٦٦ — ٦٧ — راجع نص الخطاب بالملحق رقم ٣ ص ١٧٠ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧٢٤ .

(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ٣٦٢ — ٣٦٣ .

(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٧٨ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٨) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

أما السلطان برقوق فإنه برغم علمه برحيل تيمورلنك فإنه استمر يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦ هـ – مايو ١٣٩٤ م ومن هناك أرسل عسكره إلى الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمورلنك (١) . وفى دمشق لمس السلطان برقوق موقف الدول المجاورة مرة أخرى ، إذ أن رسل طقتمش ، الذى تقهقر أمام تيمورلنك إلى حدود بلاده ، قدموا يعرضون معاونة طقتمش للسلطان ورغبتهم فى عقد معاهدة دفاعية مع السلطان ضد تيمورلنك (٢) . كما أرسل السلطان العثمانى بايزيد رسله يعرض رغبته فى محالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمورلنك (٣) . ورد السلطان برقوق على كل منهما رده بالشكر فقط على هذا العون ضد الخطر التتارى (٤) ، غير أنه لم يرتبط مع واحد منهما بارتباط معين ، بل جعل همه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية الثانية فقط .

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة (٥) ببغداد ، وزوده « بالأمراء والمماليك والخيل والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه » (٦) . ثم بعث أحمد بن أويس على رأس هذا الجيش إلى بغداد فى أواخر جمادى الثانى سنة ٧٩٦ هـ – يونية سنة ١٣٩٤ م فتمكن أحمد بن أويس بهذا الجيش المملوكى وبمعاونة قرا يوسف التركمانى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد . وأخذ فى بناء سورها وتعميرها (٧) .

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها ، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق كله إذا أصبحت بغداد تابعة لها ، ولو على هذه الصورة الشكلية التى أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً من قبل السلطان برقوق فيها ، وضربت سكتها باسم السلطان برقوق . ثم إنه حين شاعت أخبار هذا النصر أرسل السلطان العثمانى بايزيد إلى السلطان برقوق يخبره بأنه وضع تحت طلبه مائتى ألف مقاتل لعونه على حرب

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٦ .
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٨١ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٧ .
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧٣١ .
(٦) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٧١ .
(٧) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨ ، ذكر العسقلانى فى إنباء الغمر أن الأمير العربى نعير أرسل إلى السلطان برقوق أنه استولى على بغداد وخطب له فيها ، غير أن باقى المصادر أجمعت على أن أحمد بن أويس ، بمعاونة الجيش المملوكى ، طرد ابن تيمورلنك من بغداد واستولى عليها .

تيمورلنك ، كما قدم حكام الإمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك الثانية يعلنون طاعتهم للسلطان برقوق (١) :

غير أن السلطان برقوق الذى أحرز هذا النصر رأى أن يقف عند هذا الحد ، دون أن يهمل مراقبة حركات تيمورلنك ، ثم إنه حين بدا للسلطان برقوق ابتعاد الخطر التيمورى عاد إلى القاهرة بعد أن جدد قلاع سوريه وترك عدداً من العساكر كافياً للمحافظة على سلامتها (٢) .

بيد أن تيمورلنك رغم انشغاله فى غزواته لقلعة تكريت فى ربيع الأول سنة ٧٩٧ هـ – فبراير سنة ١٣٩٥ م ، وروسيا فى ربيع الثانى من السنة نفسها ، والهند سنة ٧٩٩ هـ وسنة ٨٠٠ هـ – سنة ١٣٩٨ م (٣) واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط ، لم يكف عن مناوأة السلطنة المملوكية الثانية ، إذ أرسل فى ديسمبر سنة ١٣٩٨م رسله إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريبه أطلمش . وحين وصلت الرسل إلى حدود سورية أمر السلطان برقوق بإبقائهم وإرسال الكتب التى معهم إلى مصر ، ثم أمر السلطان برقوق أطلمش أن يكتب إلى تيمورلنك كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه «من الخير والإحسان بالديار المصرية (٤) » . وأرسل السلطان برقوق كتاب أطلمش مع كتابه الذى تضمن أنه لن يطلق من عنده من جهة تيمورلنك إلا إذا أطلق تيمورلنك من هم عنده من جهة السلطان برقوق (٥) .

ومهما يكن من شىء فقد بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفزعت تيمورلنك حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلته أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضى أبى العباس أحمد صاحب قيصرية ، وما تبع وفاتهما من اضطراب بلادهما .

وأظهر تيمورلنك سروره لهذه الأنباء (٦) . واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالسلطان فرج ، وبدأ تيمورلنك يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ (خطية) ص ٧٣٣ ، ص ٧٤٧ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ (خطية) ص ٣٣ .
(٣) Browne : Op. Cit. P 193.
(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٤٥٢ .
(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٤ .
(٦) Ibn Arab Shah : Tamerlane P. 100

أن يتمكن السلطان المملوكى الجديد من ترتيب أموره ، أو محاولة الاتصال بالدول المجاورة ، وعلى الأخص الدولة العثمانية التى حمل تيمورلنك لها أشد الكراهية ؛ لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بنى قليج أرسلان ، الذين سبق أن احتموا بتيمورلنك (١) .

وفى صفر سنة ٨٠٢ هـ — يوليه سنة ١٣٩٩ م غادر تيمورلنك الهند ، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التى أزمع غزوها (٢) . ومن هناك كذلك أرسل كتبه إلى هذه الجهات ، ومنها كتاب بايزيد يطلب منه برقة ألا يساعد قرايوسف التركمانى أو أحمد بن أويس ، وأن يقف محايداً فى هذه الحرب القادمة معهما ، كما وقف هو محايداً فى حرب بايزيد مع الفرنج سنة ١٣٩٦ م (٣) ، غير أنه لم يكن من الميسور أن يتخلى السلطان بايزيد عن هذه الدول التى طلبت أن تكون فى حمايته ، فضلاً عن أن بايزيد أدرك تماماً نوايا تيمورلنك ، فرد على كتابه بكتاب شديد اللهجة جاء فيه : «وليس من عادة الأتراك أن يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم» . ثم أعلن أنه سيزحف عليه بجيش قوى يتبعه أينما ذهب (٤) .

وأدرك تيمورلنك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بايزيد أو غيره ، وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال فى بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده، فتقدم تيمورلنك فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٨٠٢ هـ — ديسمبر سنة ١٣٩٩ م ، واستولى على بغداد للمرة الثانية . أما السلطان أحمد بن أويس وحليفه قرا يوسف التركمانى فإنهما اتجها غرباً لائذين بالسلطان المملوكى حتى أشرفا على حلب ، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب فى نزولهما لديه ، غير أن دمرداش لم يكن مستعداً لتحمل نتيجة وجودهما فى حلب فى نحو سبعة آلاف من فرسانهما (٥) فقاتلهما بمعاونة عساكر دقماق نائب حماة . ولكن دمرداش هزم وفر إلى حلب ولحقه دقماق بعد أن فدى نفسه من الأسر بمائة ألف درهم (٦) ، وكتب ابن أويس وقرا يوسف إلى السلطان فرج يعتذران بأنهما إنما اضطرا إلى الاصطدام بجيوش نائب حلب وحماة دفاعاً عن أنفسهما ، وأنهما جاءا إلى بلاد الدولة المملوكية مستجيرين على عادتهما ، غير أن سوء سياسة الناصر فرج ومجلس المشورة من كبار أمرائه دفعتهم إلى اهمال كتب أحمد بن أويس

---

(١) دحلان : الفتوحات الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥ .

(٢) Lamb : La Vie De Tamerlane p. 204

(٣) حرب نيقوبوليس ، أنظر Yazdi : Zafarnama VII pp. 149—150

(٤) Ibid p. 150

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦٢ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٥ .

وقرا يوسف التركمانى ، ومناصبتهما العداء . وبدلاً من الاستعانة بقواتهما فى هذه الظروف الحرجة ، وبدلاً من ظهوره بمظهر والده فى سياسة الحرص على تزعم العالم الإسلامى والحرص على وحدته ، كتب السلطان فرج إلى نائب دمشق بمسيره لقتالهما ، فاضطرا إلى الالتجاء إلى السلطان بايزيد الذى أكرمهما ، وعقد معهما محالفة مما أثار حفيظة تيمور لنك على بايزيد وجعله يتقدم نحو حدود بلاد السلطنة العثمانية (١) .

وبدأ تيمورلنك عملياته الحربية بالإغارة على سيواس ونائبها أمير مصطفى تابع لابن عثمان (٢) . وهنا تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة سليمان بن بايزيد فى سنة ٨٠٣ هـ ــ يوليه سنة ١٤٠٠ م وحمل تيمورلنك على الجيوش العثمانية وهزمها ؛ وفر سليمان إلى أبيه فى مدينة بروصا ومعه حليفه قرا يوسف التركمانى، وأخذ تيمورلنك مدينة سيواس، «وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وهدم أسوارها وأزال بهجتها» (٣) .

غير أن ثمة خطأ آخر وقع فيه السلطان فرج وأمراء الدولة المملوكية الثانية فى هذا الوقت بالذات ، ولو لم يحدث لغيّر مجرى الحوادث ، ذلك أن السلطان العثمانى بايزيد طلب محالفة السلطان المملوكى فرج لإمكان الوقوف فى وجه الخطر التيمورى ، غير أن الذين بيدهم أمور الدولة رفضوا محالفة السلطان العثمانى بسبب تحركات الجيوش العثمانية عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائها على ملطية سنة ٨٠١ هـ . ويبين ابن تغرى بردى خطر موقف أمراء دولة المماليك الثانية من هذه المحالفة ، وأوضح أهميتها آنذاك فى قوله إن الدراية الحربية التى كانت تنقص الجيش المملوكى كان يمكن تعويضها من ناحية الجيش العثمانى فى فنون الحرب ، فى حين أن قلة عدد عساكر «ابن عثمان» يمكن أن يعوضها كثرة العساكر المملوكية (٤) .

وكيفما كان الأمر ، فقد تقدم تيمورلنك وزحف على ملطية فى ٢٥ المحرم سنة ٨٠٣ هـ ــ أكتوبر سنة ١٤٠٠ م وأبادها على عادته (٥) . ومن هناك أرسل تيمورلنك كتابه الأول إلى السلطان فرج . وفى هذا الكتاب فند تيمورلنك للسلطان فرج أخطاء أبيه، من قتله لرسله واعتقاله لأطلمش وغير ذلك ، وتوعده بالانتقام المريع إن لم يسارع بإطلاق سراحه ، وأنه سيصب انتقامه على الشعبين السورى والمصرى إن لم يجبه إلى مطالبه (٦) .

---

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٩٠ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٦٣ أ .

(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٦٣ ب .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢١٧ .

(٥) Ibn Arab shah : Tamerlene p. 116

(٦) Yazdi : Op. Cit VII p. 159 انظر الملحق رقم ٤ ص ١٧٢ .

وحين وصل رسل تيمورلنك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائبها – كالعادة – ليخبر السلطان أولا بمجيئهم. غير أن فرج، جرياً على تقاليد والده، أرسل يأمره بربط الرسل وإلقائهم في السجن. وأضاف هذا التصرف الشائن من جانب فرج دليلا آخر على جهله وأمرائه بأمور السياسة في هذا الوقت الذى تحرج فيه الموقف على حدود سورية. وحين عرف تيمورلنك هذا الأمر تحركت فيه مكامن الغيظ والرغبة في الانتقام مما فعله برقوق وابنه فرج في رسله؛ وقرر فوراً ترك الانتقام من السلطان العثمانى والزحف أولا على بلاد السلطنة المملوكية الثانية ليبيد كل ما فيها بالنار والسلاح (١).

زحف تيمورلنك في رجب سنة ٨٠٣ هـ – نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على البهسنا (٢). التى أعد نائبها «الأمير مقبل» عدته للدفاع عنها، غير أنه حين وجد ضخامة جيش تيمورلنك تملكه الذعر، وأرسل إلى تيمورلنك يعرض رغبته في التسليم مع الاعتراف بعجزه وحاجته لمعونة تيمورلنك، فأجابه تيمورلنك لما أراد وأحسن استقباله، وفى الحال سكت نقود جديدة باسم تيمورلنك، ودُعىَ له في خطبة الجمعة بهذه المدينة (٣). وبعد أن استولى تيمورلنك على البهسنا بهذه الصورة السهلة، زحف إلى عينتاب شمال حلب. وعلى الرغم من أن عينتاب امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإن مفاتيحها سُلمت إليه، وفتحت أبوابها، فعين تيمورلنك عليها نائباً من قبله، وفر نائب عينتاب إلى حلب (٤).

والعجيب أنه على حين تحقق الأخطار بدولة المماليك الثانية ويزداد الرعب في سورية من زحف تيمورلنك يزداد تنافس الأمراء في مصر على النفوذ، ويدبرون الفتن من أجل ذلك (٥). وتحت الظروف الاقتصادية والصحية السيئة التى أحاطت بالدولة، اجتمع السلطان فرج والأمراء بالخليفة والقضاة وأعيان الدولة لطلب المال من التجار للمعاونة في نفقة العساكر. ولم يكن في وسع القضاة الامتناع عن الفتوى في أخذ نصف الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبئتهم لقتال تيمورلنك (٦).

وتحايل تيمورلنك لصرف أمراء سورية عن القتال فكاتب سودون نائب دمشق أنه إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثمانى، وأنه بقدومه إلى مصر أراد أن

---

(١) Ibid : p. 160

(٢) البهسنا قلعة عجيبة بغرب مرعش وسميساط وهى من أعمال حلب. انظر مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٨٣.

(٣) Ibid : p.p. 163—164

(٤) Ibid p.p. 164—165

(٥) Grousset : Op, Cit. p. 527

(٦) المقريزى : السلوك (شمسية) مجلد ١ ورقة ٢٣.

تُضرب السكة باسمه ، وأن يذكر اسمه فى الخطبة ، ثم يرجع بعد أن يقر فى مصر سلطاناً يرضى عنه ، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطلمش قريبه المقبوض عليه (١) .. غير أن سودون نائب دمشق فوت عليه حيلته وأمر برسول تيمور فوسّط (٢) .

وإزاء هذا التحدى الصارخ من نائب دمشق ، زحف تيمورلنك على حلب التى اجتمع فيها نواب سورية بجيوشهم ، فنزل فى أول ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على بزاعة (إحدى قرى حلب) (٣) ، فتصدى له الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس ، وحدثت بينهما مناوشات جعلت تيمورلنك يتوقف قليلاً عن الزحف. وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش السوريين كان ضخماً ، وتكون من أحسن المحاربين ، وزود بأسلحة كافية لصد أى هجوم (٤) . غير أن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثير من الفرص وعرّض سورية للضياع ، وليس أدل على هذا من أن الأمير شيخ جمع نواب دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة فى حلب ، وعرض عليهم خطورة الموقف ، وقوة تيمورلنك ودهاءه ونصحهم بضرورة التعاون بينهم جميعاً ، وبين الأعراب والأكراد والتركمان لمواجهة هذا الخطر ، كما أشار شيخ فى هذا الاجتماع بغلق المدينة وضرورة خروجهم جميعاً إلى خارجها للقاء تيمورلنك ، ووضع خطة ملخصها أن يتقدم العرب والأكراد والتركمان لمناوشة تيمورلنك حتى يمكن للفرسان والمشاة من الجند السورى أن يهاجموه من جميع النواحى (٥) . غير أن هذه الخطة لم تحظ بقبول أكثر الأمراء . ومع أن نواب سورية فى عهد برقوق أسهموا بقسط كبير فى صد الإغارات الآسيوية عن دولة المماليك الثانية ، فإنه من المخجل أن يختلف الأمراء وقتذاك فى سورية على الزعامة فى هذا الوقت الحرج الذى تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب انصراف أمراء مصر كذلك إلى التنافس على النفوذ والسلطة (٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد عمد تيمورلنك مرة أخرى إلى سياسة التفرقة بين الأمراء ، فأرسل إلى دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون نائب دمشق ، وجاء فى كتاب تيمورلنك إلى دمرداش نائب حلب « إنا لما وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة .. فلما وصلنا إلى

---

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٢ .
(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٢٤ .
(٣) راجع الأنصارى : نخبة الدهر ص ٢٠٥ .
(٤) Yazdi : Op. Cit. VII p. 161
(٥) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٨٦ .
(٦) نفس المرجع ص ٨٧ .

العراق بلغنا موت برقوق ، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد ، فتوجهنا إليهم ، فأظفرنا الله بهم ، ثم رجعنا إلى الكرج ، فأظفرنا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب الصبى ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ، فشغلنا بسيواس ، وغيرها من بلاد ما بلغكم ثم قصدنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا فى الخطبة ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها ، ... ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا قريبنا أطلمش ، وإن لم تفعلوا ، فدماء المسلمين فى أعناقكم والسلام (١) » .

ونشر تيمورلنك بوساطة رسله وجواسيسه الذين انتشروا بين العساكر أن دمرداش كاتبه لاحتلال حلب (٢) . غير أن هذه السياسة لم تفلح لإدراك الجميع مكر تيمورلنك ودهاءه ، بل على العكس زادتهم تمسكاً وعزماً على القتال دون انتظار وصول السلطان . على أنه مما يؤسف له أنه لم تكن لهم خطة واضحة يرضى عنها الجميع ، بدليل أن دمرداش حين رأى مطاولة تيمورلنك ومهادنته ريثما ترتب الأمور ، اتهمه الأمراء بالعمل مع العدو ، وغضب دمرداش وبرأ جانبه بقتل رسول تيمورلنك ، واحتفظ برأيه لنفسه (٣) .

وعلى حين أخذ النواب فى الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب استولى تيمورلنك على قرية جيلان ، خارج حلب فى ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٠٠ م) - ثم تقدم لحصار حلب . وبرغم هذا الانقسام الذى ساد الأمراء بسبب خطة القتال ، فإن أهل حلب استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم ، وركبوا أسوار المدينة ، وقاتلوا تيمورلنك أشد قتال ، مما أخجل النواب وجعلهم يخرجون الجند خارج المدينة ، ورتبوا عساكرهم فوقف سودون نائب دمشق فى الميمنة ، ووقف دمرداش نائب حلب فى الميسرة وكوّن عساكر النواب الآخرين قلب الجيش . غير أن سوء التعبئة والجهل بالنظم الحربية ظهر حين وضع الأمراء المشاة من جند حلب وأهلها ونساءها ، وصبيانها ، فى مقدمة الجيش مما سهل على تيمورلنك اكتساحهم (٤) . ولم تجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة تيمورلنك لهم بجيوشه وفيلته ، ففروا قاصدين داخل حلب رغبة فى الاحتماء بأسوارها (٥) . فتتبعهم جيش تيمورلنك وهاجم المدينة بكل قواته التى قوّمت بنحو ثمانمائة ألف

---

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٧٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢١ .

(٣) Yazdi : Op. Cit. II p. 168

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢٣ .

(٥) Price : Memoirs VIII p. 330

جندى (١) ، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر مالا يدخل تحت حصر . وتناقل المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضا «حتى صارت الرمم طول قامة» (٢) . ولجأ تيمورلنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب ، فهجم أصحاب تيمورلنك عليهن وربطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف . ثم « صارت الأبكار تفتض من غير تستر والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام» وبذل عساكر تيمورلنك السيف فى عامة حلب وأجنادها ، حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى (٣) .

ومع أن القتال استمر أربعة أيام ، فإن تيمورلنك لم يستطع الاستيلاء على قلعة حلب (٤) ، التى نقل إليها الناس أموالهم ، والتى كافح فيها سودون ودمرداش كفاحا مريرا ، حتى أعلن تيمورلنك تأمينهم ومن معهم من الأعيان والقضاة . ولكنهم بعد أن اطمأنوا إليه أمر بحبسهم ، ثم سيق إليه من بقى من نساء حلب سبايا ، وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والآلات الفاخرة ووزعها على أمرائه وأخصائه ، أباح النهب والسلب والقتل فيمن بقى من أهل حلب ، ثم أمر بقطع الأشجار ، وهدم البيوت ، وإحراق المساجد حتى «جافت حلب وظواهرها من القتلى بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لا يجد الشخص مكانا يمشى عليه إلا وتحت رجليه رمة »(٥) . وتسلى تيمورلنك برءوس القتلى «فجعل منها منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع فى دور عشرين ذراعاً (٦) » . وقبض تيمورلنك على سودون ودمرداش ، وأرسل كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج عن أطلمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبيه وباقى الأسرى . ولكن السلطان فرج وأمراءه كانوا فى واد آخر .

وينعى ابن عربشاه على حكام حلب سبب هذه الهزيمة ويعزوها إلى سوء تدبيرهم مع قلة عدد عساكرهم فى وقت أخذ بعضهم يتهم الآخر بأنهم من عملاء العدو حتى فقدت بقيتهم الثقة فى قدرتهم على الدفاع عن المدينة . أما العسقلانى فيرى أن غباء

---

(١) Thoumin : Hist. De Sryie p. 245

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢٣ .

(٤) تسمى هذه القلعة الشهباء لبياض حجرها – راجع الأنصارى : نخبة الدهر ص ٢٠٢ .

(٥) القرمانى : أخبار الدول ص ٢٠٨ .

(٦) Yazdi : Op. Cit. VIII p. 176

دمرداش من أسباب هزيمة العسكر المملوكى خارج حلب ، إذ أن دمرداش أثار الفتنة بين التركمان والعرب حين أعان بعض التركمان على نهب أموال نعير أمير آل فضل ، فغضب نعير من ذلك وانسحب بعربة قبل حضور تيمورلنك ، وفقد دمرداش بذلك معونة العرب التى لم يكن يستهان بها فى مثل هذا الظرف (١) .

وبعد أن أقام تيمورلنك فى حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية «من سكانها وأنيسها» مظلمة بآثار الحريق ، وسار قاصداً دمشق ، ومر ابنه ميران شاه بمدينتى حماه وحمص واستولى عليهما ، وقام بنفس الدور الذى قام به والده فى حلب (٢) . ثم احتل تيمورلنك بعلبك التى دهش جنده من جمال أسوارها وعظمتها (٣) .

وأمّا أهل دمشق فإنه حين قدم عليهم نبأ استيلاء تيمورلنك على حلب وما فعله فيها ، وأنه فى طريقه إليهم ، ازداد رعبهم وتردد البعض بين البقاء فيها أو الفرار منها (٤) . وتحمس المخلصون منهم فى الدفاع عن مدينتهم ونادوا فى الناس بأن «من سافر نهب (٥)» وأن عليهم الرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها والاستعداد لقتال العدو ، وهكذا بدأ الناس فى تحصين المدينة ونصبوا المجانيق على قلعتها ، والمكاحل على أسوارها .

وكما قاوم أهل حلب أثبت أهل دمشق تصميماً رائعاً وإيماناً قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة ، حتّى ولو لم يحضر السلطان . وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخداع نائبها الجديد وهمّ النائب بالفرار ، رده العامة رداً قبيحاً (٦) .

والواقع أن تأخر السلطان فرج عن الحضور أضاع الكثير من الفرص لإبعاد الخطر التيمورى ، فضلاً عن أنه فقد احترام العالم الإسلامى لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك الذى «تمكنت عساكره فى مشاهد البلاد التى احتلها فى سورية ومزاراتها ومدارسها ودور الحديث بها والرباطات والجوامع والمساجد ومواطن العبادات وأطلقوا فيها النيران وأهانوا المصاحف وكتب العلم والحديث ورموها فى الطريق» (٧) . ولهذا لم يكد الشيخ عمر البلقينى والقضاة يركبون وينادون فى الناس « بالجهاد فى سبيل الله تعالى

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٥٣١ .
(٢) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٩٠ ب .
(٣) Yazdi : Zafarnama II p. 180
(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩٥ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢٧ .
(٦) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ .
(٧) البسطامى : مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار ورقة ١١٦ ب ، ١١٧ أ .

لعدوكم الأكبر تيمورلنك فإنه أخذ البلاد، ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والجوامع والمساجد، وجعلها اصطبلات للدواب، وأنه قاصدكم يخرب بلادكم، ويقتل رجالكم وأطفالكم ويسبى حريمكم» (١)، لم يكد ينادى هؤلاء بهذا النداء حتى انطلقت ألسنة الناس بالوقيعة بأعيان الدولة، مما دفع الأمراء إلى سرعة تعبئة الجيش والاتجاه بالسلطان إلى سورية وذلك فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ٨٠٣ هـ — ديسمبر سنة ١٤٠٠ م (٢).

ومن العجيب ألا يتقدم الجيش بسرعة لإنقاذ دمشق بل إن السلطان والأمراء حين وصلوا إلى غزة أقاموا بها أربعة أيام انتظاراً لأخبار جديدة (٣). وهناك عرض الأمير تغرى بردى — الذى عين أخيراً نائباً لدمشق — خطة لمواجهة تيمورلنك خلاصتها أن يبقى السلطان فى غزة بعساكره ويتوجه تغرى بردى إلى دمشق ليحرض أهلها على القتال، فى وقت تمتاز دمشق بحصانتها، ووجود مئونة بها تكفى مدة طويلة لا يستطيع تيمور معها بعساكره الكثيرة الوقوف أمامها؛ فإما أن يدع دمشق ويتوجه نحو السلطان إلى غزة فيتوغل فى البلاد ويصير بين عسكرين، وإما أن يعود إلى بلاده منهزماً لقلة ما فى طريقه من المؤن بسبب خراب البلاد التى مرّ بها، وهنا يتمكن السلطان من تتبع أثرهم وهزيمتهم (٤).

غير أن الأمراء لم يطمئنوا لخطة تغرى بردى؛ ولعل هذا لأنه كان رومياً، ولم يستطع السلطان بدوره السيطرة على الموقف بسبب ضعف شخصيته وكثرة الآراء، فانقسم جيش السلطان إلى قوات مختلفة اتجهت كل منها فى ناحية دون خطة موضوعة (٥).

وعلى الرغم من وصول السلطان فرج إلى دمشق فى ٦ جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ يناير ١٤٠١ م فإن الأمراء بها ظلوا منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض. وعاد الجراكسة يتهمون دمرداش نائب حلب، الذى تمكن من الفرار من الأسر، بالتواطؤ على هزيمة الجيش فى حلب، لأنه من الأتراك، وأنه فعل ذلك بغضاً فى الجراكسة، وأنه لو ثبت بعسكره لاستطاع هزيمة تيمورلنك (٦).

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس أهل دمشق

---

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٣ ورقة ١٧٥.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩.

(٣) Fischel : Ibn Khaldun And Tamerlane

(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٣١ — ٢٣٢

(٥) Ibn Arab Shah : Op. Cit. p 115

(٦) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ — ١٧٥

الذين أخذوا يبتهلون إلى الله بنصرته . وعسكر فرج بجيشه فى سهل قبة يلبغا على بعد ميلين من الأسوار القبلية لدمشق ؛ أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة — إحدى قرى دمشق — ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا فى نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكى . وظل على هذا الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة (١) . وفى المرة الأخيرة حمل تيمورلنك بنفسه على الجيش المملوكى ، فدفعته ميمنة السلطان وردته إلى موقفه بعد أن كبدته خسائر فادحة حتى اضطر تيمورلنك إلى أن يبعث إلى السلطان فرج مرة أخرى فى طلب الصلح على أساس إطلاق أطلمش ، وسك النقود باسمه ، وذكر اسمه فى الخطبة(٢) . واستقبل السلطان فرج رسول تيمورلنك فى هذه المرة على غير العادة بالحفاوة والإكرام اللائقين . وبعد عرض عسكرى كبير أمام رسول تيمورلنك ، أعيد الرسول محملاً بالهدايا ومعه رسول السلطان فرج حاملاً رده على كتاب تيمورلنك الثانى ، الذى وعد فيه السلطان فرج تيمورلنك بإطلاق أطلمش فى ظرف خمسة أيام ، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الود معه بعد هذا (٣) .

ولم يكد تيمورلنك يقرأ خطاب السلطان فرج حتى لمس من عباراته علامات الضعف ، فزحف على غوطة دمشق (٤) بعد ذلك بعشرة أيام ، فسلمت له دون قتال . وعُقد مجلس الأمراء للمشاورة فى أمر التقدم للهجوم على تيمورلنك بدلاً من انتظار وقوع الكارثة ، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكى ، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقى من قوات من أجل الدفاع فقط (٥) . وعاود الأمير تغرى بردى النصح فى ضرورة قبول الصلح فى هذه الظروف الحرجة ، وبسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة . فكتب السلطان فرج إلى تيمورلنك مرة أخرى بموافقته على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذى قام به بعض الأمراء فى الليلة السابقة ١٩ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ — سنة ١٤٠١ م ، وأنه سيطلق من عنده فى اليوم التالى . غير أن هذا الخطاب زاد موقف فرج ضعفاً ، ولا سيما أن عيون تيمورلنك أوقفوه على

---

(١) ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .
(٢) Yazdi : Op. Cit VIII p. 184 انظر الملحق رقم (٥) ص ١٧٣
(٣) شرف الدين على يزدى : ظفرنامة جـ ٢ ص ٣١٧ — انظر الملحق رقم (٦) ص ١٧٤
(٤) غوطة دمشق سهل يحيط بدمشق طوله نحو ١٨ ميلاً وفى أطرافه جبال عالية وترويه عدة أنهار راجع Le Strange : Palestine p. 33
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٣٥ .

حقيقة الحال فى داخل دمشق مما جعله يرقص موافقة السلطان فرج ، وتقدم لإحكام الحصار على المدينة (١) .

وحقيقة الحال أن السلطان فرج فقد كل أمل فى النصر بعد أن فوجئ باختفاء جماعة من أمرائه ، ومن المماليك السلطانية ، وتبعتهم جماعة أخرى ، وهرب الجميع إلى القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسى ؛ فاضطر بعض الأمراء إلى أخذ السلطان فرج وتتبعهم لمواجهة هذه الفتنة ، تاركين دمشق وأهلها وعساكرهم لقمة سائغة لتيمور ، وذلك فى ليلة الجمعة ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (٢) .

وعرف تيمورلنك هذه الحقيقة فنشر الذعر فى صفوف الجيش المملوكى حين قبض على ثلاثة من الجند وشوى اثنين منهم وأطلق الثالث ليذيع هذا النبأ ، كما أضرم ناراً فى أماكن متعددة ليبين للجيش المملوكى أن عساكره ملئوا جميع نواحى المدينة بقدر أماكن النار (٣) .

على أن خروج السلطان فرج على هذا النحو فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ — يناير سنة ١٤٠١ م — أدى إلى تسلل بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم ، وألقوا بأسلحتهم ليخف ذلك عن خيولهم وخوفاً من تتبع تيمورلنك لهم (٤) . وتتابع دخول الفارين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة ، وهم فى أسوأ حال بسبب ما تعرضوا له فى الطريق من الجوع والعرى (٥) .

أما العساكر الذين بقوا فى داخل دمشق فإنهم على الرغم من فقدان سلطانهم وهروب أمرائهم ، فإنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها ، ونادوا بالجهاد وتهيأ أهل دمشق للقتال دون أن يعلموا برحيل السلطان (٦) . ولكن تيمورلنك زحف عليهم بعساكره بعد أن اشتد عزمه حين علم برحيل السلطان . غير أن الدمشقيين قاتلوه من أعلى السور أشد قتال ، حتى ردوه بعيداً عن السور والخندق وأسروا عدداً كبيراً من جنده ، ثم أخذوا من خيولهم عدداً كبيراً وقتلوا منهم نحو الألف (٧) . وإزاء

---

(١) Yazdi : Op. Cit. p. p. 191—192. انظر الملحق رقم (٧) ص ١٧٥

(٢) Ibn Arab Shah : Op. Cit p. 141

(٣) دحلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٥٩ .

(٤) ابن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٥٢ .

(٥) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٥٣٣ .

(٦) Ibn Arab Shah : Op. Cit. p. 141

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٨ .

تصميم أهل دمشق على القتال اضطر تيمورلنك إلى معاودة التحايل فطلب الصلح ، ونجح فى هذه المرة إذ أرسل إليه الأمراء قاضى القضاة إبراهيم بن مفلح الحنبلى للمفاوضة على رأس بعثة من القضاة كان ابن خلدون واحداً منهم (١) .

وحين اجتمعت البعثة بتيمورلنك عرض عليهم تيمورلنك أنه لا يريد سوى أن يخرج إليه أهل دمشق «الطقزات» (٢) . ثم يعود ، وخدع ابن مفلح بكلام تيمورلنك وعاد ليثنى عزائم الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف حيث مالت طائفة إلى كلامه على حين صممت الأخرى على مواصلة القتال (٣) . وعلى الرغم من أن بعض الأمراء فى قلعة دمشق حاولوا جاهدين منع ابن مفلح من نشر رأيه ، فإن رأى ابن مفلح سرعان ما غلب بسبب مناداته بأن من خالفه قتل . فضلاً عن أن أكثر الأهالى حين لاحظوا احتراق خيمة السلطان وعرفوا أنه رحل إلى القاهرة كفوا عن القتال وسلموا بالأمر الواقع .

وإذ اتجه ابن مفلح ومعه بعض القضاة لإخراج « الطقزات » من باب النصر منعه نائب القلعة ، وهدد بإحراق المدينة . فأخرجوا الطقزات من السور ، واتجهوا إلى معسكر تيمورلنك الذى رحب بهم وعينهم فى وظائف عدة وردهم بأمان إلى أهل دمشق (٤) . وحين قرئ الأمان بالجامع الأموى فتح الباب الصغير (باب المدينة القبلى) ، ثم طمأن تيمورلنك الناس حين بعث بأحد أمرائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية ، وصلب تيمورلنك بعض عسكره الذين نهبوا بعض سوقة دمشق (٥) .

وانتقم تيمورلنك من المدينة أبشع انتقام؛ فلم يكتف بأخذ ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق ، بل أخذ كل أموال أهل دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع مافى المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش ، كما قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها (٦) . وبعد أن قسم

---

(١) Fischel : Op. Cit. p. p. 33—34

(٢) كانت عادة تيمورلنك عند أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف «تسعة» ويسمون ذلك «طقزات» والطقز باللغة التترية معناه تسعة . راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(٣) القرمانى أخبار الدول ص ٢٠٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٤٠ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ٦٤ .

(٦) المقريزى : السلوك ج ٣ مجلد ١ (مصورة) ورقة ٢٧ .

المدينة على أمرائه ، ونزل كل أمير بقسمة ، أجرى على أهل دمشق أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين ، وغمّ أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم ، كلما تنفس دخل فى أنفه حتى تكاد نفسه تزهق ، وإذا أشرف على الهلاك ، يخلى عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً . وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك ؛ فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو ابنته وهى توطأ ، وولده وهو يلاط به ، ويصرخ هو من ألم العذاب ، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط . وكل ذلك من غير تستر فى النهار بحضرة الملأ من الناس... كما رأى أهل دمشق أنواعاً أخرى من العذاب ، إذ أخذ التتار الرجل وشدوا رأسه بحبل كما وضعوا الحبال بكتفى الرجل ، وأخذوا يلوون بعصاه حتى تنخلع كتفاه . واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم ٢٨ رجب سنة ٨٠٣ هـ ـ فبراير سنة ١٤٠١ م بعد أن هلك فى هذه المدة من أهل دمشق خلق كثير (١) .

وحين عزم تيمورلنك على ترك دمشق دك معالم الحضارة فيها ، وأشعل النار بها فى يوم عاصف ، وعملت النار فى البلد ثلاثة أيام ، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموى وزالت أبوابه (٢) . وفنيت مساجد دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها . والخلاصة أن تيمورلنك ترك دمشق أطلالاً بالية ، وفيها أطفالها معرضين للجوع والموت ، وأخذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمرقند عاصمة بلاده حيث استخدم هؤلاء فى تجميل عاصمته (٣) .

على أن غزو تيمورلنك لسورية تمخضت عنه عدة نتائج ، أولها ما أصاب مدن سورية وقراها من نقص فى السكان ، فضلاً عما أصابها من الخراب ، حتى إن السلاطين بذلوا جهوداً كبيرة فى إعادة الحياة إليها وإصلاح ما أفسده تيمورلنك (٤) ؛ وثانيها اختفاء الكثير من الصناعات التى اشتهرت بها مدن سورية وعلى الأخص صناعة الزجاج (٥) . وثمة

---

(١) نفس المرجع والجزء والورقة .

(٢) ذكر على شرف الدين يزدى أن سقوف الجامع الأموى احترقت مصادفة غير أن المؤرخين العرب ذكروا أن تيمورلنك تعمد إحراقها وأيد هذا الرأى شاهد عيان هو الرحالة البافارى Schiltbeger الذى ذكر أنه بعد أن امتلأ المسجد بالناس أشعل تيمور فيه النار – راجع Schiltberger : The Bondage and Travels p. 23

(٣) Hitti : Hist. of The Arabs p. 701

(٤) راجع ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٧ و ٤٢ ، ٥٧ .

(٥) Huart : Hist. Des Arabes. T.II. p. 94.

نتيجة ثالثة لغزو تيمورلنك لسورية هو نشاط طرق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر ، بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب هؤلاء التتار فى طرق وسط آسيا وغربيها (١) .

أما صدى غزوة تيمورلنك لسورية فى القاهرة فإنه دوى عند عودة السلطان فرج بجيشه إلى القاهرة على هذه الصورة المزرية المفاجئة ، إذ ظن الناس أنه عاد بسبب هزيمة التتار له ، ومالبثت أنباء خراب المدن السورية أن لاحقت عودته ، فانتشر الرعب بين الناس ، وزاد سوء الأحوال الاقتصادية « لأن الناس أخذوا يبيعون ما عندهم ويستعدون للهرب من مصر خشية زحف تيمورلنك على القاهرة » (٢) . وغلت أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشا لشدة الحاجة إليها ، على حين هبطت أسعار المنقولات بسبب كثرة المعروض منها . ومما زاد الحال سوءاً أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال تجريدة أخرى لقتال تيمورلنك ، وفرض على سائر أراضى مصر وأوقافها ضرائب كثيرة ، ثم عاد فجبى من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً ، وأخذ يلبغا السالمى استاداره يهاجم الفنادق والحواصل فى الليل ، فمن وجده حاضراً من أصحابها ، فتح خزائنه ، وأخذ نصف مايجده فيها ، وإذا لم يجد صاحب المال ، أخذ جميع ما يجده ، كما استولى على ما وجد من حواصل الأوقاف (٣) . وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء حتى صاروا لايستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض (٤) .

على أن تيمورلنك بعد أن انتقم من السلطنة المملوكية الثانية اتجه للانتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثمانى . على أننا نلاحظ من حركات تيمورلنك أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه ، بل قصد أولاً من فتحه للبلاد الواقعة فى أطراف بلاده أن ينتقم ممن لم يعلنوا طاعتهم له . ولهذا بعد أن انتقم من السلطان المملوكى ودك معالم الحضارة فى سورية ، اتجه إلى الشمال ليفاجئ بايزيد قبل أن يفاجئه . ولعل هذا هو الذى أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع ، إذ وجد تيمورلنك السلطان بايزيد يقظاً لحركاته ، فإنه بعد أن اجتاز على حلب وماردين وأعاد تخريبهما اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد (٥) . ومن هناك بدأ يلتمس المعاذير للاصطدام بالسلطان العثمانى ، فأرسل تيمورلنك إلى بايزيد يعلن أن صاحب ارسنجا تابع له ، وأن أى تعد على أملاكه

---

(١) Ibid : p. 115

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ١٨٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٦٥ .

يعتبر تعدياً على أملاكه هو(١) . ثم بعث تيمورلنك إلى السلطان بايزيد أن يرسل إليه أحمد بن أويس وقرا يوسف التركمانى اللذين احتميا به وهدده بالزحف على بلاده إن لم يرسلهما إليه. وإذ أصبح الجيش العثمانى قوة لا يستهان بها خاصة بعد انتصار نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ م فإن بايزيد تحدى تيمورلنك ورد عليه رداً خشناً مما دفع تيمورلنك إلى الإغارة عليه فى سبعمائة ألف فارس وثلثمائة ألف من المشاة وذلك فى سنة ٨٠٥ هـ — يوليه سنة ١٤٠٢(٢) .

وحين وصل تيمورلنك إلى حدود الدولة العثمانية أرسل إليه أمانويل باليولوغوس إمبراطور القسطنطينية ، كما أرسل إليه الجنوية يعرضون عليه مساعدتهم بإرسال قوات من المشاة والفرسان . كما عرضوا الإسهام بالأموال اللازمة للحروب(٣) . ولم ينتظر تيمورلنك مساعدة هذا أو ذاك كما أنه لا يوجد مايشير إلى عقد محالفة مع الغرب ، بل تذكر المصادر أن تيمورلنك تقدم بسرعة ليهاجم بايزيد ، واستخدام الحيلة فى سيره عبر الجبال إلى أنقرة فى طريق غير الطريق التى توقع بايزيد أن يسير فيها تيمورلنك(٤) ، ولم يدر بايزيد إلا وتيمور على أبواب أنقرة ، فعاد بايزيد إليها حيث بلغ التعب من جنده أشده ، ولم تجد شجاعة الإنكشارية أمام جحافل تيمورلنك(٥) . ودارت الدائرة على جيش بايزيد ووقع بايزيد نفسه فى أسر تيمورلنك(٦) . وصار يبدو أن الامبراطورية ستزول بالسيف بعد أن احتل التتار بروسة العاصمة الثانية ، وأعادوا جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التى استولى عليها العثمانيون(٧) .

ولانتصار تيمورلنك على السلطنتين المملوكية الثانية والعثمانية — وهما القوتان اللتان

---

(١) De Clavija : Op. Cit p. 73—74

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ مجلد ١ (شمسية) ورقة ٣٦ .

(٣) De Clavijo : Op. Cit. pp. 76—77

(٤) Ibid. pp. 76—77

(٥) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠ — ٥١ .

(٦) نشرت بعض المراجع قصة حبس بايزيد فى قفص حديدى وأصبحت هذه القصة غير مقبولة الآن إذ لا يوجد فى المراجع الفارسية ما يشير إلى هذا بل على العكس تشير إلى إكرام تيمورلنك لبايزيد ويرى Gibbons أن الذى دعا بعض المؤرخين إلى ذكر هذه القصة ماورد فى عجائب المقدور لابن عربشاه قوله « ووقع ابن عثمان فى قنص ، وصار مقيدا كالطير فى قفص » راجع خواندمير : حبيب السير جـ ٣ ص ٦٠ .

(٧) Gibbons : Foundation of the Ottoman Empire, p: 225
Oman : The Byzantine Empire, p 334

حاولت كل منهما تزعم العالم الإسلامي آنئذ – أثر كبير في محاولة الغرب النيل منهما ، وذلك حين أرسل هنرى الثالث ملك أسبانيا فى يوليه سنة ١٤٠٢م سفارة سياسية مكونة من Fernando De Palazuelos ، Pèlayo De Satomayor لدعم علاقات بلاده مع تيمورلنك . وقابل تيمورلنك السفيرين بعد معركة أنقره وعاملهما معاملة طيبة ، ثم أعادهما إلى أسبانيا مع رسول من عنده هو محمد القاضى ، وحمله خطاباً وديا وهدايا من جملتها جواهر وجوار إلى هنرى الثالث . وشجع هذا الود هنرى الثالث على محاولة الارتباط بأى نوع من التحالف مع تيمورلنك فأرسل فى ٢٢ مايو سنة ١٤٠٣ م بعثة أخرى برئاسة De Clavijo (١) .

غير أنه برغم إكرام تيمورلنك لهذه البعثة فإنه لا يوجد ما يشير إلى أى تحالف رسمى بين الشرق والغرب . ويبدو أن السبب هو مرض تيمورلنك فى اليوم التالى لوصول De Clavijo فلم تتمكن البعثة من مقابلة تيمورلنك مرة أخرى (٢) .

على أن ثمة نتيجة هامة لانتصار تيمورلنك على الدولة العثمانية ثم انسحابه فى نوفمبر سنة ١٤٠٢ م ، وهى ضياع أرمينية من أيدى السلطنة المملوكية الثانية وتركها تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء ، والشاة البيضاء ، (قراقويونلو ، آق قويونلو) (٣) .

وفى طريق تيمورلنك إلى بلاده أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج أنبأه فيه بغزوه للدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطلمش ، وأنه إذا قدم عليه ، أرسل تيمور ما عنده من الأمراء والنواب المماليك المأسورين . وأما إذا امتنع السلطان فرج عن تنفيذ مطالبه ، فإنه سيعود إلى تخريب مصر (٤) . وحسماً للموقف طلب السلطان فرج أطلمش من سجنه بالقلعة ، ويقال إنه أحضر مصحفاً حلف له أطلمش عليه أن يكون عيناً له عما يحدث من أمور تيمولنك فضلا عن إشادته بما للسلطان فرج ولوالده من أفضال عليه (٥) . فخلع عليه السلطان فرج

---

(١) De Calvijo pp. 76—77 هناك ما يشير إلى أن تيمورلنك كتب خطاباً بعد انتصاره فى أنقره إلى هنرى الرابع ملك انجلترا منح فيه رعاياه حرية التعامل التجارى مع بلاده ، ورد هنرى الرابع عليه بالتهنئة بانتصاره على العثمانيين وأصول هذين الخطابين موجود فى Vide Original Letters Illustratus Of English History, 3rd series VI By Henri Ellis PP 56—58.

(٢) صادف وصول بعثه De Claviio وصول بعثه من السلطان فرج إلى بلاط تيمور ومعها هدايا – راجع Le Strange : Clavijo Embassy To Tamerlane pp. 9—12

(٣) Kevork : Armenia p. 101

(٤) ميرخواند : روضة الصفا ج ٦ ص ٢٤٦ انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٨ ص ١٧٥ .

(٥) ابن قاضى شهبة . ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ٢٠٤ .

وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم وأطلقه مصحوباً ببعثة من أمرائه(١) .

وهكذا تم الصلح المهين بين السلطان فرج وبين تيمورلنك . ولو قدر للبلاد سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ويحالف السلطان العثمانى وغيره من أمراء الشرق الذين فاوضوا السلطان فرج فى أمر تيمورلنك قبل انهيال جمهرة جيوشه على بلادهم ، ولو نظم الأمراء قواتهم واتفقوا فى هذه الظروف الحرجة لأمنت البلاد عادية تيمورلنك ، بيدأنه لم يكن بمصر رجل سياسى بعيد الغور فى السياسة مثل السلطان برقوق، بل أصبح الحكم لمماليك الطبقة الثانية « القرانيص » من عماله ، ولمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون البلاد بسبب جهلهم إلى الخراب .والواقع كذلك أنه لو بقى السلطان فرج فى دمشق مدة أخرى لرحل تيمورلنك إلى بلاده بسبب قلة مئونته .

ولم تقف علاقات تيمورلنك بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل إن تيمورلنك حين استقبل أطلمش فى المحرم سنة ٨٠٦ هـ — ١٤٠٣ م أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج ، وعرض فيه تيمورلنك رغبته فى إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية الثانية ، فشكر الأمراء على إرسال أطلمش ، ولكنه أظهر احتقاره لشخصية السلطان فرج ، إذ أرسل إليه هدية اشتملت على علمين لونهما أخضر وخلعة للسلطان عليها ما يفيد بأن يكون السلطان فرج نائبه على الديار المصرية والشامية . ونتج عن هذه الإساءة إلى السلطان فرج أنه حين عرضت عليه الهدية أمر رسل تيمورلنك بالنزول فى دار الضيافة دون أن يخلع عليهم ، ومنع الناس من الدخول إليهم ، ثم بعد أيام أعلن رفض قبول هدية تيمورلنك ، وأعاد رسله إليه على هذه الصورة من الاحتقار(٢) .

ولم يفتأ تيمورلنك يظهر عدم تقديره للسلطان فرج إذ أرسل إليه فى ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد ابن أويس الذى عينه تيمورلنك حاكماً على بغداد من قبله .وذكر تيمورلنك فى خطابه أنه أرسل إليهما ولده ميران شاه فى مائة ألف فارس فهربا منه . وحذر تيمورلنك السلطان فرج من هذين الفارين ، وأنه إن سمح لواحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذها منه لضعفه (٣) .

وليس أدل على ضعف فرج من أنه حين قبض نائب دمشق على أحمد بن أويس وقرا يوسف؛ كتب السلطان فرج خطابا لتيمورلنك بأن الاثنين تحت طلبه ، ثم بدأ

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٥٣٨ .

(٢) انظر العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ٦٠٤ ، ٦٢٨ .

(٣) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ٢١٣ .

السلطان فرج وتيمورلنك يتبادلان الهدايا كما أن تيمورلنك قبل أن تدركه المنية آخر سنة ٨٠٧ هـ — يناير سنة ١٤٠٥ م أرسل إلى السلطان فرج عدة هدايا واعتذر له عن اضطراره إلى اكتساح بلاده (١) .

وعلى هذا يمكن القول إنه إذا كان العامل الداخلى الذى تمثل فى إحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك الثانية صبغة خاصة ، فإن العامل الخارجى الذى تمثل فى غزو تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك الأولى ؛ إذ أنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة فى وقت الحروب حتى انتصرت على المغول فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ—١٢٥٧م، وفى مرج الصفر فى رمضان سنة ٧٠٢هـ—١٣٠٣ م، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية بسبب العصبيات سبب هزيمتها أمام التتار . وصار هذا الانقسام مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطان برسباى الذى تمكن من توحيد الصفوف حتى تمكن من غزو قبرص فى حملات كسبت نصراً مؤزراً وضع حداً للأخطار التى تعرضت لها دولة المماليك الثانية من جانب هذه الجزيرة (٢) .

على أن العلاقات بين دولة المماليك الثانية الناشئة وبين الدولة العثمانية ارتبطت بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامى . وبدأت هذه العلاقات ودية مادامت حدودهما متباعدة وتبادل سلطان كل من الدولتين الهدايا مع صاحبه (٣) . ثم زاد فى أواصر هذه الصداقة ظهور تيمورلنك وتعرض كل من الدولتين لهذا الخطر . وكانت الدولة العثمانية البادئة بالسعى لتأكيد هذه الصداقة أو إيجاد نوع من التحالف مع دولة المماليك الثانية ، لتعارض مصالح العثمانيين مع التيموريين فى السيطرة على آسيا (٤) . والبداية التاريخية لهذا الاتصال هى سنة ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م حين أرسل السلطان العثمانى رسله الذين أكرمهم السلطان برقوق ، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذى تحدث فيه عن تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين ، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات لرده (٥) . وبلغ من ثقة السلطان برقوق فى نفسه وبعد نظره أنه لم يرتبط بتحالف مع السلطان العثمانى ، وإنما أظهر استعداده لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثمانى . وسبب هذا أن السلطان برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على بلاده وعلى سياسته فى الوقت

---

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٢١٧ .

(٢) راجع عاشور : قبرص والحروب الصليبية الفصل الرابع .

(٣) زيادة نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩ .

(٤) Malet Et Isaac: l'Hist. Du XIV and XV and XVI siécles, P. 210.

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ ب .

الذي لم يكترث فيه بخطر تيمورلنك بدليل قوله «إني لا أخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدني عليه وإنما أخاف من ابن عثمان »(١) . ويبدو أن برقوق كان على حق في اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة ٧٩٣ هـ – سنة ١٣٩١ م على قيصرية وقبض على صاحبها وهي وقتذاك في حماية السلطان برقوق . غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة ٧٩٦ هـ – سنة ١٣٩٤ م جعل بايزيد يبعث باعتذاره إلى برقوق وهو في سورية كما أرسل مفاتيح المدينة وهدية قيّمة (٢) . ولم يتأخر السلطان برقوق في قبول الاعتذار ، بل إنه أرسل رسوله حسن الكجكني إلى بايزيد ، وعقد الصلح بينه وبين صاحب قيصرية (٣) . ووجد السلطان بايزيد في صداقة السلطان المملوكي خير معين له على دفع الخطر التيموري فرد في نفس السنة ٧٩٦ هـ على بعثه السلطان برقوق بهدية جليلة وكتاب حذّر فيه السلطان برقوق من خطر تيمولنك ، وأنه وضع تحت تصرفه مائتي ألف فارس ، كما سأل السلطان برقوق في تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداويه (٤) . غير أن السلطان برقوق ظل عند موقفه واكتفى بشكر السلطان العثماني وإكرام رسله ثم أرسل له الطبيب محمد بن محمد الصغير ، ومعه من الأدوية والعقاقير ما يحتاج إليه ابن عثمان(٥) .

وفي أواخر سنة ٧٩٦ هـ – بعث بايزيد إلى الخليفة العباسي بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعياً بالسلطنة .ومع أنه لا يوجد مايشير إلى إجابة الخليفة العباسي في القاهرة لهذا الطلب ، إلا أنه في خطاب بايزيد الذي كتبه حوالي سنة ٨٠٣ هـ – سنة ١٤٠٠ م إلى تيمورلنك ذكّره بالعباسيين «ورثاء عرش الخلافة » الذين لجئوا إلى مصر ، ليذكر هذا الحاكم الفظ أنه لاتزال توجد قوة إسلامية تستطيع مواجهته أو على الأقل يبين مدى إمكان ارتباط العثمانيين بالمصريين في فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التي يمكنها الوقوف في وجه تيمورلنك(٦) .

وظلت العلاقات ودية حتى رمضان سنة ٧٩٩ هـ – ١٣٩٧ م حين وصل إلى القاهرة رسل السلطان بايزيد ومعهم هدية للسلطان برقوق ؛ منها مائة أسير من الفرنج الفرنسيين

---

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٨٥ .
(٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .
(٣) العسقلاني : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٠ .
(٤) المقريزي : السلوك جـ ٣ ص ٧٠٨ .
(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٤ أ .
(٦) Arnold : The Caliphate p. 105, D'Ohosson : Tableau De L'Empire Othoman VI p. 233—234.

والإيطاليين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين فى البحر (١) ؛ وأخبرت البعثة العثمانية بانتصار بايزيد الحاسم على الفرنج فى نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ سنة ١٣٩٦ م(٢) .

بيد أن العلاقات بدأ يشوبها السوء عقب وفاة السلطان برقوق، إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء فى مصر وأغار فى أواخر شوال سنة ٨٠١ هـ على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة(٣) . وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما فى نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة فى تزعم العالم الإسلامى ، والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الثانية من هذه الزعامة ، كما دل على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسية بين البلدين فى تلك الظروف العصيبة التى أحاطت بالدولتين ، وصار لهذا الخطأ أثره فى نفوس أمراء مصر ، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية الثانية ، وأرسل بايزيد يطلب محالفة السلطان فرج لصد خطر تيمورلنك رفض الأمراء الذين بيدهم الأمر محالفته ، مذكرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١ هـ . ولم يدر السلطان فرج والأمراء أنهم بانتهاجم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمناها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة ، وهى الفرصة التى لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسل مع جيرانه حتى غيّر تيمورلنك اتجاهه وزحف شرقاً .

وإذ شعر تيمورلنك بأن الظروف لم تعد تسمح بقيام تحالف بين السلطانين العثمانى والمملوكى زحف على الدولة المملوكية سنة ٨٠٣هـ — ١٤٠٠م، وبعد أن أباد حلب وحماة ودمشق انتقم من الإهانات التى لحقته من تحدى بايزيد له عدة مرات وذلك فى واقعة أنقرة التى أسرفيها بايزيد ، والتى أباد بعدها عدة مدن عثمانية (٤) . وفضلاً عما سببته هزيمة العثمانيين من ضعف للإمارات التركية وغيرها من القلاع المسيحية فى شبه جزيرة آسيا الصغرى ، فإن هزيمة بايزيد أمام تيمور وأسره كانت مخجلة حقاً ، حتى إن البعض ذكر أنه لو تأخرت حرب نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦ م) إما مصادفة أو بناء على خطة مرسومة لمدة ست سنوات حتى واقعة أنقره سنة ١٤٠٢ م لتحطمت قوة العثمانيين إلى الأبد ، وربما تحقق حلم اتحاد الغرب بالشرق الأقصى ضد السلطنة المملوكية ، ولأمكن استعادة الصليبيين للأراضى المقدسة (٥) .

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٤١٤ .

(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٢٣ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٧٨ .

(٤) الزيانى : الترجمان المعرب ورقة ٩٠ .

(٥) راجع : Atiya : The Crusade In The Later Middle Ages : p. 22.

على أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكى والعثمانى أضاع هيبة كل منهما فى نظر الآخر . وأخرت هاتان الكارثتان اللتان منيت بهما الدولتان الاصطدام بينهما حوالى قرن من الزمان تأرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء . غير أن بقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثمانى محمد بن بايزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك ، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م وبدأ الطرفان يتبادلان الهدايا فى كثير من المناسبات (١) .

على أن وفاة تيمورلنك آخر سنة ٨٠٧ هـ - يناير سنة ١٤٠٥ م أزال منافساً خطيراً من طريق العثمانيين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم فى الشرق . وبدأ ميزان القوى فى الشرق الأوسط يتأرجح بين السلطنتين العثمانية والمملوكية الثانية . وأصبحت صداقة الدولتين صورية ، الغرض منها إظهار قوة كل من السلطانين للآخر إذ صار كلما اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة (٢) وتبادل السلطانان الهدايا ورسائل التهنئة والتبريك ، حتى إذا شعر السلطان العثمانى بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وأزالها سنة ١٥١٧ م .

وكما واجهت دولة المماليك الثانية فى بدء قيامها مشكلات من جانب الشرق ، فإنها واجهت مشكلات أخرى من جانب الغرب ، مرجعها أن التجارة فى البحر المتوسط أصبحت احتكاراً للبندقية التى تخلصت من منافستها جنوا (٣) . واستطاع السلطان برقوق والسلطان فرج أن يحققا مع البنادقة أرباحاً طائلة من احتكار التجارة . ونتج عن هذا الاحتكار تعرض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية والقطالونيين ومن انضم إليهم من الروادسة والقبارصة .

وشغلت أعمال القرصنة التى قام بها هؤلاء الفرنج جهداً كبيراً من السلطان برقوق ومن ابنه فرج . ففى جمادى الآخرة سنة ٧٨٥ هـ - يولية سنة ١٣٨٣م هاجم الجنوية صيدا وبيروت ، ونزلوا إلى البر (٤) . فاتجه اينال اليوسفى أتابك دمشق إلى الساحل ، وحاول

---

(١) دحلان : الفتوحات الإسلامية جـ ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩ وما بعدها .

(٣) Kirk : A short. Hist.Of The Middle East p. 53 انتهت أعمال القرصنة من جانب القبارصة والبنادقة والجنوية بصلح عقد سنة ١٣٧٠ م وعادت تجارة الدولة المملوكية الأولى معهم : بيد أن التنافس سرعان ما نشأ بين البندقية وجنوا حتى تخلصت الأولى من الثانية واحتكرت التجارة مع سلاطين الدولة الثانية . راجع عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٨٢ .

(٤) ابن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٩ .

أن يقذف بهؤلاء الفرنج فى البحر حين احتموا بمراكبهم ، لولا أن أسرع لنجدتهم الفرنج المقيمون فى بيروت ومكنوهم من النجاة بأنفسهم (١) .

وفى الوقت نفسه قضى السلطان برقوق على محاولات بعض تجار الفرنج الجنوية لتهريب بضائع فى مراكبهم من الإسكندرية (٢) . ويبدو أن فشل هؤلاء الجنوية جعلهم يتجهون إلى مهاجمة ثغرى رشيد ودمياط . غير أن السلطان برقوق رصد لهم فرقة فى ثغر رشيد بقيادة الأمير أحمد بن يلبغا الخاصكى ، وفرقة أخرى فى ثغر دمياط بقيادة الأمير ايدكار (٣) فتعذر على هؤلاء الجنوية غزو رشيد ودمياط ، ولذا أعادوا الكرة على ثغر بيروت وقتلوا عدداً من سكانه حتى اضطر نائب بيروت إلى الاستعانة بقوات نائب حلب فى طردهم (٤) .

وحين تكرر هجوم الجنوية على بلاد السلطنة المملوكية الثانية عهد السلطان برقوق سنة ٧٨٦ هـ — ١٣٨٤ م إلى الأمير الطنبغا الجوبانى ببناء أغربة وشوانى لغزو الجنوية فى بحر الروم . غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوا اشتبك مع عدة مراكب على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧هـ سنة ١٣٨٥ م ، وبعد قتال شديد تمكن الأسطول المملوكى من قتل عدد كبير من الجنوية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم ، وقيل إن ثلاثة بذلوا ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسرهم . وبعد هذا الانتصار وصلت الأغربة إلى بولاق فى جمادى الآخرة سنة ٧٨٧ هـ — يونيه سنة ١٣٨٥ م بالأسرى والغنائم حيث عرضوا على السلطان فى اليوم التالى من وصولهم (٥) .

على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوية لم تؤثر فى حصول بعض تجارهم على ارتباطات تجارية وقنصلية (٦) . ولذا فإن الجنوية لجئوا فى سنة ٧٨٨ هـ — سنة ١٣٨٦ م إلى مصالحة السلطان برقوق (٧) . ولم يتأخر السلطان فى قبول الهدايا منهم حرصاً على مصالحه التجارية فى البحر المتوسط .

غير أن الجنوية عادوا سنة ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م منتهزين فرصة انشغال برقوق

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٨ .
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ .
(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٧ أ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ (خطية) ص ٤١٦ .
(٥) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٤ .
(٦) Lammens : la Syrie, VII p. 36
(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٦٣ .

بالنزاع الداخلى مع الترك — إلى أعمال القرصنة ، وذلك حين كانت جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة فى المياه السورية فى مراكب مشحونة بالجراكسة الذين جلبوا من بلادهم ، ومن بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه . فهاجم الجنوية مراكب السلطان ، وأخذوا ما فيها وأسروا أقاربه ومن فيها من الجراكسة ، فثار السلطان برقوق ، وأمر نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج سواء كانوا تجاراً أو قناصل أو رعايا ، ونهض نائب الإسكندرية فى القبض على عدد كبير منهم ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم (١) .

وإذ تحرج الموقف دارت المراسلات بين الجنوية وبين السلطان حتى اتفق الجنوية على أن يطلقوا من بأيديهم من الأسرى مقابل إلغاء السلطان قراره بمصادرة أموال الفرنج والإفراج عنهم ، وأسرع الجنوية بتنفيذ الاتفاقية ، وقدم بالأسرى الجراكسة تاجر السلطان الخاص الخواجا على بن مسافر وحمل معه هدية ملك جنوا إلى السلطان برقوق فى آخر ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م (٢) .

وفى سنة ٧٩٢ هـ — ١٣٩٠ م تحرك أسطول مكون من اثنتى عشرة سفينة جنوية وثلاث من صقلية وخمس من بيزا ، وهاجموا جميعا ميناء طرابلس ، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم ريح أغرقت مركباً واضطرت البقية إلى الانسحاب واتجهوا غربا حيث استولوا على جزيرة Jerba فى خليج قابس التابعة لأبى العباس أبى بكر سلطان تونس (٣) ومنها هاجموا ثغر المهدية وحاصروه ، وقامت حرب شديدة بينهم وبين المغاربة انتصر فيها المغاربة على الفرنج ، وقتلوا الكثيرين منهم (٤) .

وفى عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على موانى الدولة المملوكية الثانية بسبب الانقسام الداخلى ففى سنة ٨٠٤ هـ — ١٤٠١ م وصل هؤلاء القراصنة إلى طرابلس حيث استولوا على سفينتين تجاريتين مشحونتين بالبضائع المعدة للتصدير لمصر ، وأسروا من فيها ، وتوغل هؤلاء القراصنة فى إحدى القرى الداخلية ولكن الأهالى تمكنوا من اعتقالهم.

وعلى الرغم من أن البنادقة تمتعوا بمركز ممتاز بسبب صلتهم التجاريه بالسلاطين فإن هذا المركز تعرض للضعف فى سنة ٨٠٦ هـ — ١٤٠٣ م حين تقدم اندريه جستنيان قنصل البنادقة بشكوى إلى السلطان فرج ، عرض فيها مدى جهود البنادقة فى إنعاش تجارة

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ قسم ١ ص ٢٣ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ — ٥٠ .
(٣) Atiya : Op. Cit. p. 398
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٥١ — ٦٥٣ .
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥ .

الإسكندرية سواء الصادرة أو الواردة ، وأنهم برغم هذا تعرضوا للمعاملة السيئة من خمسة من الأمراء . ولم يكن قنصل البنادقة موفقاً حين هدد السلطان فرج بالرحيل عن البلاد إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه ، وأنهم (أى البنادقة) إذا عادوا بعد فترة ودخلوا البلاد « بقوة الله » فإنهم فى هذه المرة سيكونون «ذوى مكانة مرموقة» . أما السلطان فرج فإنه رد على هذه الشكوى بكلام هادئ أوضح به عدم اكتراثه برحيلهم أو بعودتهم لغزو بلاده ، لأن الغرب المسيحى منقسم على نفسه بدليل وجود أكثر من « بابا على حين اتحد العالم الإسلامى فى اعترافه بشخص الخليفة الواحد »(١) .

أما جنوا فإنها استأنفت أعمالها الحربية ضد دولة المماليك الثانية سنة ٨٠٦ هـ ، وفى هذه المرة ضمت إليها قراصنة من الروادسة والقبارصة ، وذلك حين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس أسطول مكون من ١٨ سفينة واتجه إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها ، وأعلن هناك أنه اعتزم شن غارة على قبرص التى كانت فى حالة حرب مستمرة مع جنوا . غير أن غرض De Boucicaut لم يكن كذلك ، بل إنه عزم على ضرب الإسكندرية ، بدليل أنه أرسل إلى حنا لوزيجنان ملك قبرص وعقد معه الصلح (٢). بيد أن السلطان فرج عرف بمهمة De Boucicaut منذ أن وصل إلى رودس ، وأخذ أهبته لصد الهجوم . أما De Boucicaut فإنه من جانبه أرسل إلى الإسكندرية — ذرا للرماد — سفينة بها سفيرين من لدنه أعلنا أنهما جاءا لعقد الصلح مع السلطان . وحين علم السلطان بهذا النبأ أرسل بسرعة فحضر إليه واحد من السفيرين ، غير أن المفاوضات حين طالت مع السلطان فرج أرسل De Boucicaut إلى سفيره الآخر بالعودة إلى رودس . وأدرك De Boucicaut عدم جدوى هذه المفاوضات فاتجه بأسطوله ، وهاجم ميناء انطالية فى آسيا الصغرى ، ليوهم السلطان فرج أنه ابتعد عن بلاد الدولة المملوكية الثانية . ولكنه بعد أن قام بعملياته الحربية فى ميناء انطالية عاد إلى فاماجوستا ومن هناك أرسل عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية ؛ على حين قرر أن يلحق بهذه السفن بعد أن يتزود بالمؤن من فاماجوستا . غير أن حملته فشلت فى الاستيلاء على الإسكندرية فى أغسطس سنة ١٤٠٣م بسبب استعدادات السلطان فرج (٣). ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى مانشب من قتال فى شوارع الإسكندرية مع الفرنج ، وكذلك فشل فى إعادة تجارة جنوا بصفة رسمية مع الدولة المملوكية الثانية (٤).

(١) Piloti : l' Egypte Au Commencement Du XV S. pp. 83-84

(٢) De laville le Roulx : La France En Orient, p. 422.

(٣) Piloti : Op. Cit. pp. 89—90

(٤) Ibid : p. 90

على أن De Boucicaut لم يكتف بفشله فى الإسكندرية بل جرب حظه فى طرابلس ، أكبر ميناء تجارى سورى وقتذاك ، ولكنه فشل فيها حين هاجمها فى ١٥ أغسطس سنة ١٤٠٣ م ، فرحل إلى بيروت (١) . وهاجمها من ناحية لم يكن فيها سكان من المسلمين بل من ناحية متاجر البنادقة . وبعد أن نهبها رحل من بيروت مسرعاً إلى فاماجوستا غير أنه فى الطريق اصطدم بأسطول البنادقة ، الذى انتقم للرعايا البنادقة فى بيروت (٢) ؛

وهكذا عاد De Boucicaut بعد فشله الذريع فى القيام بعمل واضح من أجل إعادة نشاط جنوا التجارى فى منطقة شرق البحر المتوسط (٣) .

على أن القبارصة — وأعلى الملك يوحنا لوزيجنان بالذات — يعتبر مسئولاً عن الهجوم الذى شنه حاكم جنوا على بيروت إذ أن يوحنا أمد De Boucicaut بأربع سفن قبرصية (٤) . كما أنه فى المفاوضات التى دارت بين البندقية وجنوا سنة ١٤٠٦م وعد بتعويض التجار البنادقة فى المدينة لما أصابهم من الجنوية (٥) .

غير أن فشل هذه الحملة جعل جنوا تفكر جدياً فى السعى لعقد الصلح مع السلطان فرج رغبة فى إعادة علاقاتها مع دولة المماليك الثانية . وفى هذا الصلح الذى تم سنة ١٤٠٧م تعهدت جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما أحدثته من الخسائر وأنه إذا تكررت هذه الحادثة فإن الجنوية فى مصر سيقبض عليهم جميعا (٦) .

وكما عادت التجارة مع جنوا ، فإنها عادت مع البنادقة الذين أسرعوا بعقد الصلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨ م ، وتوسط فى هذا الصلح بيلوتى Piloti التاجر الكريتى بمصر ، وشرط عليهم السلطان شروطاً قاسية . وأخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثهم (٧) .

---

(١) كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٨٦ .

(٢) Piloti : Op. Cit. pp. 29

(٣) De Bouard : La France Et L، Italie p. 268

(٤) راجع المقريزى : السلوك جـ ٣ (شمسية ورقه ٤١)

(٥) Delaville Là Roulx : Op. Cit. VI pp. 475—477

(٦) Piloti : Op, Cit. pp. 94—95

(٧) تعرضت الموانى المصرية لهجمات القراصنة القطالونيين ، ونهبوا السفن الراسية فيها ، وكثيرا ما لجئوا بأسلابهم إلى قبرص وبعض جزر بحر إيجه وخاصة جزيرة ناكسوس . وقد حدث أواخر سنة ١٤٠٧ م أن هاجم القرصان بطرس القطالونى سفينة تجارية مصرية محملة بالبضائع وأسر بحارتها الذين بلغوا نحو مائة وخمسين فرداً باعهم إلى الحاك كريسبوس فى جزيرة ناكسوس الموالية للبندقية . وغضب السلطان فرج على سكوت البندقية واستدعى قنصلها =

أما ملوك المغرب فإنهم اعترفوا بدولة المماليك الثانية (١) ، واعتبروا سلاطينه ورثاء دولة المماليك الأولى فى « ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين »(٢). فضلاً عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية (٣) ، إلى جانب حاجة ملوك المغرب لقوة سلاطين دولة المماليك الأولى فى صد الأخطار الصليبية التى تعرض لها المغرب كثيراً .

ومنذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ — سنة ١٣٨٢ م قادماً من المغرب عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطنة المملوكية الثانية . وإذ احتاج السلطان برقوق للجياد الأصيلة كاتب ابن خلدون ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد وإرسالها للسلطان برقوق . ثم إنه حين تمسك سلطان تونس أبو العباس الحفصى بأولاد ابن خلدون رغبة فى عودة ابن خلدون إليه ، أرسل إليه السلطان برقوق فى ١٥ صفر سنة ٧٨٧ هـ — ١٣٨٤ م خطاباً يرجوه فيه أن يرسل هؤلاء الأولاد إلى مصر (٤) وأجاب أبو العباس مطلب السلطان وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد . غير أن سوء الحظ صادف السفينة التى وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبى العباس إذ غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق، وأعاده إلى سلطانه بهديه من الملابس الفاخرة (٥) .

وظلت علاقات الود المتصلة بين دولة المماليك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه ، إذ أرسل أبو عبد الله محمد بن أبى يحيى بن أبى بكر سلطان تونس سنة ٧٩٢ هـ كتاباً وجهه للخليفة المتوكل على الله مع هدية قيمة . وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه . واستقبل السلطان برقوق رسوله بمظاهر الإكرام وأمر له بمائة درهم فضة يومياً مدة إقامته بالقاهرة (٦) .

= وعاتبه وطلب منه الاتصال بحكومته لإطلاق سراح الأسرى . وصادر فرج سفينة للبندقية كانت راسية بميناء الإسكندرية حتى يعود الأسرى من ناكسوس ، ووسط بياوتى فى هذه المهمة ، وحين نجح كافأه فرج بأن صرح له باستيراد حمولة خمس سفن شهريا بدون ضرائب .
راجع : Miller : The Latins In The Levant : p. 399

(١) ابن أبى السرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ورقة ٢٩١ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٧٩ — ٤٨٠ .

(٣) Piloti : Op. Cit. pp. 57—87

(٤) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩ — ٢٥٣ .

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٧٩ — ٤٨٠ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٥٢ .

ونظراً لكثرة حروب السلطان برقوق وحاجته إلى الخيول استمر وده لبلاد المغرب، حتى إنه فى سنة ٧٩٣ هـ حين وصل إلى القاهرة يوسف بن على بن غانم شيخ أعراب المعقل بالمغرب ناجياً من سخط السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم — من ملوك بنى مرين بفاس — سنة ٧٧٥ هـ — ٧٩٦ هـ (١) ، كتب السلطان برقوق إلى سلطانه كتابا شفع له فيه ، وبعث إليه بهدية ، كما أوصاه بانتقاء الخيل له ، وقبل السلطان أبو العباس هدية السلطان برقوق وشفاعته ، وانتقى الخيول الرائعة لإهدائها للسلطان برقوق ، ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه أبو فارس سنة ٧٩٦هـ سنة ١٣٩٤م ، وظلت الهدية حتى مات أبو فارس وتولى أخوه أبو عامر سنة ٧٩٩ هـ — سنة ١٣٩٧ م (٢) . فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بن على . وحين أبطأ وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشترى له الخيل . فعين لذلك مملوكه قطلوبغا الخليلى ، وكتب كتابا إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن أبى حفص سلطان تونس ، وكتاباً إلى سلطان تلمسان من بنى عبد الواد ، وكتابا آخر إلى سلطان فاس . وحمّله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسى ، وما أن وصل قطلوبغا إلى فاس حتى وجد هدية فاس مستكملة ومعدة للإرسال وأفاض سلطان فاس على رسول برقوق بالكثير من المنح (٣) . وحين وصل قطلوبغا إلى تلمسان أخذ هدية سلطانها أبى زيان بن أبى حمو ، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانها من أحسن الجياد . ثم عاد قطلوبغا بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان ، ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه (٤) .

ولم يغير قيام دولة المماليك الثانية من تبعية الحجاز لها ، ولقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز (٥) . وجرت العادة أن يولى السلطان المملوكى على مكة أميراً من أهلها وله حق عزله إذا ثبتت مخالفته لأوامره . بيد أن إمرة مكة شغلت السلطان برقوق مدة طويلة بعد أن أصبح السلطان برقوق يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده ، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية . واهتم السلطان برقوق أن يشغل هذه الوظيفة بأمير قوى يدين له بالطاعة ، حتى يضمن أمان طريق التجارة فى البحر الأحمر . وفى بداية سلطنة برقوق كانت إمرة مكة مثار نزاع بين الشريف أحمد بن عجلان وابنى عمه

(١) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ٣ ص ١٤٠ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٣) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(٤) نفس المرجع ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٥) Piloti : Op. Cit. p. 41

حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس ، فأشركهم جميعا فى إمرة مكة ، غير أنه حدث خلاف بين عنان بن مغامس وحسن بن ثقبة من ناحية ، وبين أحمد بن عجلان من ناحية أخرى ، فسافر عنان وحسن إلى مصر وشكيا أحمد بن عجلان إلى السلطان برقوق ، فأمر السلطان لهما بربع ما يحصله أمير مكة (١) . ولم تفلح جهود أحمد بن عجلان فى رشوة رجال مصر أو إرضاء السلطان برقوق بالهدايا ، بل إنه حين رأى كبيشى — رسوله إلى مصر — إقبالا من رجال الدولة على عنان ، وافق على مارسمه السلطان لعنان وحسن وصالحهما حتى وصل إلى مكة ، وعرف أحمد بن عجلان بما دار فى مصر ، وخيره بين الموافقة على ما أمر به السلطان برقوق أو قتل عنان ، فقرر الرأى الأخير . وتمكن أحمد بن عجلان من القبض على عنان وعلى حسن بن ثقبة وإخوته الخمسة وقيدهم جميعا سنة ٧٨٧ هـ — ١٣٨٥ م . وبرغم وصول كتاب السلطان برقوق إلى أحمد بن عجلان بإطلاقهم ، فإنه ماطل فى تنفيذه وبقى الإخوة بالسجن . أما عنان فإنه تمكن من الهرب واستجار بالسلطان برقوق ، فأرسل أحمد إلى السلطان يطلب رد عنان ولكن السلطان برقوق رفض (٢) ، ورد عليه بقوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » كما أعاد السلطان برقوق عليه طلب إطلاق سراح الأشراف الخمسة (٣) .

غير أن أحمد بن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان برقوق ، وغدا بهذا مصدر قلق للسلطان ، حتى إنه لم يعد يأمن على مصالحه فى الحجاز ، وتجارته فى البحر الأحمر ، فدعا أحمد بن عجلان عدة مرات لزيارة مصر . غير أن أحمد تعمد الاعتذار لعاملين : أولهما ، عزم السلطان على التخلص منه ، وثانيهما ، خوفه من انتزاع أقاربه الولاية منه . ومهما يكن من شىء فإن السلطان برقوق تمكن سنة ٧٨٨ هـ — سنة ١٣٨٦ م من إرسال من دس السم لأحمد بن عجلان فى الطعام (٤) .

وحين مات أحمد بن عجلان فى ٢٠ شعبان سنة ٧٨٨ هـ أراد السلطان برقوق تولية عنان بن مغامس فخدع محمد بن أحمد بن عجلان ، الذى طالب السلطان بأن يخلف أباه ، بأن أرسل إليه العهد والخلعة بولاية مكة ، على حين أنه أذن لعنان فى التوجه صحبة بعثة الحج (٥) . وأمر أمير الحج بقلة مراعاته لعنان فى الطريق حتى لا يفهم محمد بن أحمد بن عجلان الأمر . والخلاصة أن أمير الحج تمكن من قتل محمد بن أحمد بن عجلان بعد

---

(١) الفاسى : الثمين فى تاريخ البلد الأمين جـ ١ ورقة ٢٤ ب .

(٢) نفس المرجع : والجزء ورقة ٢٥ أ

(٣) الخزرجى : درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٣ .

(٤) De Gaury : Rulers of Mecca, p. 102

(٥) المرجع السابق والصفحة .

مائة يوم من موت والده كما ساعد قاتله على الاختفاء بين الحجاج ، ومكّن عنان من تولى إمرة مكة (١) .

غير أن عودة عنان إلى مكة لم تجد السلطان برقوق شيئاً ، إذ ظهر ضعفه من عدم قدرته على التغلب على ابن عجلان ، الذى أغار على جدة واستولى على مافيها من أموال وغلال تجار الكارم ومتاجر السلطان حتى إنه اضطر إلى إشراك أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك معه فى إمرة مكة ، وصار يدعى لهما معه فى الخطبة (٢) . وحين بلغ السلطان برقوق ذلك عزل عناناً وولى علىّ بن عجلان إمرة مكة . غير أن أصحاب عنان تحمسوا وامتنعوا عن تنفيذ أمر السلطان ، وتمكن عنان وأصحابه من هزيمة على بن عجلان الذى حضر لاستلام المدينة ، واضطر السلطان برقوق إلى الاعتراف بعنان أميراً على مكة مشاركاً لعلى بن عجلان . غير أنه طلب عناناً لخدمة المحمل فى مصر حتى يمكنه اعتقاله ؛ ولكن عناناً اعتذر عن الحضور بحجة خشيته من آل عجلان . ولم يجد السلطان بداً من أن يترك المسألة جانباً ، وأرسل سنة ٧٨٩ هـ - سنة ١٣٨٧ م إلى عنان يقول له « انت على ولايتك فافعل ماتقدر عليه » (٣) . غير أن عناناً لم يستطع مقاومة نفوذ آل عجلان الذين نهبوا التجارة الكارمية وذلك لاختلاف أصحابه معه (٤) فاضطر عنان للهرب سنة ٧٩٠هـ سنة ١٣٨٨ م إلى مصر ، حيث لم يجد هناك الإقبال الذى عهد من قبل . وظل بها حتى عاد السلطان حاجى إلى العرش وسعى عند يلبغا الناصرى لإعادته فأجابه . غير أن اشتباك الناصرى مع منطاش واعتقال الناصرى وقدوم محمد بن عجلان وسعيه لدى منطاش للقبض على عنان أفقده كل آماله فى إمرة مكة ، وحبس منطاش عناناً مع بعض مماليك برقوق سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م ؛ ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن حين هزم منطاش وفر إلى دمشق . وحين حضر السلطان برقوق إلى مصر شفع بطا ، كبير مماليكه ، لعنان فأجابه السلطان مع إقرار على بن عجلان على نصف إمرة مكة معه (٥) . واتفق على أن كلا منهما يدخل مكة لحاجته ، فإذا قضاها خرج منها ولكل منهما فيها نواب ، بعضهم يتسلم ما يخص كلا منهما من المتحصل ؛ وبعضهم للحكم بها ، « وأن يكون القواد مع عنان والإشراف مع علىّ » (٦) .

غير أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية النجاح لمدة طويلة ، إذ قطع آل عجلان الدعاء لعنان

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣١١ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٥ .

(٣) نفس المرجع ، ورقة ١٩٦ .

(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٨ .

(٥) De Gaury : Op. Cit. p. 103

(٦) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ورقة ١٩٦ ب ، ١٩٧ أ .

سنة ٧٩٤ هـ - سنة ١٣٩٢م ، وهموا بقتله وأخرجوا نوابه من مكة، فانعدم الأمن في داخل البلاد . وحين عرف السلطان برقوق بالأمر استدعى عناناً وعلياً مع جماعة من أعيان الأشراف والقواد . وإذ حضر علي وعنان فوض السلطان إمرة مكة إلى علي بمفرده ، وذلك بسبب ماقدمه علي إلى السلطان من الهدايا الوافرة (١) . ثم أمر عناناً بالإقامة بمصر ، ورتب له ما ينفقه ثم عاد فسجنه بالقلعة في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٩٥هـ - ١٣٩٣م (٢) .

وحين قامت الحرب سنة ٧٩٧ هـ بين ابني حسن وقواد مكة ببطن مر ، وقتل فيها الشريف علي بن عجلان ، وامتنع القواد بمكة وصدوا عنها بني حسن ، أفرج السلطان برقوق عن الشريف حسن بن عجلان ، الذي كان معتقلاً منذ سنتين بسبب خلافه مع أخيه ، وولاه إمرة مكة وبعث معه الأمير يلبغا السالمي ليمكنه من تولي مهام وظيفته ، وأوصى السلطان حسن بن عجلان أن يحفظ طرق الحج والتجارة التي نهبت في العام الماضي (٣) . وتمكن حسن بن عجلان من إعادة الثقة إلى التجار ، وخاصة تجار السلطان ، وتجار اليمن . وبلغ اهتمام حسن بن عجلان بتأمين الطرق وكسب رضى السلطان برقوق من أنه كان يسافر مع كل قافلة إلى جدة ويحيطها بالحراس حتى تصل القافلة بالمتاجر إلى السفن ، كما أسقط عن التجار ثلث الجباية ، ونتيجة هذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر ، وسر السلطان برقوق بجهود حسن بن عجلان وأرسل إليه خلعتين سنة ٧٩٩هـ - ١٣٩٧ م (٤) .

وظل حسن بن عجلان على ولائه للسلطان برقوق ولابنه فرج من بعده ، وأثرى من النشاط التجاري ثراء كبيراً ، حتى اقتنى عدداً كبيراً من المماليك سنة ٨٠٣ هـ . وفي العام الثاني أصبح لحسن بن عجلان من القوة والنفوذ ماجعله يحصل من السلطان فرج على مرسومين ، في أحدهما : ألا يمنع الدعاء بمكة لسلطان اليمن ، وذلك توثيقاً للروابط الاقتصادية مع اليمن ، وفي الآخر أنه ليس لأحد من الأمراء الوافدين من مصر في أثناء السنة على صاحب مكة « يد ولا حكم » بل « يعضدونه ويقرون كلمته ويعاونون شأنه وإن لم يصنع الأمير وخالف وطلبكم للقتال قاتلوه » (٥) . ويبدو أن قصد حسن بن عجلان من وراء هذا المرسوم الأخير هو ألا يجعل نفسه ألعوبة في أيدي أمراء مصر الذين صار

---

(١) الخزرجي : درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٧ أ .

(٣) كان السلطان برقوق قد أرسل قمحا إلى ينبع للبيع فاستولى عليه أميرها - الفاسي العقد الثمين ج ١ ورقه ١٥٥ أ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٦ أ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٧ ب .

بيدهم الأمر . وبمقتضى هذا المرسوم استطاع حسن بن عجلان أن يتحدى الأمير بيسق أمير الحج سنة ٨٠٤ — سنة ١٤٠١ م(١) .

غير أن سياسة حسن بن عجلان أغضبت السلطان فرج وأمراء الدولة وخاصة حين استولى سنة ٨٠٥هـ — سنة ١٤٠٢م — على الذهب الموجود بمركب فى طريقه إلى اليمن ، يملكه ابن القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر ، فسعى هذا التاجر حتى أفرج السلطان فرج عن عنان ليهدد به حسن بن عجلان ، ولكن المنية عاجلت عناناً قبل أن يصل إلى مكة(٢) ولم يكن هناك بد من الصلح مع حسن بن عجلان ، فأرسل إليه السلطان فرج سنة ٨٠٨هـ هدية وكتاباً بعودته إلى إمرته . وفى سنة ٨٠٩ هـ — سنة ١٤٠٦ م — وافق على ما طلبه حسن بن عجلان من مشاركة ابنه بركات له فى إمرة مكة ، ولعبت الرشوة دوراً كبيراً فى علاقة الدولة المملوكية الثانية بإمرة مكة . وبها حصل حسن بن عجلان سنة ٨١١ هـ — ١٤٠٨ م على مرسوم آخر بمشاركة ابنه أحمد لأخيه بركات فى الحكم ، وأن يلقب حسن بنائب السلطنة بالأقطار الحجازية (٣) .

غير أن محاولة حسن بن عجلان غزو اليمن سنة ٨١٢ هـ — سنة ١٤٠٩م ، وما تبع هذا من اضطراب الأمن والتجارة أدت إلى غضب السلطان فرج ، وأمره بالقبض على حسن وولديه . غير أن السلطان فرج عجز عن تنفيذ قراره بسبب رشوة حسن لأمراء مصر وإرساله هدية للسلطان فرج بيعت بخمسين ألف مثقال (٤) .

والخلاصة أن حسن بن عجلان وجد أنه برغم أن والده حكم الحجاز بشكل استقلالى فى عهد دولة المماليك الأولى ، فإنه وجد نفسه مضطراً لتحمل سيطرة حكام مصر فى عهد دولة المماليك الثانية . على أن السلاطين بعد الناصر فرج اتجهوا إلى مداراة حكام مكة والاكتفاء بذكر أسمائهم فى الخطبة وإرسالهم الهدايا (٥) .

على أن السلطان برقوق اتبع سياسة ودية مع الدولة الرسولية باليمن ، وسبب هذا حرصه على سلامة التجارة مع اليمن وضمان مرور التجارة الشرقية دون تعرض اليمنيين لها . ووضحت هذه السياسة فى تبادل الهدايا بين الدولتين . بيد أن السلطان برقوق هو الذى

---

(١) أمر هذا الأمير سنة ٨٠٤ هـ—١٤٠١ م بسد النوافذ التى بالجانب الغربى من الكعبة ؛ فأمر حسن بفتحها ، كما تحداه حين أمر بنقل السوق من المسعى فألغى قراره . راجع الفاسى : العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧ .

(٣) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٥٩ ب .

(٤) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦١ ب ، ١٦٢ أ .

(٥) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦٣ ب .

بدأ بإرسال هديته سنة ٧٨٧ هـ .سنة ١٣٨٥ م ثم توالت هدايا سلاطين الدولة الرسولية باليمن من هذه السنة بعد أن كانت العلاقات سيئة فى نهاية الدولة المملوكية الأولى (١) . ومن هذه الهدايا ما أرسله الأشرف إسماعيل بن عباس ملك الدولة الرسولية باليمن سنة ٧٩٩ هـ ـ سنة ١٣٩٧ م إلى السلطان برقوق . واشتملت هذه الهدية على عشرة من العبيد وست جوار ، وسيف محلى بالذهب ومرصع بالعقيق ، وشطرنج من العقيق الأحمر والأبيض ، وأربع مراوح مذهبة ، وعدد من العدد الحربية المذهبة ، والكثير من غلات اليمن كالعنبر واللبان والجاوى والعود والبخور والعطور وغير ذلك وقومت هذه الهدية بستين ألف دينار . وصحب رسول ملك الدولة الرسولية التاجر الكارمى برهان الدين المحلى (٢) .

وظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن مادام ملك اليمن يعمل على ضبط التجارة فى ميناء عدن التى أصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب (٣) .

بيد أن هذه العلاقات بدأت تضطرب بسبب اتجاه سلاطين الدولة المملوكية الثانية إلى تشجيع أمراء مكة على إنعاش ميناء جدة ـ من أجل تجارتهم فى الحجاز ـ على حساب ميناء عدن . ولم يكن سبب هذا التشجيع من جانب السلاطين رغبة منهم فى مساعدة أمراء مكة بل على العكس فإنه خشى قوة أمراء مكة ، ودليل هذا أن الناصر فرج غضب على حسن بن عجلان حين قام بمحاولته سنة ٨١٢ هـ ـ سنة ١٢٠٩ م لغزو بلاد اليمن (٤) .

وكما حرص السلطان برقوق على علاقات الود مع اليمن فإنه حرص على نفس هذه العلاقات مع الحبشة ، ومن المعروف أن الكنيستين المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسى ، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية . ومن مظاهر الارتباط بين الكنيستين تعيين بطريق النصارى اليعاقبة بمصر أسقفاً للحبشة بناء على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر فى ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان (٥) .

غير أن ملك الحبشة داود بن سيف أرعد سنة ١٣٨١ ـ ١٤١١ م انتهز فرصة الاضطرابات القائمة فى مصر والناتجة عن التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ٢ ص ١٨٢ .
راجع كذلك السلامى : مختصر التواريخ ورقه ٨٨ أ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٣ .
(٣) Piloti : Op. Cit. p. 42
(٤) Piloti : Op. Cit. p. 42
(٥) المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣ .

أسوان فى أواخر سنة ١٣٨١ م ، وضرب بعض نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذى أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية ، فاستدعى الأنبا متاؤس بطريرك الإسكندرية السابع والثمانين ، واتفق معه على أن يرسل البطريرك من لدنه رسولاً إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر عليه هذا الهجوم ، ويطلب منه العودة إلى بلاده ، وعدم التعرض للمسلمين فى الحبشة . وحمل رسالة البطريرك الأسقف إبراهيم وصحبه رسول السلطان القاضى برهان الدين إبراهيم الدمياطى (١) .

ويبدو أن الملك داود بن سيف أرعد حرص بدوره على اتصال الود (٢) . فلم يتردد فى إجابة الطلب ، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق فى سنة ١٣٨٢ م وبعث مع الرسالة هدية حملها واحد وعشرون جملاً ، واشتملت على طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على هيئة الحمص (٣) . ونفى الملك داود ما أشيع من أخبار عن أحوال المسلمين فى الحبشة ، وأكد أنهم فى حالة طيبة ، وأن لهم مطلق الحرية فى التنقل والكسب . وطلب من السلطان برقوق أن يحسن معاملة البطريرك والنصارى ، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التى عزلوا منها كما بيّن له أن حسن معاملة المسيحيين فى مصر يقابل بحسن معاملة المسلمين فى بلاده والعكس . غير أن داود لم يكن موفقاً حين هدد بتحويل مجرى النيل عن مصر . ولكن حرص السلطان برقوق على السلام بين الدولتين جعله يقبل الهدية ويرد عليها (٤) .

ولم تقتصر العلاقات الحبشية بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل نشطت التجارة فى نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة فى البحر الأحمر (٥) .

غير أن داود عاد فى سنة ٨٠٥ هـ — ١٤٠٢ م ، وانتهز فرصة الشحناء بين الأمراء فى سلطنة فرج ، وهاجم السلطنات الإسلامية فى عدل وزيلع ، وقتل من أهلها من المسلمين عدداً كبيراً (٦) .

على أن دولة المماليك الثانية الناشئة برغم هذا أسهمت بقسط كبير فى تطوير الحياة فى الحبشة ، إذ قدم على الملك إسحق بن داود بن سيف أرعد الذى تولى سنة

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٦٢ .
(٢) راجع : الحيمى سيره الحبشة ص ٢٨ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ (خطيبه) ص ٤٧١ .
(٤) راجع اسكاروس : نوابغ الأقباط ص ٤٨ — ٥٨ — انظر نص الرسالة بالملحق رقم ٩ ص ١٧٦ — ١٨٠ .
(٥) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٢٥٣ أ ، ب
(٦) Budge: A Hist. of Ethiapia VI p. 300

١٤١٢ م فخر الدولة، وهو أحد رعايا دولة المماليك الثانية من القبط اليعاقبة، ورتب أمور مملكته، ونظم له طريق جباية الأموال، كما أنشأ له ديواناً، ووضع له القوانين التى ضبطت سائر أحوال بلاده، ثم جعل له زياً يمتاز به عن سائر الرعية فأصبح الملك الحبشى يلبس الملابس الفاخرة بعد أن كان يخرج عرياناً، وقد عصب رأسه بعصابة خضراء (١).

ويبدو أن هذا العمل الذى قام به فخر الدولة لملك الحبشة شجع على استمرار الاتصال بالحضارة المملوكية الجركسية فاستقدم عدداً من المماليك الجراكسة ممن عملوا فى وظائف « ذردكاش » بمصر فعمل هؤلاء لملك الحبشة ذرد خانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح والسيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك. وأوضح المقريزى أثر هذا التقدم فى السلاح فى الحبشة التى ظلت حتى ذلك الوقت تحارب بالحراب؛ إذ أن هؤلاء المماليك الجراكسة علموا الجيش الحبشى فنون الفروسية من رمى النشاب والرمح والضرب بالسيف، ولعل أهم حدث فى تاريخ الحبشة الحربى هو ما أسهم به المماليك الجراكسة فى تعليم الأحباش استخدام النفط فى الحروب (٢).

أما عن موقف بلاد النوبة من الدولة المملوكية الثانية فإنه منذ أن تغلب بنو كنز على بلاد النوبة أصبحوا يشكلون خطراً على جنوبى مصر وفى سنة ٧٨٥ هـ — ١٣٨٥ م هاجم بنوكنز أسوان ونهبوها، وقتلوا عدداً من أهلها وفروا إلى أسوان مما دفع برقوق إلى تعيين الأمير حسين بن قرط التركمانى والياً على أسوان (٣). غير أنه كثيراً ما التجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لمعاونتهم فى النزاع على الملك، ومثال هذا ما حدث سنة ٨٠٠ هـ — ١٣٩٨ م حين حضر إلى مصر الملك الناصرى ملك النوبة هارباً من ابن عمه، فرحب به السلطان برقوق وشفع له عند ابن عمه، ووافقه على تعيين إبراهيم الشهابى والياً على أسوان، وأعاده إلى بلاده (٤). ومع ذلك كثيراً ما تأثر جنوبى مصر فى عهد فرج بهجمات بنى كنز.

وخاتمة المطاف أن سياسة السلطان برقوق أنقذت مصر وسورية من عوامل الضعف التى تعرضت لها من الداخل والخارج أواخر دولة المماليك الأولى. وجعلت هذه السياسة لدولة المماليك الثانية شخصيتها ونفوذها فى الداخل والخارج.

---

(١) المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ص ٤-٥.
(٢) نفس المرجع ص ٤.
(٣) العسقلانى : إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٢٤.
(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٢١.

ملاحق توضيحية

من مصادر عربية وفارسية

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف المؤرخ الفارسى شرف الدين على يزدى (حـ ١ : ص ٦٤٢ — ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥ هـ . ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه هذا العملاق التترى إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار ، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة .

والملحق الثانى منقول من المؤرخ المصرى أحمد بن على المقريزى : «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ حـ ٣ ص ٢٣٧ — ص ٢٣٨) وهذا الملحق الثانى كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخه إلى ٧٩٦ هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظى ، ويحتوى على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له .

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثانى من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن على المقريزى : «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية حـ ٣ ص ٢٣٧ — ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ ، وفى هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمورلنك .

والملحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (حـ ٢ ص ٢٦٧) ، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك ، هو القائد أطلمش الذى وقع فى يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هـ .

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج ، ومطالبته بإعلان الطاعة ، والدعاء له فى خطبة الجمعة بالقاهرة . وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية ، وهو منقول كذلك من كتاب « ظفرنامه » تأليف شرف الدين على يزدى (حـ ٢ ص

٣١٥ — ص ٣١٦) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر ، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته ، وهو فى الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروعة .

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (حـ ٢ — ص ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق .

والملحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (حـ ٢ ص ٣٢٧) ، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو فى داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال .

والملحق الثامن منقول من مخطوط ، «كتاب روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا حـ ٦ ص ٢٤٦) ، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند ، وهذا الكتاب بالفارسية كذلك ، وتاريخه سنة ٨٠٥ هـ ؛ وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثمانى فى واقعة أنقره ، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له فى خطبة الجمعة .

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب «برلام ويواصف» ، وهو مخطوط بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ — ٣٣٩) ، وهو كتاب من النجاشى داود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون فى الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكية ، وينفى النجاشى ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشى للرعايا المسلمين فى بلاده ، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى فى بلاده ويهدد بقطع مياه النيل ، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان للنصارى فى مصر .

ويود كاتب هذه السطور أن يختتم هذه المقدمة القصيرة بكلمة شكر كبيرة للسيد الدكتور عبد النعيم حسنين أستاذ الأدب الفارسى بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بالقيام بترجمة النصوص الفارسية المتقدمة إلى اللغة العربية ، وهى نصوص أضافت إلى قيمة هذا الكتاب معلومات جديدة بصدد مراحل العلاقات بين السلطانين برقوق وابنه فرج وتيمورلنك .

وأرجو أن يجد القارئ الكريم فى هذه الملاحق بعض ما ينشده من معرفة لأحوال الشرق الأوسط فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

الملحق (١)

كتاب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه ، حـ ١ ، ص ٦٤٢ – ٦٤٣) .

النص الفارسى :

« مضمون رسالت آنكه بيش ازين بادشاهان كامكاركه ازنسل جنكيزخان بودند باملوك آن ممالك منازعت داشتند وبدان واسطه بسى زحمت وتشويش باهالى شام وسكان آن نواحى ميرسيد ودر آخرميان ايشان رسل ورسايل متوا ترشد وقضية بمصالحت انجاميد وآن معنى موجب امن وامان عالم وعلميان كشت وجون بادشاه سعيد ابو سعيد بها درخان انار الله برهانه بجوار رحمت حق بيوست وازنسل جنكيزخان با دشاهى صاحب شوكت نافذ فرمان در ايران نماند وملوك طوايف بديد آمدند هرج ومرج بحال عالم راه يافت اين زمان جون سابقة عنايت بى غايت مالك الملوك جل وعلا تمام ممالك ايران تا عراق كمدر جوار آن مملكت واقع است مسخر فرمان ماكودانيد خير انديشى ونيكو خواهى خلايق اقتضاى آن مى كندكه حق همسايكى رعايت كوده ابواب مراسله و مكاتبه مفتوح كرد دوايلجيان ازهرد وجانب در آمد وشد باشندتا راهها ايمن شود وتجار جانبين بامن وحضور تردد توانند نمود وابن معانى هرابنه مستلزم معمور مى بلاد وآسايش عباد تواند بود والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين » .

ترجمة الكتاب :

« لما كان بيت جنكيزخان فى حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام ، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاق الرسل ، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين ؛ غير أنه منذ وفاة الايلخان العظيم سعيد أبوسعيد بهادر لم يحكم فى بلاد فارس حاكم من نسل جنكيزخان الذى نظم أمور الناس ، ولكن على العكس قام حكام فى كل الإمارات فى هذه الامبراطورية الكبيرة مكان ملوكها ، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الامبراطورية . أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد ، وأدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس والعراق العربى الذى تتاخم حدوده حدود بلادكم ، فإن المحبة التى ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب ،

وأن يأتى الرسل ، ويعودوا فى يسر بين بلدينا ، وأن ينتقل تجار البلدين فى أمن حتى تنتعش البلاد ، ويكثر السكان ، ويعيشوا فى سلام . ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلأكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين . »

الملحق (٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثانى) إلى السلطان برقوق فى سنة ٧٩٦ هـ (المقريزى ، أحمد بن على : السلوك صور شمسية حـ ٣ ص ٢٣٧ — ٢٣٨) .

« قل اللهم مالك الملك » (١) فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فى ما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٢) .
اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاكى(٣) ، ولا نرحم لباكى (٤) ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا . قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا فى الأرض الفساد ، وذلت لناأعزتها ، وملكنا بالشوكة أزمتها ، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل (٥) فقل له :
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (٦) ، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا ، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، وملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام — وعزنا أبدا لسؤدد منقام ، فمن سالمنا سلم ، ومن رام حربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل . وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم ، فلا تلوموا (٧) إلا أنفسكم ، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ،

---

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦) .
(٢) القرآن الكريم : سورة الزمر : ٤٦ .
(٣) ، (٤) كذا فى الأصل .
(٥) كذا فى الأصل .
(٦) القرآن الكريم : سورة النمل : ٣٤ .
(٧) كذا فى الأصل .

ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم ، وقد أكلتم الحرام ، وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعددتم لكم النار وبئس المصير : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[1] ، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك ، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء ، وأرقتم دم الأشراف ، وهذا والله هو البغى والإسراف ، فأنتم بذلك فى النار خالدون ، وفى غد ينادى عليكم : فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ[2] ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، يا أهل البغى والعدوان ، وقد غلب عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله ، له أمور مقدرة وأحكام محررة ، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا برد الجواب ، قبل أن ينكشف الغطاء ، وتضرم الحرب نارها ، وتضع أوزارها ، وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادى منادى الفراق : فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ[3] ، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزًّا ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[4] . وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين ، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ[5] ، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام »

---

(١) القرآن الكريم سورة النساء : ١٠ .

(٢) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠ .

(٣) القرآن الكريم سورة الحاقة : ٨ .

(٤) القرآن الكريم سورة مريم : ٩٨ .

(٥) القرآن الكريم سورة النور : ٥٤ .

الملحق (٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ :

(المقريزى ، أحمد بن على : السلوك ، صور شمسية ، جـ ٣ ص ٢٣٨)

« بسم الله الرحمن الرحيم

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ(١) حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الكفرة الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون على من حل عليه غضب الله ، وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فذلك أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية ، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية ، قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٢) ، ففى كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعتم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعندنا خبركم من حين خرجتم ، أنكم كفرة ، ألا لعنة الله على الكافرين ، من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع . نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب ، ولا يضرنا ريب ، القرآن علينا نزل ، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل ، فتحققنا نزوله ، وعلمنا ببركة تأويله ، فالنار لكم خلقت ، ولجلودكم أضرمت ، إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ(٣) ، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت (٤) بالتوت (٥) ، والسباع بالضباع ، والكماة بالكراع . نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية ، وسيوفنا يمانية ، وليوثنا مضرية ، وأكفنا

---

(١) القرآن الكريم سورة آل عمران : ٢٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة الكافرون .

(٣) القرآن الكريم : سورة الانفطار : ١ .

(٤) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط) .

(٥) كذا فى الأصل .

شديدة المضارب ، وصفتنا مذكورة فى المشارق والمغارب ، إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ، وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١) . وأما قولكم : قلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم ، كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢) . الفرارا الفرار من الرزايا ، وطول البلايا ، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء ، فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ(٣) . أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، تطلبون منا طاعة ، لاسمع لكم ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ، ففى نظمه تركيك ، وفى سلكه تلبيك ، لوكشف الغطاء لبان القصد بعد بيان ، أكفر بعد إيمان ، أم اتخذتم إلها ثان ، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هدًّا (٤) ، قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته ، وصل كتابك كضرب رباب أوكطنين ذباب ، كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ(٥) ، إن شاء الله تعالى [لقد

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران : ١٦٩ – ١٧١ .
(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة : ٢٤٩ .
(٣) القرآن الكريم : سورة المائدة : ٥٦ .
(٤) القرآن الكريم : سورة مريم : ٨٩–٩٠ .
(٥) القرآن الكريم : سورة مريم : ٧٩–٨٠ .

خلطتم فى الأمر فى الذى أرسلتم] (١) وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(٢) والسلام».

الملحق (٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كتبه من ملطية فى شهر المحرم سنة ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه حـ ٢ ، ص ٢٧٦)

النص الفارسى :

«أزبدرت أنواع حركات نابسنديده بظهور آمد ازا نجمله بقتل ايلجيان ابن جانب بى موجبى فرمان داد واتلمش راكه ازبند كان دركاه ماست محبوس كردانيد وبازنفرستاد وجون اولباس حيات عاريتى بازسپردة ، برسش وجزاى اوبديوان قيامت افتاد وتومى بايدكه برخود واهالى مملكت رحم كنى واتلمش رادوزمان روانه ابن طرف سازى تا از ظلام قهر وانتقام سپاه خون آشام ماروز سلامت اهل مصر وشام بشام نرسد واكربوسوسه شيطان لجاج وعناد خلاف ابن معنى بخاطر راه دهى جميع آن ديار وبلاد ازمرور وعبور عساكر منصور وبران هدشد ووزر ووبال خون ومال مسلمانان بكردن توخوا هدبود »

ترجمة الكتاب :

« لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب ، وحبسه أطلمش الذى كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه . ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى البارى يوم القيامة . وينبغى عليك أنت أن ترحم نفسك وأهل مملكتك ، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق إلى الثأر . وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف ، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها . وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم فى عنقك »

---

(١) مابين الحاصرتين من ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).

(٢) القرآن الكريم : سورة الشعراء : ٢٢٧ .

الملحق (٥)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم تيمورلنك لحصار دمشق (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه ، ج ٢ ص ٣١٥ — ٣١٦)

النص الفارسى :

«اثار حزم وعزم مادر كارها دانسته ايد وعلو همت مادر تحصيل مطالب واتمام ما قصد ومآرب شناخته وعاقلان دانندكه دا من كبر مردان درامور غيرت است وحميت اكرباد شاه است واكر رعيت ومقصود اصلى بادشاهان ازكشيدن لشكر وكشادن كشور با آن همه خوف وخطر رعايت ناموس است درحال وبقاء ذكر جميل در مآل نه مجرد جمع مال وتكثير منال « بيت »

« همه كار جهان ناموس ونام است »

« وكرنه نيم نان روزى تمام است »

يكرات أتلمش را طلب داشتيم ونفر ستاديد ودران جزرى قضيه جندان تعلل وتأخير كرديد كه‌دست حميت عنان عزيمت ما باينجانب تافت وبسى خرابى وخلل باحوال واوضاع مردم اين مملكت راه يافت «بيت»

كراز كوه برسى بيابى جواب   كه شاخ خطا ميوه ندهد صواب

با ابن همه اكر أتلمش را ارسال نماييد وسكه وخطبه بالقاب ما بياراييد تا بساط نزاع درنور ديده شود وبرخود رحم كرده باشيد وبراهالى ابن ديار وكرنه لشكر جرار خونخوار مارا قتل مخالف وقهر دشمن وشهر كرفتن وكندن رسم معهود است وغايت مقصود « نظم »

« طريق مدارا وراه ستيز »
«كزان امن خيزدوزين وستخيز »
« نمودم بتو عقل را كار بند »
« وزين هردوره كن يكى رابسند »

ترجمة الكتاب :

«لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا فى الأمور ، وعلو همتنا فى تحصيل المطالب ، وإتمام المقاصد والمآرب ، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيرة والحمية ، سواء كان الرجال ملوكا أو من أفراد الشعب . وإن الهدف الأصلى

للملوك من قيادة الجيوش وفتح الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس فى الحال وبقاء الذكر الجميل فى المآل ، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال .

إن أهم الأعمال فى الدنيا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب ، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز

وقد طلبت أطلمش مرات ، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله ، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادكم ، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال فى دياركم .

«إذا نطق الصخر ، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطى ثمراً»

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش ، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا ، وطويت بساط النزاع بيننا ، ورحمت نفسك وأهل ديارك ، لانتهى كل شىء ، وإلا فإن جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف بالمخالفين ، ويقهر المعاندين ، ويستولى على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود .

« هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج »
«الأول يؤدى إلى الأمن والثانى يؤدى إلى الحرب »
« وقد أظهرت لك العقل فانتصح »
« واختر طريقاً من الطريقين »

الملحق (٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه جـ ٢ ص ٣١٧)

النص الفارسى :

« ما بند كان در مقام اطاعت وانقياديم واتلمش راتاينج روز ديكر بفرستيم واكر انحضرت ازسر جرايم ما دركذرد بعد ايزن در اقامت وظايف فرمان بردارى وطاعت كذارى تقصير واهمال جايز نداريم وبآنچه در مكنت وتوان ما كنجد رضاى شريف بند كان ايشان بدست آريم عواطف بادشاهانه »

ترجمة الكتاب :

« نحن عبيد فى مقام الطاعة والانقياد . وسنرسل أطلمش فى خلال خمسة أيام . فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر فى أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر ، وإظهار الخضوع وسنفعل كل مافى مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » .

الملحق (٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ ه (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه ، ج ٢ ص ٣٢٧)

النص الفارسى :

« آنجه دى روز واقع شد غوغاى عام بودبى اختيار ماجمعى جهال وأوباش ازنادانى جسارت نمودند وسزاى خود ديدند ما برهمان عهديم كه عرضه داشت كرده ايم أكر لشكر امروز مصاف موقوف دارند وبسلامت فرود آيند فرداً هرجه فرمان انحضرت باشدكاريند شويم وبعذر تقصيرات كذشته حسب المقدور قيام نمايم » .

ترجمة الكتاب :

« إن ماحدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا ، إذ أن جمعاً من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم . ونحن باقون على العهد الذى عرضناه ، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم ، فإننا سوف ننفذ غداً كل ماتأمرون به ، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور » .

الملحق (٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥ ه (ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٦ ، ص ٢٤٦) .

النص الفارسى :

« بنصرت إلهى وعنايت بادشاهى تمام مملكت روم درتحت تصرف وتسخير بندكان دركاه ما قد اركرفت بايدكه سكه وخطبه ولايت شام ومصر به ولقب هما يون زيت ما وزينت دهد واتلمش رادر زمات بدركاه عالمپناه روان سازد واكردسين

أبواب تغافل جايز دانديفين داندكه رايت نصرت مال بعد إذ مراجعت ازديار روم متوجه مصر وان مرزوبوم خواهد شد هرجه دردل اشم كفتم تودانى بعد ازاين وقد أعذر من أنذر » .

ترجمة الكتاب : « أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله ، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغى أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم ، وأن تطلقوا سراح اطلمش فى الحال ، وترسلوه إلى بلاطنا الذى هو ملجأ للعالم ، وإذا تغافلتم فى هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها . وقد قلت كل ما فى نفسى وأنت تعرف ما بعد ذلك . وقد أعذر من أنذر » .

الملحق (٩)

كتاب من النجاشى داود إلى السلطان برقوق : (ضمن مجموعة سيرة برلام ويواصف : مخطوطه بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس تاريخها ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش رقم ٤٢ تاريخ ذيل المخطوطة ص ٣٣١ — ص ٣٣٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

« من المحب داود المدعو قسطنطين إلى المقام العالى المولوى الكبيرى السلطان الملكى العادلى سيف الدين الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سلطان المسلمين والإسلام بديار مصر والشام . ملك الأنام ، الخاص منهم ، أعز الله أنصاره وضاعف علوه واقتداره . ورفع لواءه ومناره . ومحا بعدله أسباب الظلم وآثاره ، وجعل الفضل بالعدل شعاره . أما بعد رحمة الله تعالى ، يقلد ملك أرضه من يشاء من عباده ، وحافظ عدل أوليائه وأنبيائه الصادقين القائمين بأوامره ومراده ، نحمده على ماأولانا من جزيل نعمائه . فنشكره شكراً على جزيل آلائه ، ونسأله الإعانة على القيام بما يرضيه فيما خولنا إياه من التخصص بهذه المملكة الوسيعة والدرجة الرفيعة . إنه على ما يشاء قدير ، وقد شهد عند كل عارف ومتردد علو مقدار مملكة الحبشة ومحل ملوكها عند سائر الملوك ، وأنهم منصورون من الله تعالى فى تصرفاتهم ، فإن مقاصدهم الخير لكل الناس أجمعين ، ويتعمدون العدل ، والإنصاف فى عنايتهم والشفقة عليهم وردع الظالمين ، ومنع كل المفسدين من الأذى للرعية أجمعين ، وإيصال الحقوق إلى المستحقين وأمن السبيل والإحسان إلى الرعية وحفظ العهود لأولياء العهد مادامو عليه حافظين ، وإنصاف المظلوم من الظالمين . السلام عليكم سلاما جزيلاً وافراً كما يليق لعظيم سلطانكم . السلام على أمراء دولتكم

الأعزاء والأخصاء بكم ومقدمى جيوشكم الصغار والكبار ورحمة الله وبركاته عليكم أجمعين . آمين .

نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم ، أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه غير المدركة جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة ، واتفاق سائر الملوك والأمراء ، ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطنة العظيمة النجاشية فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود لسليمان ابنه عليهما السلام فقابلنا ذلك بالحمد والشكر ، ثم نظرنا فى أمر الرعية وأمرنا بإطلاق المحابيس والمأسورين . وفتحنا أبواب السبل للتجار والمسافرين وأمعناالنظر فى مصالح بلادكم ،وفى الوصية بأولادكم والتجار الكارمية وغيرهم فى البر والبحر ، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية لما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم ، وبالخاصة ماكان بين الملك الشهيد الأكمل عبد سنون جدى ، وبين الملك الناصر محمد بن قلاون من المحبة والاتفاق وماكان يعتمد الملك الناصر رحمه الله تعالى الوصية بأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية والأقاليم الشامية ومراعاتهم ومنع من يتعرض لهم بأذية . والآن فقد ورد علينا كتاب أبينا ورئيسنا ومربينا البطريرك أنبامتاءوس بطريرك الإسكندرية والديار المصرية والحبشة والنوبة على يد الأسقف المكرم إبراهام ورفقته ، وكتابكم الشريف على يد رسولكم القاضى برهان الدين ورفقته الفقهاء . فقابلناهما ثم قابلناهما بالإكرام والتبجيل ، وهما يتضمنان أن قوماً أنهوا عندكم بأننا قد تسلطنا على المسلمين المقيمين ببلادنا بالقتل والإساءة والإكراه على الدخول فى ديننا بالجبر والقهر ، وأنهم فى أمور صادرة ، وهذه الأمور أكثرها سقيمة وينبغى لمن له النظر فى تدبير المملكة الإسلامية ومقابلة القوم المنفيين بما يستحقونه من القصاص الواجب على الكاذبين ، لأن هؤلاء القوم المذكورين الذين أنهوا عنهم إنما هم مقيمون فى بلادنا راضين غير مكرهين ، وكانوا فقراء فصاروا تجاراً مثقلين ، ويتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية ولاحق ولامكس يطالبون به بل هم أكثر من أهل البلاد يكرمون . ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا ، فلا نمنعه من ذلك ، وأما الإكراه على الدخول فى ديننا فهذا غير واجب فى كتبنا ، وإن اتفق شىء من ذلك فيكون منهم بالرضا والرغبة الشافية ، وأما إحساننا لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين فهو ظاهر للعارفين . أول ذلك بحر النيل المبارك الذى يجرى فى بلاد الحبشة إلى أرض مصر وأعمالها بطرق جرياتها للديار المصرية بعيدة صعبة المسالك . ونحن نأمر بإقامة أناس أشداء يسوقونها ويسهلون سبلها وطرقها ، ثم يصرفونها إلى أماكن أخرى ، ولو وصل للديار المصرية لغرقها وغرق كل ما فيها ، ثم نأمر كل وقت بإرسال الغلال إلى السواحل ونواحيها ، والكور والمدن الإسلامية لأجل من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية

والمسافرين إلى الأقطار الحجازية ، والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بحراً وبراً . ونأمر بحفظ الطرقات من المتخوفين ومن العربان المؤذيين ، وتقفية آثار المعتدين. وأما طرق الإقامة بالبلاد الحبشية فكل من يرد عليها من المسلمين نأمر بالوصية عليهم إن كانوا صادرين أووارديين ، حتى لو سار إنسان واحد بمفرده فى البلاد مع وسعها وكثرة أهلها ، فهو على نفسه وماله من الآمنين ثم الاحتفال بالملوك المسلمين وببلادهم التى تحت سلطاننا وحوزتنا ونحن بها ظافرين . وكل من توفى منهم إلى رحمة الله تعالى نقيم مكانه من ذريته ونسله ، ونسلم إليهم بلاد النصارى من أهلنا والتزامنا ونسلطهم عليهم ، يعطونهم الخراج بالحقوق الواجبة على الرعية للملوك وهم مكرمون مبجلون أكثر من النصارى وعندنا مع الإنصاف بلاشكوى ، ومن له ظلامة منهم ومن غيرهم فهى واجبة على حكم العدل والإنصاف وهؤلاء القوم الذين أنهوا إليكم بما قد طالعتمونا به لايعرفون عنا شيئاً لأنهم أصحاب غرض وأهوية فاسدة وهم مفتنون بين الملوك ، ولكن من أساء إلينا وعاندنا وخامر علينا ومانعنا بما يلزمه من الخراج أيضاً ، والقطيعة التى عليه فى كل بلاده أسوة بمن كان قبله فنغزو عليه على عادة الملوك إذا خامر عليهم أحدمن الأمراء مثل ماتفعلون مع العربان ببلادكم ولكن اسألوا من التجار المترددين إلى بلادنا عن أخبارنا . وأما جماعة المسلمين عليهم مزيد الأمن والأمان ببلادنا . وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى فى أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد ، أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريرك ، وإخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها ، وأنكم عزلتموهم من خدمتهم وعوائدهم المستقرة فى أيام الملوك السالفين فقابلتموهم بضد الإحسان ، وحصل فى حقهم ما لم يحصل من السالفين فيما تقدم من السنين . إذا وجهنا بهم إليكم تقابلونهم بالفرح الزايد والإكرام والاحترام ، وتسمعون منا ماسألناكم فيه وتجيبوننا عنه بالقول ، ويأتوننا من عندكم فرحين مسرورين ، وتعيدون لنا الجواب بأحسن الخطاب مع الهدايا الفاخرة والسلاح والثياب المثمنة وغير ذلك . فلما نقضتم العهود والعوائد المستقرة بين الملوك صعب ذلك على والدنا المرحوم سيف أرعد ، وامتنع عنك وعن مراسلاتكم ، وكان فى عقابه بدا من جهتكم مالا يلائم من وجوه اللوم والانجماع حتى تعملوا مايحصل من مصالح لكم من جهتنا إذا نقضناه ومقدار الإحسان والمراعاة لبلادكم وتجاركم وجذبنا حبل الوصل عنكم وصرمناه .

ولكن لما وصل إلينا كتاب أبينا ورأسنا ورئيسنا السيد الأب البطريرك ، فإننا تحت طاعته ولانستطيع مخالفته . والآن فقد جهزنا إليكم أحسن تجهيز مع أولادنا الخصيصين بنا ، ومن أكابر دولتنا وهم زرع ضمانون الكيتى ، وزرع الأمانة بمحل مارى سعاده

بمحل اخرسطوس (عبد المسيح) وعلى أيديهم المكرمة التى تليق بمثلكم . وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أبينا البطريرك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية بما حوته الأقاليم الإسلامية وأجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التى أخذتموها وجعلتموها مساجد . وهذا بخلاف ما أمر به صاحب شريعتكم من حفظ الذمة . فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظهم كنائسهم ورزقهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلين كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألناكم فيه ، فالعهد باق بيننا وبينكم والمودة باقية ونعامل المسلمين بأكثر من ذلك . ومهما فعلتموه مع أبينا البطريرك وإخوتنا النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين الذين فى حوزتنا وفى سلطاننا وأنتم مطالبون بما يأتيهم . أعاذكم الله من ذلك . ولابد من أن عظمتكم علمتم من التجار المترددين إلى بلادنا وغيرها من سعة بلاد الحبشة وكثرة ملوكها وكيف وعدهم الله فى آخر الزمان وقد قرب الميعاد أن نفعل ما يأمر الله به ، وكيف يسهل لنا الطرقات ولا يخفى على علمكم ما نطقت به الكتب . ونعلمكم أن الله تعالى كشف لنا فى توزيع مجارى النيل المبارك وصده عن الديار المصرية ما لم يكشف لأحد من الملوك المتقدمين قبلنا . وتعلمون أن النصارى تحت سلطانكم بالديار المصرية وغيرها ما يوازون الكثير من إقليم واحد من أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا ، والواصلون إليكم من رسلنا تقابلونهم بما يليق بمثلكم ، وتقضون جميع أشغالهم من جميع ما كتبناه إليكم من أمور إخوتنا النصارى وكنائسهم وأديرتهم وركوبهم معتدلين وتدعونهم يتوجهون إلى القدس الشريف للزيارة والتبرك به ويسيحون لنا فيه الآثار المقدسة الشريفة . وقد بلغنا أن بعض أجساد الشهداء الذين لنا وهو أبو إسحق الذى من دفرا أخرجوه من كنيسته وذكروا أنه عند بعض الأمراء فى بيته ، والقصد من سياستكم تشرفون بإرسال الشهيد المشار إليه صحبة رسلنا وواحد من رءوس بلاد المسلمين يسمى الحاج عيسى بن عبد الله وفقهاء البلاد ، فهم يعرفون أحوال المسلمين عندنا وما هم فيه من الخير وركوبهم معتدلين على الخيول والبغال المثمنة . ولكن نحن منتظرون مايرد علينا من الأخبار على يد رسلنا سريعاً فمهما فعلتموه بإخوتنا النصارى فنحن فاعلوه مع المسلمين الذين تحت سلطاننا ، خيراً كان أو شراً . وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به . وجماعة من رسلنا أيضاً تخاصمهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد العالية ليعملوهم مسلمين ، وهذا غير واجب فى الشريعة ولاجرت به عادة فى زمن المسلمين السالفين.

وبلغنا أيضاً من المترددين إلينا أخبار الملك ، وما هو عليه من العدل والإنصاف ، والإحسان والشفقة على سائر خليقة الله تعالى فسررنا بذلك كثيراً ، وفرحنا الفرح الكامل

بما خصكم الله تعالى من الجلوس على كرسى المملكة بالديار المصرية والأقاليم الشامية فيجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى على ما أولاكم من النعم . ثم نسألكم أيضاً أن تتواصوا بأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى وكنائسهم التى أخذتموها وعملتموها مساجد بغير حكم حق فتعيدونها لهم ، وتأمروا بركوب إخوتنا النصارى معتدلين والاراخنة الذين منهم ، والكتاب الذين فى الدولة ومن تجرد منهم على عوائدهم التى كانت فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون . فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع إخوتنا النصارى فنحن نتوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم . ومتى والعياذ بالله تعالى حصل لأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى جور من قبلكم أومن جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر منا لسائر أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى الأقاليم الأخرى كما أعلمناكم فى أعلى كتابنا ، ومهما يحل بهم يكون الذى كان السبب فيه مطالباً بدمائهم .
ونعلمكم سعة البلاد وما نقاتل به المسلمين وهذه أسماؤهم :

سلطان سنقرا وأقاليمه . سلطان كنزا وأقاليمه . سلطان منو أقاليمه . سلطان فانا وأقاليمه. سلطان أنون وأقاليمه . وبأرض الدواريت عشرة سلاطين مسلمين . سلطان بربأرض نوحا وأقاليمه . سلطان هاره وتحت يده ملوك مسلمين مائة وثلاثون ملكا . سلطان تاكيا وتحت يده سلاطين مسلمون مائة وثلاثة وستون سلطاناً . سلطان طاعة تحت يده ملوك مسلمون مائة وخمسون ملكا وملوك المسلمين بأرض داروا أربعين ملكا . وسلطان دفاه . فكل التجار يعرفونكم سعة مملكتى . سلطان سرجه وأقاليمه . سلطان أحواره وأقاليمه . سلطان أريحا وأقاليمه . سلطان كثروا وأقاليمه سلطان أمرا وأقاليمه . سلطان ترحموا وأقاليمه . سلطان باراتا وأقاليمه . فهؤلاء جميعاً يعطون الخراج من ذهب وفضة وقماش وحرير وخيول وبغال وغير ذلك . وأما الذمة الذين فى وسط بلادنا فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى . وإنما ذكرنا لكم الأقاليم البعيدة إلا ليحاط علمكم بذلك ويستدرك فارطه فى رجوع الكنائس والأديرة بغير حكم حق وعملت مساجد . فمتى والعياذ بالله لم تجيبونا إلى ما سألناكم فيه جميعه وإلا فنحن موقعون الفعل بجميع أقاليم المسلمين وسلاطينهم ، وتكونون أنتم المطالبين بدمائهم — لكن أجروا أبانا البطريرك وإخوتنا النصارى على عوائدهم التى كانت فى أيام السلطان محمد بن قلاوون . والمرجو من الله تعالى إصلاح الأمور لنا ولكم والله تعالى يسمعنا أخباراً تسر القلوب ، وتشرح الصدور بصالح الأمور بمنه وكرمه وخفى لطفه ، فإنه سابغ مراحمه ونعمته من بعد فراغ السلام الوافر عليكم وعلى أمراء دولتكم ومقدمى بلادكم وكل من يلوذ بكم وبمقامكم الشريف . ونشكر الله تعالى على الدوام فى مدى الليالى والأيام أجمعين آمين .

المراجع

أولا – المخطوطات العربية

ابن أبى السرور ، محمد بن السيد (١٠٨٧ هـ) :

أ – عيون الأخبار ونزهة الأبصار – دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٢ :

ب– النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية – دار الكتب القاهرة برقم ٢٢٦٦ تاريخ .

ابن أيبك ، أبو بكر عبد الله : (ق ٨ هـ) :

كنز الدرر وجامع الغرر ٩ أجزاء مصورة بدار الكتب القاهرة برقم ٢٥٧٨ تاريخ .

ابن بهادر ، محمد بن محمد (القرن ٩ هـ) :

فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، جزءان ، مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٩٩ تاريخ .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+ ٨٧٤ هـ) :

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ٣ مجلدات – دار الكتب بالقاهرة برقم ١١١٣ تاريخ .

ابن حبيب ، الحسن بن عمر (+ ٧٧٩ هـ) :

درة الأسلاك فى دولة الأتراك ؛ ٣ أجزاء مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٦١٧٠ ح .

ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد (+ ٨٠٩ هـ) :

الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين – النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٢٢ تاريخ والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ .

ابن قاضى شهبة ، أبو بكر أحمد بن محمد (+ ٨٥١ هـ) :

ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) ٧ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٩٢ تاريخ .

الأسدى ، محمد بن أحمد :

التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار — دار الكتب بالقاهرة رقم ٥٤٨٦ تاريخ :

البسطامى ، عبد الرحمن بن محمد على (+ ٨٤٣ هـ) :

مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٥ مجاميع .

البغدادى ، أحمد بن عبد الله (١١٠٢ هـ) :

عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان — مصورة فى مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٨١٠ تاريخ .

الخزرجى ، عبد القادر بن محمد الأنصارى (ق ٩ هـ) :

درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة — دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٧ م .

الخطيب ، على بن داود (ق ٩ هـ) :

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان — نسخة بخط مؤلفه بدار الكتب القاهرة برقم ١١٦ م . وكذلك نسخة الجامعة الأزهرية برقم ٤٢٤ تاريخ .

الزيانى ، أبو القاسم عبد الله (ق ١٣ هـ) :

الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٠٤ تاريخ .

السلامى ، شهاب الدين أحمد (ق ٩ هـ) :

مختصر التواريخ — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٣٥ تاريخ .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (+ ٩١١ هـ) :

تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — دار الكتب بالقاهرة برقم ٦١ تاريخ .

الصفدى ، صلاح الدين خليل ، (+ ٧٦٤ هـ) :

(أ) أعيان العصر وأعوان النصر — ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٩١ تاريخ .

(ب) الوافى بالوفيات — ١٧ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٢١٩ تاريخ .

الطيب ، أبو محمد بن عبد الله (ق ١٠ هـ) :

قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر — ٣ أجزاء فى ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٧ تاريخ .

العسقلانى ، أحمد بن حجر (+ ٨٥٣ هـ) :

(ا) إنباء الغمر بأنباء العمر — جزءان بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

(ب) تاريخ المائة التاسعة — مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٧٦٧ تاريخ .

العينى ، بدر الدين محمود (— ٨٥٥ هـ) :

(ا) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان — فى ٧٠ مجلدا بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٨٤ تاريخ (مصورة) .

(ب) السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد — دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٣٥٤

الفاسى ، أبوالطيب محمد بن أبى العباس (+ ٨٣٢هـ) :

العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين — ٤ مجلدات بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٧٨ تاريخ.

القدسى ، محمد أبى حامد (ق ٩ هـ) :

دول الإسلام الشريفة — ضمن مجموعة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٣٣ تاريخ.

الكتبى ، عبد الله محمد بن أحمد بن شاكر (+ ٧٦٤ هـ) :

عيون التواريخ — ١٦ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩٧ تاريخ .

المقدسى ، مرعى بن يوسف (+ ١٠٣٣ هـ) :

نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين — بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٠٧٦ تاريخ .

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (+ ٨٤٥ هـ) :

(ا) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٣ ، جـ ٤ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٥٥ تاريخ والمصورة برقم ٤٦٤ تاريخ.

(ب) المقفى الكبير — ٤ مجلدات مصورة برقم ٥٣٧٢ تاريخ .

(جـ) كتاب جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار — دار الكتب القاهرة برقم ٤٥٨ جغرافية ، وربما تكون لأحد تلاميذ المقريزى .

النويرى ، أحمد بن عبد الوهاب (+ ٧٣٢ هـ) :

نهاية الأرب فى فنون الأدب — من جـ ١٨ حتى جـ ٣١ خطية دار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة .

النويرى ، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندرى (+ ٧٧٥ ھ) :

الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ ھ فى مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩ تاريخ .

الهيثمى ، أبو العباس أحمد بن حجر (+ ٩٧٤ ھ) :

إتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا — دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٧٦ تاريخ.

بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥ ھ) :

(ا) التحفة الملوكية فى الدولة التركية — مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ .

(ب) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨ .

يوساب ، أسقف فوه (ق ١٥ م) :

كتاب تاريخ البطاركة مخطوط بمكتبة دير السريان بوادى النطرون .

ثانيا — المخطوطات الفارسية

ميرخواند ، محمد بن خواندشاه (ق ٩ ھ) .

كتاب روضة الصفافى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا — ج ٦ مخطوط بجامعة القاهرة برقم ٩٧٨ فا

ثالثا — المصادر العربية المطبوعة

ابن أبى الفضائل ، مفضل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد — نشر E. Blochet. (باريس ١٩١١ — ١٩٣٢ م)

ابن الشحنة :

الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب.

ابن الطوانى ، حسن بن حسين (ق ٩ ھ) :

النزهة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية (القاهرة ١٢٩٤ ھ) :

ابن العماد ، عبد الحى (+ ١٠٨٩ ھ) :

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٨ جزءاً (القاهرة ١٣٥١ھ) .

ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم (+ ٨٠٧ هـ) :
تاريخ الدول والملوك جـ ٧ ، جـ ٨ ، جـ ٩ نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٦ – ١٩٤٢ م)
ابن إياس ، محمد بن أحمد (+ ٩٣٠ هـ) :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ١ ، جـ ٢ (بولاق ٣١١ هـ) .
ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+ ٨٧٤ هـ) :
(ا) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى – جـ ١ دار الكتب (القاهرة ١٩٥٦ م) .
(ب) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة حتى – جـ ١٢ (سنة ٨٠٨ هـ) طبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٠ – ١٩٥٦ ، طبعة كاليفورنيا جـ٥ ، جـ ٦ ، جـ٧ (١٩١٥ – ١٩٣٩) .
(جـ) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور – نشر .Popper (كاليفورنيا ١٩٣٠ – ١٩٣١) .
(د) مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة – كمبردج ١٧٩٢ م .
ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٤ هـ) :
(ا) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا – نشر محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١) .
(ب) المقدمة .
(جـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر – جـ ٥ ، جـ ٦ (بولاق ١٢٧٤ هـ) .
ابن شاهين ، غرس الدين خليل الظاهرى (+ ٨٧٣ هـ) :
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . نشر .Ravaisse (باريس ١٨٩٤ م) .
ابن عربشاه ، شهاب الدين محمد بن أحمد (٨٤٦ هـ) :
(ا) عجائب المقدور فى أخبار تيمور (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .
(ب) فاكهة الخلفا ومفاكهة الظرفا (بولاق ١٢٩٠ هـ) .
ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل بن محمد (+ ٧٧٤ هـ) :
البداية والنهاية – ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ هـ) :

ابن مماتى ، أبو المكارم بن سعيد (+ ٦٠٦ هـ) :
كتاب قوانين الدواوين — نشر عطية (القاهرة ١٩٤٣) .
أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (— ٧٣٢ هـ) :
المختصر فى أخبار البشر (الاستانة ١٢٨٦ هـ) .
اسكاروس ، توفيق :
نوابغ الأقباط بالقاهرة فى القرن التاسع عشر — ج ٢ (القاهرة ١٩١٠) .
الإسحاقى ، محمد بن عبد المعطى (القرن ١١ هـ) .
لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول (القاهرة ١٢٩٦ هـ).
الأنصارى ، أبوعبد الله :
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (بطرسبرح ١٨٦٦ م) :
الجبرتى ، عبد الرحمن (١٢٣٧ هـ) :
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — ج ١ (بولاق سنة١٢٩٧ هـ) .
الذهبى ، أبوعبد الله (+ ٧٤٨ هـ) :
دول الإسلام — جزءان فى مجلدين (الهند ١٣٣٣ هـ) .
الحيمى :
سيرة الحبشة — نشر الدكتور مراد كامل (القاهرة ١٩٥٨) .
الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن :
العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية (القاهرة ١٩١١ م) .
السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (+ ٩٠٢ هـ) :
(ا) التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق سنة ١٨٩٦ م) .
(ب) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — ١٢ مجلد (القاهرة ١٣٥٣—١٣٥٥ هـ) .
السلاوى ، أحمد بن خالد :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ (القاهرة ١٣١٢ هـ) .
السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (+ ٩١١ هـ) :
(ا) تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .

(ب) حسن المحضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

(جـ) نظم العقبان فى أعيان الأعيان (نيويورك ١٩٢٧) .

الشوكانى ، محمد بن على اليمنى (+ ١٢٥٠ هـ) :

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع — جزءان (القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) .

العرينى ، دكتور السيد الباز :

الفارس المملوكى — بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس (١٩٥٦) .

العزاوى :

تاريخ العراق بين احتلالين جزءان (بغداد ١٩٣٥ م — ١٩٣٦ م).

العسقلانى ، أحمد بن على بن حجر (+ ٨٥٣ هـ) :

(ا) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — ٤ أجزاء — حيدر أباد الهند ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ) .

(ب) رفع الأصر عن قضاة مصر — جـ ١ (تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين — القاهرة ١٩٥٧) .

القرمانى ، أبو العباس أحمد (+ ١٠١٩ هـ) .

أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢ هـ) .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد (+ ٨٢١ هـ) :

(ا) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣) .

(ب) ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر (القاهرة ١٩٠٦ م) .

الكتبى ، صلاح الدين محمد بن شاكر (٧٦٤ هـ) :

فوات الوفيات (بولاق ١٢٨٣ هـ) :

المقريزى ، أحمد بن على (+ ٨٤٥ هـ) :

(ا) إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال .

(ب) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٩٥ م) .

(جـ) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦ م) .

(د) السلوك لمعرفة دول الملوك – ج١ ، ج٢ نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٥٨) .
(هـ) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار – جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ) :

النويرى ، أحمد بن عبد الوهاب (+ ٧٣٢ هـ) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب من ج ١ حتى ج ١٧ (القاهرة ١٩٢٣) .

حاجى خليفة :
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (ليبزج ١٨٣٥) .

خريطة القاهرة والوجه البحرى الدولية .

دائرة المعارف الإسلامية .

دحلان ، أحمد بن زينى :
الفتوحات الإسلامية جزءان القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

رشدى ، راسم :
مصر والشراكسة (القاهرة ١٩٤٨) .

رمزى ، محمد :
القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣ – ١٩٥٤)

زترستين :
تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ هـ إلى ٧٤١ هـ (باريس ١٩١٩) .

زيادة ، دكتور محمد مصطفى :
(ا) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٤٩) .
(ب) نهاية السلاطين المماليك فى مصر – بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع مايو سنة ١٩٥١

سرور ، دكتور محمد جمال الدين :
دولة بنى قلاوون فى مصر (القاهرة ١٩٤٧) .

صالح بن يحيى ، (ق ٩ هـ) :
تاريخ بيروت – نشر لويس شيخو (بيروت ١٩٠٢ م) .

عاشور ، دكتور سعيد عبد الفتاح :

قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .

عزت ، يوسف :

تاريخ القوقاز .

فريد ، محمد :

تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٩١٢ م) ؛

كرد علي ، محمد :

خطط الشام — ٤ أجزاء (دمشق ١٩٢٧) .

مؤلف غير معروف :

كتاب قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش (بولاق ١٢٨٧ هـ) .

مؤلف غير معروف :

مراصد الاطلاع فى أسماء الأماكن والبقاع (ليدن ١٨٥٠ — ١٨٥٩) .

هازارد ، أ.و :

أطلس التاريخ الإسلامى — ترجمة إبراهيم خورشيد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (+ ٦٢٦هـ) :

معجم البلدان ١٢ جزءاً (القاهرة ١٩٠٦ م) .

رابعاً : مراجع فارسية مطبوعة

خواندا مير ، غياث الدين بن همام (ق ١٠ هـ) :

حبيب السير فى أخبار أفراد البشر جـ ٣ (١٢٨٣ هـ) .

يزدى ، على شرف الدين :

ظفر نامه جـ ١ ، جـ ٢ (كلكلتا ١٨٨٧ م) .

خامساً – مراجع أفرنجية

Arnold, T.W.: The Caliphate, Oxford, 1924.

Atiya, A.S.: The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

Ayalon, D.: Studies on the Structure of the Mamluk Army. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V. 16, Part 1, 1954.

B) Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1956.

C) The Circassians in the Mamluk Kingdom, J.A.O.S. 1949.

Browne, E.G.: Literary History of Persia. VIII, Cambridge 1951.

Bouvet, L.: L'Empire Mongol, Paris 1927.

Brockelman, C.: History of Islamic Peoples, London 1949.

B) Geschichte Der Arabischen Literatur (Weimar and Berlin) 1898-1902.

Budge: A History of Ethiopia VI, London 1928.

Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1 and 111, 1954.

De Bouard, M.: La France et l'Italie au temps du Grand Schisme d'Occident, Paris 1936.

De Clanvijo, R.G.: Embassy to Tamerlane, London 1859.

De Gaury, G.: Rulers of Mecca, London 1951.

Delaville Le Roulx, J. : La France en Orient au XIVème siècle, 2 Vol., Paris 1886.

Demombynes, G. : La Syrie à l'époque des Mamelouks Paris 1922.

Devonshire, L. : L'Egypte Musulmane, Paris 1926.

D'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, VI, Paris 1824.

Dozy, R. : Supplément aux dictionnaires arabes (Supplément Dict. Ar.), 2 Vols., Paris 1927.

Dussaud, R. : Topographie Historique de la Syria Antique et Médiévale, Paris 1927.

Encyclopedia of Islam.

Fischel, W.J. : Ibn Khaldun and Tamerlane, California 1952.

Gibbons, H.A. : The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford 1916.

Grousset, R. : L'Empire des Steppes, Paris 1939.

Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levan, 2 Vols., Leipzig 1885.

Hitti, Ph. K. : History of the Arabs, London 1937.

Huart : Histoire des Arabes, 2 Vols., Paris 1913.

Ibn Arab Shah: Tamerlane or Timur the Great Amir, Eng. tr. by Sanders J.H., London 1936.

Ibn Iyas : Histoire des Mamluks Circassiens, 2 Vols., tr. by G. Wiet, Le Caire 1945.

Iorga : Notes et Extraits pour servir à l'Histoire des Croisades au XV siècle, T. 11, Paris 1899-1916.

Journal Asiatique (J.A.).

Journal of American Oriental Studies (J.A.O.S.).

Kevork, A. : Armenia and the Armenians, New York 1920.

Kirk, G.E. : A Short History of the Middle East, London 1949.

Lamb, H. : La vie de Tamerlane. Trad. de l'anglais par Robert P.J.

Lammens, H. : La Syrie, Précis Historique, VII, Beyrouth 1921.

Lane-Pcole, S. : History of Egypt in the Middle Ages, London 1914.

Le Strange, C. : A) Clavijo Embassy to Tamerlane, London 1918.

B) Palestine under the Moslems, London 1890.

Malcolm, J. : History of Persia, London 1815.

Malet and Isaac : L'Histoire du XIV, XV et XVI siècles, Paris 1927.

Miller : The Latins in the Levant, London 1908.

Morgan, J. : Etudes Arch. et Hist. au Caucase, T. 11, Paris 1899.

Muir, W.E. : The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1896.

B) The Caliphate, its Rise, Decline and Fall., Oxford 1902.

Oman, C.W.C.: The Byzantine Empire, London 1915.

Piloti, E. : L'Egypte au commencement du Quinzième Siècle. Trad. par Dopp. P.H., Le Caire 1950.

Poliak, A.N. : A) Les Révoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Mamelouks et leurs Causes Economiques, ex. de la Revue des Etudes Islamiques, Paris 1934.

B) Le Caractère Colonial de l'Etat Mamluk, Paris 1935.

C) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939.

Price, D. : Memoirs of the Principal Events of Mahommedan History from the Deat of the Arabian Legislator to the

Accession of the Emperor Akber. from Original Persian Authorities, London 1820, VIII.

Quatremere, E.: Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte, 2 Vols., Paris 1834-1845.

Sauvaget, J.: Noms et Surnoms des Mamluks, J.A., Paris 1950.

Schiltberger: The Bondage and Travels of Johan Schiltberger, 1396 to 1427, E.D., London Hakluyt Soc. V, LVIII, 1879.

Sykes, P.: A History of Persia VII, London 1951.

Thoumin, R.: Histoire de Syrie, Paris 1929.

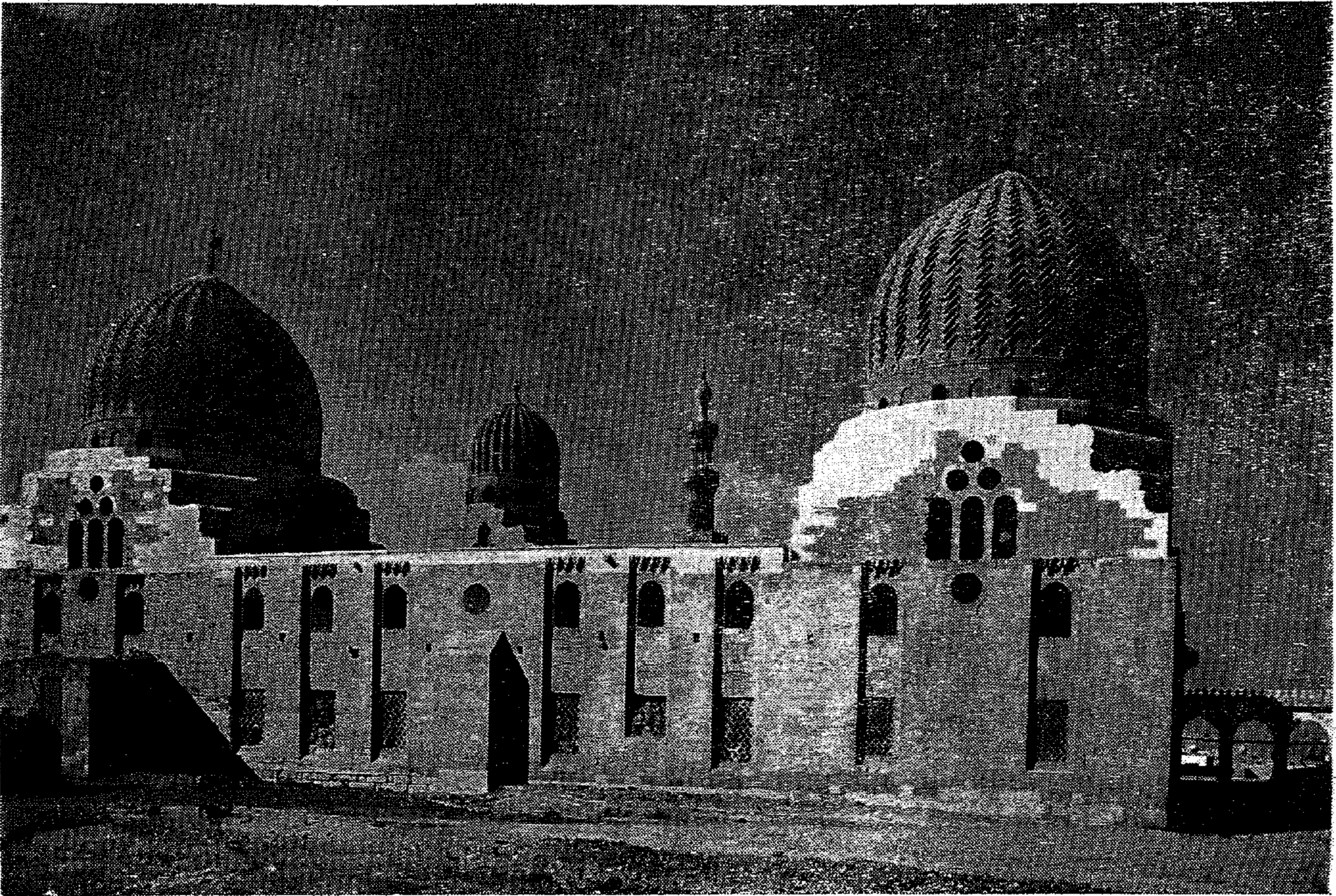
Wiet, G.: Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV (L'Egypte Arabe), Paris 1926.

B) Précis de l'Histoire D, Egypte, T. 11, Le Caire 1933.

C) Biographie du Manhal Safi.

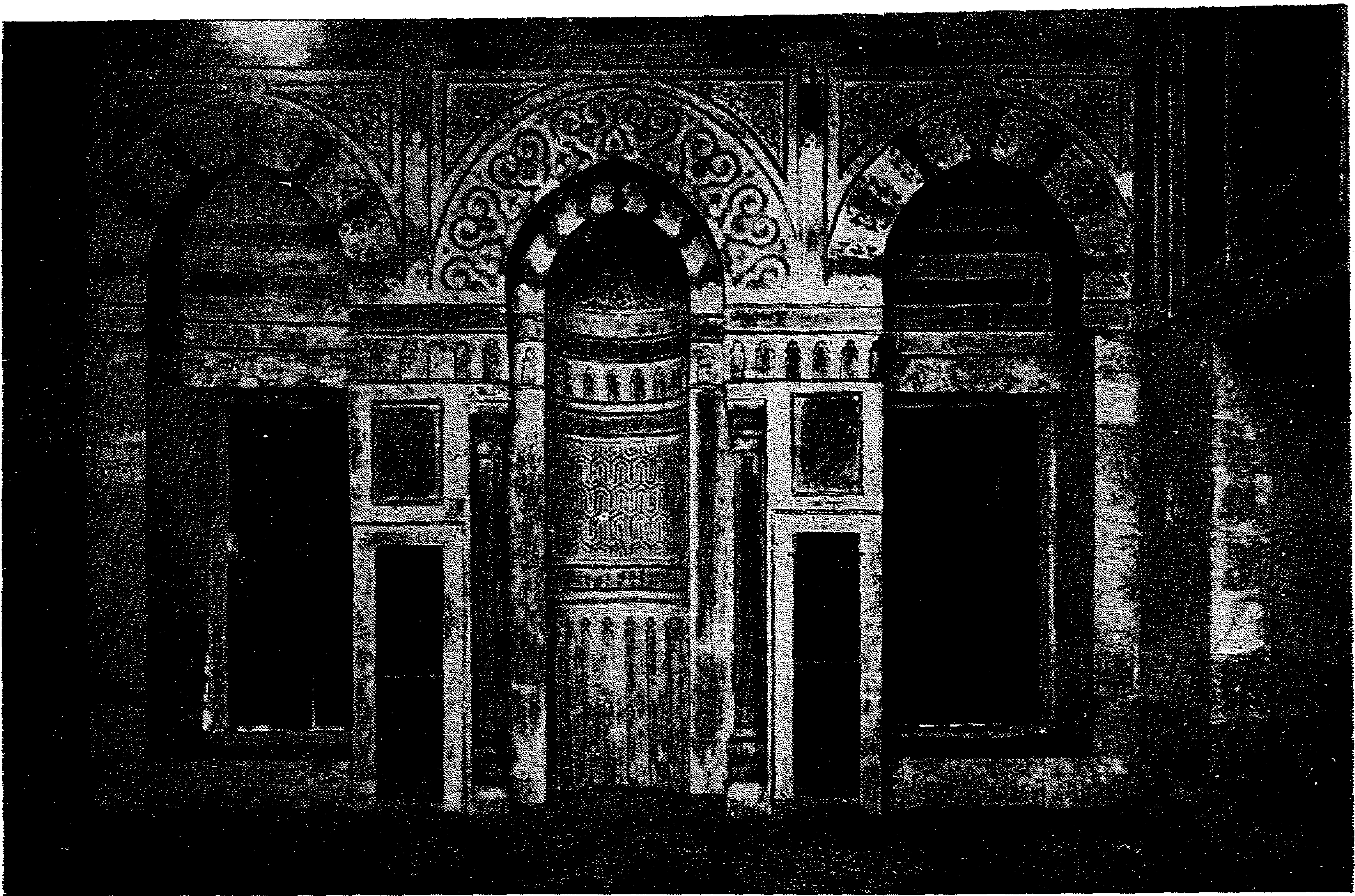
Yazdi, A. Ch.: Zafarnama. Vol IXII
En. Trans by Darly, London 1723.

Ziadeh, N.: Urban Life in Syria under the Early Mamluks, Beiruth 1953.

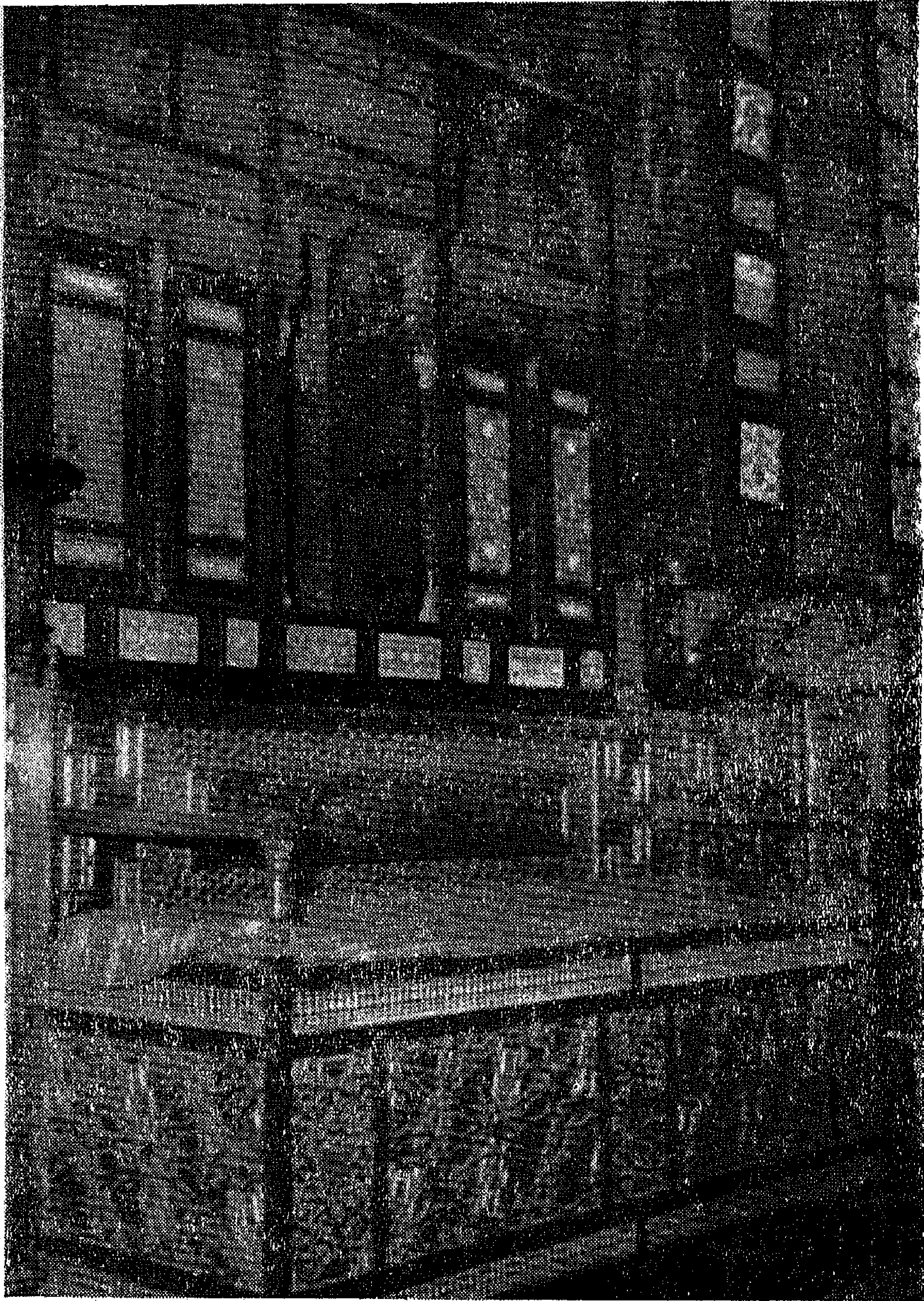


الصورة (١)

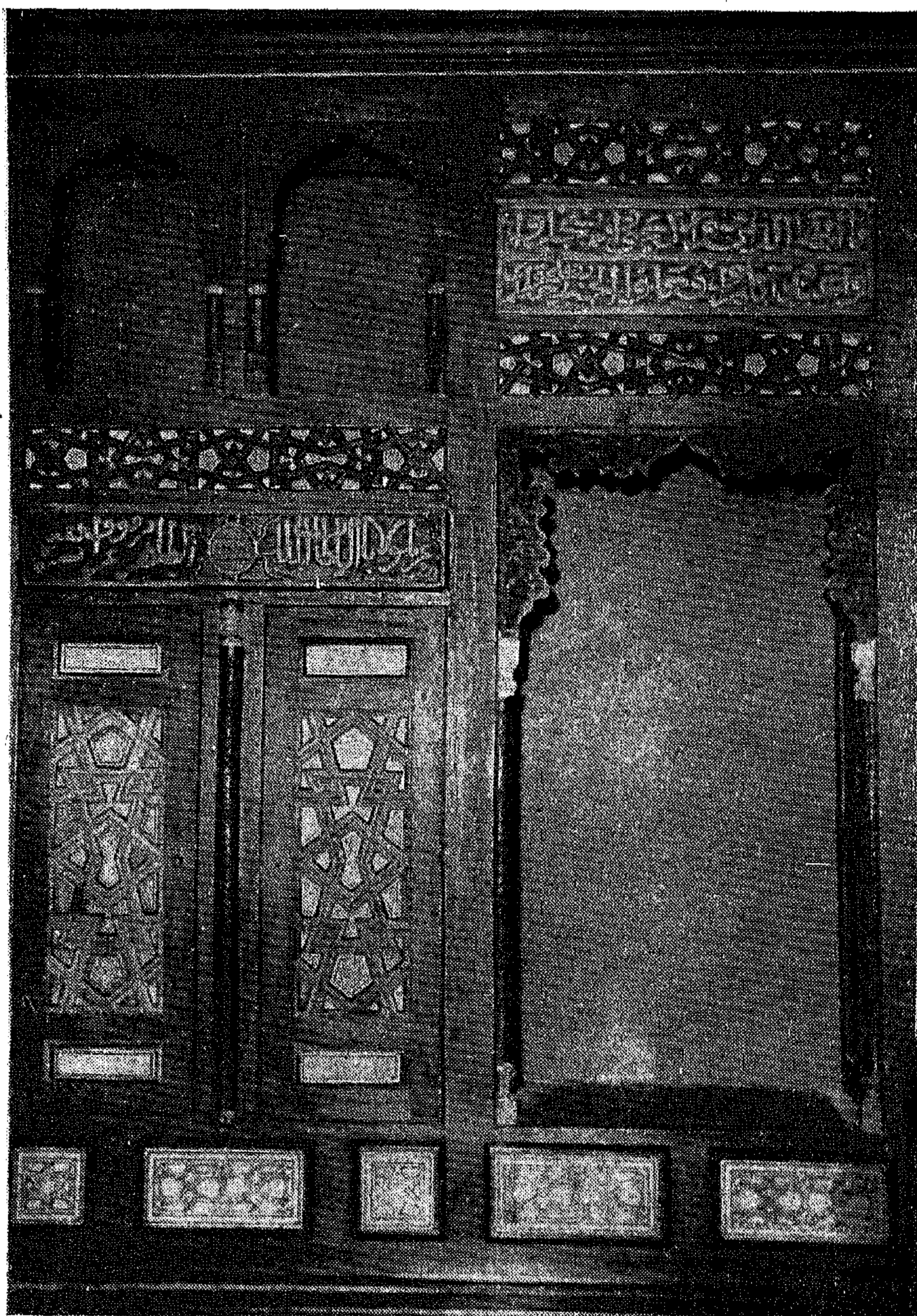
واجهة مسجد السلطان برقوق بالصحراء



الصورة (٢)
الايوان الشرقى لزاوية السلطان فرج بن برقوق



الصورة (٣)
عرش السلطان برقوق

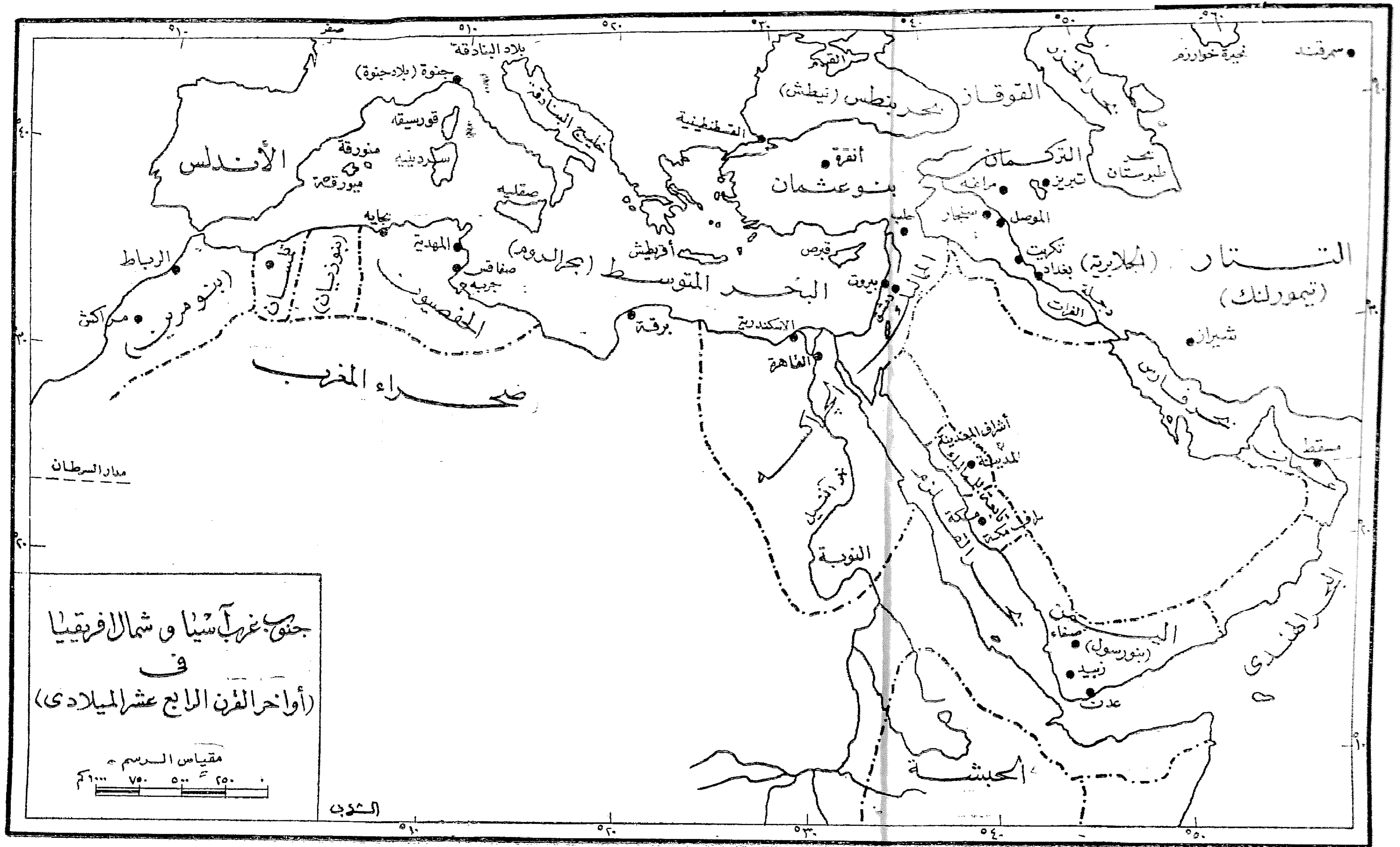


الصورة (٤)

الجزء العلوى من عرش السلطان برقوق وفيه كتابة منقوشه باسم هذا السلطان

الدول المعاصرة لقيام دولة
المماليك الثانية
(فى جنوب غرب آسيا)

القرم
نهر قوبان
بلاد الجركس
بلاد الابخاز
بحر الخزر
بحر بنطس (نيطش)
القسطنطينية
برصه
أنقرة
توقات
سيواس
قيصريه
بنو عثمان
ارزروم
ملطيه
بنو قرمان
بنو دلغادر
قونيه
مرعش
الرها
الشاة البيضاء (آق قويونلو)
ديار بكر (آمد)
ماردين
بنو رمضان
حلب
سنجار
الموصل
الشاة السوداء (قراقويونلو)
تبريز
رودس
قبرص
تكريت
حماه
حمص
دمشق
البحر المتوسط (بحر الروم)
(الجلايريه)
بغداد


جنوب غرب آسيا و شمال افريقيا
في
(أواخر القرن الرابع عشر الميلادي)
مقياس الرسم
الأندلس
البحر المتوسط (بحر الروم)
بحر بنطس (نيطش)
القوقاز
التركمان
بنو عثمان
التتار (تيمورلنك)
(الجلايرية)
صحراء المغرب
الحبشة
النوبة
عدن
زبيد
(بنو رسول)
القاهرة
الإسكندرية
برقة
مراكش
الرباط
المهدية
صفاقس
جربة
بجاية
صقلية
سردينيه
قورسيقه
منورقة
ميورقة
جنوة (بلاد جنوة)
بلاد البنادقة
القسطنطينية
أنقرة
أقريطش
قبرص
حلب
بيروت
الموصل
تكريت
بغداد
تبريز
شيراز
سمرقند
بحيرة خوارزم
المدينة
مكة
مسقط
صنعاء
الفرات
دجلة
مدار السرطان
(بنو مرين)
(بنو زيان)
الحفصيون
أشراف الحجاز
النيل
البحر الهندي

المحتوى

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٤٨ —

التأليف (٣٣)

الأدب [٣١]

القاهرة

١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م